الـجمهورية الـجزائرية الـديمقراطية الـشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة-

كلية الآداب و الحضارة الإسلامية

قسم التاريخ و الآثار

الرقم التسلسلي.....

رقم التسجيل.....

الحركة العلمية في بلاد السودان الأوسط و أثرها في الحياة الاجتماعية

من القرن5هـ-10هـ/11م-16م

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ العلاقات الاقتصادية و الثقافية لبلاد المغرب الإسلامي بإفريقيا جنوب الصحراء

إعداد الطالبة

بوسكين ناهد

إشراف الأستاذ الدكتور

عابد يوسف

لجنة المناقشة

أعـضاء اللجنة	الـرتبة	الجامعة الأصلية	الـصفة
أ.د.عابد يوسف	أستاذ محاضر صنف أ	جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة-	مشرفا و مقرر
أ.د.اسماعيل سامعي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر -قسنطينة-	رئيسا
أ.د.علاوة عمارة	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة-	عضوا
أ.د.مسعود مزهودي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الحاج لخضر _باتنة_	عضوا

السنة الجامعية 1433هـ-1434هـ/2012م_2013م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر و عرفان

وفاءا ،تقديرا و احتراما

لسراج أضاء بنوره درب كل طالب

إلى أستاذي الأستاذ الدكتور:عابد يوسف

أتقدم بالشكر الجزيل على النصح،التوجيه،التشجيع و التحفيز،الإحترام و التقدير.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إهداء

أمي و أبي

ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا

إخوتي و زملائي

إلى كل من كان له النفس الطيب

و الداعم في هذا العمل.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقـــدمـــة

الإسلام دين العلم و المعرفة، دين التقدم الحضاري و الرقي، دين الحضارة و العمران، دين يبشر بقيم و مبادئ لم تأت من قبل و لا من بعد، دين أخرج الناس من الظلمات إلى النور، و أخذ بيد الشعوب التي اعتنقته إلى طريق لم تكن تصل إليه إلا باعتناق ذلك الدين السمح ،و من تلك الشعوب التي أخذ بيدها إلى مدارج الحضارة: شعوب القارة الإفريقية(كانت تعرف بشعوب بلاد السودان في العصر الوسيط) على اختلاف معتقداتها، و التي حولها الإسلام من حالة البدائية الوثنية إلى حالة الرقي و الحضارة و أقام في بلادها حضارة زاهرة متقدمة وضعت شعوبها بين مصاف الشعوب الإسلامية الأخرى في بلدان المشرق و المغرب.

و كان لاعتناق تلك الشعوب الدين الإسلامي أن تسربت الحضارة الإسلامية بكل قيمها و مثلها العليا فخلقت شعبا إسلاميا واعيا شارك مع إخوانه المسلمين في شتى بقاع العالم الإسلامي في بناء الحضارة الإسلامية التي كان لها الفضل الأول على الحضارة التي ينعم بها العالم اليوم.

لذا اتجهت بعض الدراسات الحديثة للتركيز على الجوانب الحضارية و الاجتماعية للدول و المجتمعات الإفريقية خلال العصر الوسيط ، مبتعدة بذلك عن دراسة الجوانب السياسية التي استوفت – و لو بقدر معين- حقها في الدراسة و البحث،لكن مثل هذه الدراسات مازالت تلاقي في المقابل الكثير من الصعوبات أبرزها ما يتعلق بالمادة المصدرية(النصوص المصدرية)، فالمؤرخون القدامى – كما نعلم- لم يعنوا إلا بالتاريخ السياسي و العسكري للدول و المدن و الأسرات الحاكمة هذا من جهة و من جهة أخرى أن المادة العلمية عن التاريخ الحضاري و التي وردت عرضا في هذه النصوص جاءت دونما استقراء تحليلي تاريخي يهدف إلى إبراز ذلك الجانب بالصورة التي نبحث عنها اليوم ، و هذا ينطبق أيضا على كتب التراجم و الطبقات و لكن مع الفارق في أن هذه النصوص ذات أهمية بالغة للدراسات الحضارية.

و يعد تاريخ الحركة العلمية من أبرز الجوانب الحضارية و من الموضوعات المهمة في تاريخ في تاريخ بلاد السودان عموما و السودان الأوسط خصوصا الذي لم يحظ بدراسة كافية،بالرغم أن المنطقة ساهمت بقسط كبير في حركة التاريخ لبلاد السودان في العصر الوسيط،و هذا ما نسعى إلى إبرازه في هذه المذكرة الموسومة " **الحركة العلمية في بلاد السودان الأوسط و أثرها على الحياة الاجتماعية من القرن 5هـــ/11م إلى القرن 10هـ/16م.**"

وعليه الشيء الذي دفعني حقيقة إلى اختيار هذا الموضوع خلال الفترة التي حددناها من ق5هـ/11م إلى ق10هـ/16م الشعور بإهمال الجانب الثقافي في البحث و الدراسة من قبل

الباحثين عن منطقة السودان الأوسط تحديدا و الذي مثلته خلال هذه الفترة المذكورة أعلاه مملكة كانم ــبرنو و ممالك الهوسا ،إضافة أن دراسة هذت الجانب يمكن ان يوضح أكثر المستوى الذي وصلت إليه العلاقات ببلاد لذا سأحاول- إنشاء الله – إزالة بعض العتمة عن مراحل تطور الحركة العلمية بهذه المناطق و إبراز تأثيرها على المجتمع .

أما السبب الذي حدى بي إلى اختيار هذا الإطار الزمني الطويل هو أن الحركة العلمية تمشي في تدرج طبيعي حتى تصل إلى طور الازدهار .

إشكالية الدراسة

الموضوع بالأساس يدور حول تاريخ الحركة العلمية لمنطقة السودان الأوسط و إظهار مدى تأثيرها على الحياة الاجتماعية و بالتالي فالإشكالية الرئيسية التي يمكن طرحها:

هل شهدت بلاد السودان الأوسط حركة علمية بعد انتشار الإسلام و ما مدى تأثيرها على الحياة الاجتماعية؟

و حتى يمكن معالجة هذه الإشكالية و الوصول إلى الهدف المرجو من هذه الدراسة لابد من طرح أسئلة فرعية تساعد على رسم معالم و أفكار الموضوع و هي:

- ✓ ماهو مفهوم السودان الأوسط ؟ هل قامت بالمنطقة ممالك قبل القرن 5هـ/11م؟
- ✓ ما هي العوامل التي يمكن أن تكون ساهمت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في تغذية الحركة العلمية بالسودان الأوسط؟
- ✓ ما هي أبرز مظاهر نشاط هذه الحركة؟
- ✓ ما مدى تأثير رجال الحركة العلمية على المجتمع السوداني؟
- ✓ و هل كان لهذه الفئة دور في ترسيخ العقيدة و الثقافة الإسلامية بهذه المناطق؟

منهج الدراسة و خطة البحث

من أجل الإجابة على كل هذه التساؤلات اعتمدت منهجية قائمة على استقراء و تحليل مختلف النصوص التاريخية المستقاة من مصادر متنوعة،و الاعتماد في ذلك على المنهج الوصفي.

أما فيما يتصل بخطة البحث فقد بدا لي أن تتكون من أربعة فصول مع المقدمة و هذا بناءا على ما توفر لي من مادة علمية.

_المقدمة: بينت فيها أهمية الموضوع و الأسباب الكامنة وراء اختياره و طرح بعض الإشكاليات المراد الإجابة من خلال هذه الدراسة و الخطة المتبعة ثم عرض لأهم المصادر التي اعتمدت عليها.

_الفصل الأول: فقد رأيت اقتضاء للسياق المنهجي أن يكون ممهدا للفصول التي تليه، تناولت فيه السودان الأوسط من حيث الدلالة و المفهوم،ثم تكلمت عن الإطار المكاني من حيث الموقع و جغرافية المنطقة،المبحث الثالث حددنا فيه الممالك التي قامت هناك و هي مملكة كانم _ برنو و ممالك الهوسا ،أوضحنا فيه أصل التسمية و أصل النشأة .

_الفصل الثاني:يهدف إلى توضيح أهم العوامل التي ساهمت في ظهور و نمو الحركة العلمية حيث حاولنا فيه تتبع توسع انتشار الإسلام بالمنطقة و ما إلى هذا الانتشار من فضل في نشر العلم (كما نعلم أينما انتشر الإسلام انتشر معه العلم و المعرفة و الرقي). كما وجهنا اهتمامنا إلى قيام الممالك الإسلامية و التي كانت تحصيل حاصل للانتشار الواسع الإسلام ،و أصبحت جزءا من دار الإسلام لذا حاولت أن تطبع بلدانها بالطابع الحضاري الإسلامي فشجعت العلم و العلماء لتحقق ذلك،ثم حاولنا رصد الهجرات المختلفة إلى المنطقة التي بدورها ساهمت في نشر الإسلام و اللغة العربية كما تضمنت بعض هذه الهجرات العلماء الذين عملوا من جهتهم في تقدم و نمو الحركة العلمية،في الأخير ركزنا على الصلات مع المراكز الثقافية الموجودة في دول الشمال و الشرق و الغرب و التي استمرت لعدة قرون تغذي المنطقة بالعلماء و العلم ،و كانت لهذه المراكز- القاهرة و فاس و القيروان و تلمسان- مكانة عالية تضاهي بحق المراكز الموجودة في المشرق – المدينةّ، بغداد و دمشق- هذا دون أن نغفل الدور الذي لعبته تمبكتو – أهم المراكز الثقافية بالغرب الإفريقي- في بعث تأثيراتها الثقافية لمنطقة السودان الأوسط تحديدا ممالك الهوسا القريبة منها.

_الفصل الثالث:عنوانه مظاهر نشاط الحركة العلمية ، تطرقنا فيه لأول مظهر من مظاهر هذا النشاط و هو نظام التعليم و مراحله و مؤسساته ،و تطرقنا أيضا للرحلة العلمية التي كان يقوم بها العلماء و الطلبة سواء بالرحيل إلى المراكز الثقافية المجاورة أو الوافدين إلى المنطقة لنشر الإسلام و العلم،ثم حاولنا فيه تبيان مدى انتشار اللغة العربية لغة العلم و التعليم،وكيف ساد المذهب المالكي هذه المناطق.، و رصدنا أخيرا المراكز الثقافية بالسودان الأوسط التي كان لها الفضل في إثراء الحضارة الإسلامية في تلك المناطق.

_أما الفصل الرابع و هو الفصل الأخير يحمل عنوان الأثر الاجتماعي للحركة العلمية حاولنا فيه إعطاء نظرة على المجتمع في مملك السودان الأوسط من خلال التطرق لطبقات المجتمع الإسلامي

هناك كما وجهنا اهتمامنا للمعتقدات و العادات و التقاليد في ظل انتشار الإسلام و العلم ثم تكلمنا عن النظام القبلي بالمنطقة و مدى تأثره بالتغيرات التي سادت المنطقة و في الأخير تناولنا العمران في بلاد السودان و مدى تأثره بالعمارة المغربية .

ـ و ينتهي البحث بخاتمة و هي حوصلة تضمنت مجموعة من الاستنتاجات التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة.

عرض لأهم المصادر و المراجع:

المصادر التي يرجع إليها لدراسة الإسلام في بلاد السودان تتمثل في :كتب التاريخ العام،كتب تاريخ المغرب (لتبيان الصلة بين بلاد المغرب و بلاد السودان) و الكتب السودانية (أي أصحابها من أهل السودان).

أ_كتب التاريخ العام السودانية

- كتاب " **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان و الجيوش و أكابر الناس و ذكر التكرور و عظائم الأمور و تفريق أنساب العبيد من الأحرار**" لصاحبه محمد كعت (بن الحاج المتوكل كعت التنبكتي الوعكري) ت 1002هـ/1593م، لا يعرف الكثير عن حياته سوى تلك المعلومات التي جاءت في كتابه هو التي يذكرها الكاتب عرضا شغل وظيفة القاضي في ملكة صنغاي . و الكتاب الذي ألفه عبارة تاريخ لمملكة صنغاي ، كما يتضمن معلومات عن الغزو المراكشي لبلاد السودان سنة 999هـ/1591م.لكنه يحتوي معلومات ضئيلة عن العصور السابقة و هي عبارة عن مجموعة من الروايات الشفوية .
- كتاب"**تاريخ السودان**" صاحبه السعدي(عبد الرحمن بن عبد الله)، ت 1063هـ/1654م، بالرغم من العنوان العام إلا أنه يعالج فقط جزءا من تاريخ السودان. و معلوماته لم يبين مصدرها إلا قليلا و أتت بدون شك من الروايات الشعبية.، و ما كتبه يتكون من جزئين لهما طابع مختلف ،أولهما يمثل ملخصا للمعلومات التي جمعها من الروايات الشفوية ، و الثاني يمثل عكس ذلك وجاءت بطابع المذكرات الشخصية و تضمنت معلومات أتت من شهود عيان.

كتب التاريخ العام:

- كتاب " **تاريخ اليعقوبي**" و يعتبر من أقدم كتب التاريخ العام المشرقية التي تناولت بلاد السودان و صاحبه هو اليعقوبي(أحمد بن يعقوب بن جعفر) ت 284هـ/ 896م، و كان اليعقوبي مؤرخا و جغرافيا و رحالة طاف العالم الإسلامي،تمتع برعاية الطولونيين أثناء إقامته الطويلة بمصر و المغرب، يتضمن هذا الكتاب فصلا سريعا عن سودان المشرق و المغرب و يتحدث عن كانم و مملكة ملل ثم عن مملكة كوكو ،ثم عن مملكة غانة.
- كتاب"**مروج الذهب و معادن الجوهر**" مؤلفه المسعودي(أبي الحسن علي بن حسن بن علي من ذرية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه) ت 346هـ/957م، و الحقيقة أن المسعودي من الرجال القلائل الذين تجولو في البلاد المختلفة ،يحتوي الكتاب على معلومات كثيرة وليدة التجربة و مشاهدة العيان،و يتضمن الجزء الثاني من مروج الذهب فصلا عن ذكر السودان و أنسابهم و اختلاف أجناسهم و يذكر لنا من بين سودان المغرب الكانم و كوكو وغانا.
- كتاب " **المغرب في ذكر إفريقيا و المغرب جزء من المسالك و الممالك**" لمؤلفه البكري(أبو عبيد الله ابن عبد العزيز)، ت 487هـ/1094م، رغم أن كتابه من المكتبة الجغرافية إلا أننا نذكره بين كتب التاريخ نظرا للمعلومات التاريخية بين دفتيه ، و في الجزء الخاص بذكر بلاد السودان نجد معلومات متنوعة و متباينة ،اقتصادية واجتماعية و معلومات عن المعتقدات و الديانات المختلفة ، وعن العادات والتقاليد و كذلك يحدثنا عن العجائب و الغرائب.و معلومات البكري تنقسم إلى جزئين معلومات نقلها عن المؤرخين السابقين و معلومات معاصرة استقاها من التجار و المسافرين الذين زاروا هذه الأماكن إلى جانب إطلاعه على وثائق و سجلات ديوان قرطبة.
- كتاب" **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**" لـــ: العمري(أبو الفضل الله شهاب الدين)، ت 749هـ/1348مو إلى جانب الموسوعة الكبرى للمؤلف مصنف آخر عنوانه "**التعريف بالمصطلح الشريف**" و بفضل المنهج الذي اتبعه أصبح مصدرا هاما بالنسبة للتاريخ و الجغرافيا التاريخية .يحدثنا في القسم الأول عن ملك التكرور صاحب مالي و صاحب برنو و كانم
- و يعتبر الفصل الخاص "**بالخبر عن ملوك السودان المجاورين للمغرب من وراء هؤلاء الملثمين ووصف أحوالهم و الإلمام بما اتصل بنا من دولتهم** " في كتاب" **العبر**" لإبن خلدون (عبد الرحمن)، ت 808هـ/1406م من أهم ما كتب عن بلاد السودان ،

فكتاب ابن خلدون من أهم المصادر و هذا: ملكة المؤرخ العبقري الموهوب التي جعلته يفهم التاريخ بمعناه الحقيقي الشامل، و يستقي ابن خلدون معلوماته من أهل البلاد أننفسهم او ممن زاروا هذه الأقاليم و أقاموا بها مثل الشيخ عثمان فقيه أهل غانة و قد لقيه و كان قد قدم مصر حاجا بأهله و وولده.

- و عن العمري و ابن خلدون نقل القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي) ت 821هـ/ 1418م في موسوعته الكبرى " **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**"،و هو عبارة عن دائرة معارف في التاريخ و الجغرافية و الأدب و الفن و الدين و الاجتماع.

ب_ الكتب الجغرافية

و الكتب الجغرافية مهمة بالنسبة للتأريخ لبلاد السودان و ذلك لأن الجغرافية العربية وثيقة الصلة بالتاريخ،و يلاحظ في هذا المقام كتب الجغرافيين القدامى من المشارقة معلوماتهم ضئيلة خاصة عن سودان المغرب و يعلل الإصطخري (ت 340هـ) ذلك بأنها –أي بلاد السودان- بلاد جاهلية غير متحضرة ، هذا بينما نجد الوضع مختلف لدى الجغرافيين المغاربة فبلاد السودان وثيقة الصلة من الناحية الجغرافية ببلاد السودان و من هنا أولوها اهتمامهم.

- أهم كتاب " **المسالك و الممالك**" لصاحبه البكري و قد سبق ذكره
- كتاب "**القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس (مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختيار الآفاق)**" مؤلفه الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) ت 560هـ/ 1100م.، و في الجزء الخاص عن السودان يتضمن معلومات مهمة عن عصره ،كما أنه ينفرد بذكر بعض المعلومات .

ج_ كتب الرحلة

- أهم الرحلات بالنسبة لموضوع البحث هو رحلة ابن بطوطة و هو ابن بطوطة(أبوعيد الله محمد ابن إبراهيم اللواتي) ت 779ه/1377م و كتابه بعنوان " **تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار**".قام بصياغتها وفقا لرواية ابن بطوطة ابن جزى حيث انتهى هذا الأخير من كتابتها في عام 756هـ/1355م، و أهم ما تمتاز به هذه الرحلة الوصف الدقيق .
- و بعد ابن بطوطة يأتي الحسن بن محمد الوزان (حسن بن حسن المعروف بليو الإفريقي) ت أواخر 10هـ/ 1552م، و كتابه "**وصف إفريقيا**"، و ينقسم المصنف

تبعا للمتن الإيطالي إلى تسعة كتب يعالج في القسم السابع بلاد السودان، يحدثنا الوزان فيه عن بعض العادات و التقاليد و يكلمنا عن العديد من المدن كما يحدثنا عن مملكة برنو.

ح_ كتب الطبقات :

و هي نوعين كتب الطبقات العامة مثل كتاب " **وفياة الأعيان و أنباء أبناء الزمان**" لابن خلكان ، و كتب طبقات عامة (إقليميا) خاصة موضوعيا مثل طبقات المالكية ، و يعتبر كتاب :

- "**نيل الابتهاج بتطريز الديباج**" لصاحبه أحمد بابا التنبكتي(أبو العباس سيدي أحمد بن محمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت) توفي 1032هـ/1622م، ممثلا لهذا النوع، و لأحمد بابا ما يزيد عن الأربعين مؤلفا في الفقه المالكي و النحو و الموضوعات الأخرى ، و لكن أهم مؤلفاته الذي وصلنا كاملا هو كتاب "نيل الابتهاج" و هو عبارة عن معجم سير لفقهاء المالكية ذيل على كتاب " **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**"و قد جمع في مصنفه تراجم لعلماء المالكية ، وهو مرتب حسب الحروف الأبجدية، و هو بذلك يعطينا فكرة واضحة عن الحياة العلمية في هذه البلاد و خاصة مدينة تنبكت، و للكتاب أسماء أخرى مثل "**تكملة الديباج**" **و** "**ذيل الديباج**" .

و فضلا عن هذه المصادر هناك مصادر أخرى اعتمدتها في هذه الدراسة لا تقل أهمية عن المذكورة أعلاه ، أما المراجع فهي كثيرة و كلها أفادتني في طريقة تناول الموضوع و طرح الأفكار و تحليلها و مناقشتها و هي مبينة في القائمة الخاصة بهم في آخر البحث.

_ صعوبات الدراسة

و قد واجهتني في هذه الدراسة جملة من الصعوبات يمكن تلخيصها في:

_ قلة المادة المصدرية التي تتناول هذا الجانب الحضاري من تاريخ الأمم ،و هذا ما صعب من دراسة الموضوع في جوانب عديدة.

_ أن المادة المصدرية في موضوع بلاد السودان أصبحت محصورة تقريبا ،و قلما يظهر فيها جديد ، و إنه لمن الصعب على الباحث في التاريخ الوسيط لبلاد السودان أن يجد نصوصا عربية تتعلق به زائدة على هذه النصوص.

ـ المادة المتاحة و التي وردت عرضا في الكتب التاريخية غير متوفرة بصورة متساوية كما و كيفا عن كل المناطق المراد دراستها ، و ليست متيسرة بصورة متكافئة عن كل الفترات الزمنية في المنطقة الواحدة

ـ صعوبة التحكم في هذه الدراسة نتيجة الفضاء الجغرافي الذي تختلف فيه السلطة الحاكمة بين طرفيه الشرقي الخاضع لمملكة كانمـ برنو و الغربي المقسم بين دويلات الهوسا المجسدة لنظام "دولة – المدينة-.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول

السودان الأوسط

مفاهيم و اصطلاحات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا :السودان الأوسط الدلالة و المفهوم.

ثانيا :جغرافية المنطقة

ثالثا:ممالك السودان الأوسط قبل ق5هـ/11م

- مملكة كانم_ برنو
- دويلات الهوسا

أولا:السودان الأوسط الدلالة و المفهوم

يعتبر السودان الأوسط جزءا من إقليم أكبر وأوسع هو "بلاد السودان" لذلك لا يمكننا الحديث عنه والتعرف عليه بدقة إلا بالتطرق لنطاق السودان بكل مجالاته الجغرافية لارتباطها ومتاخمة بعضها البعض.

ـمعنى لفظ السودان :

بلاد السودان معناها الصحيح بلاد السود[1]ـ أي الجنس الأسودـ والتسمية هنا بالسمة والجهة[2] .وذلك في مقابلة بلاد البيضان ويقصد بها شمال إفريقيا والصحراء [3].

والسودان صيغة جمع السود والمقصود الرجال ذوي البشرة السوداء الذين يعرفون أيضا الأساود . وعلى نفس الوزن استخدم العرب كلمة البيضان أي الرجال ذوي البشرة البيضاء[4].

ومن ثم فان كلمة السودان المأخوذة من هذا اللفظ تدل على جميع البقاع التي يقطنها السود من قارة إفريقيا وقد جرى العرب وكذالك الأوروبيون على قصر هذه التسمية على الجزء الشمالي من تلك الأقطار أو إطلاقها بصفة أعم على تلك المنطقة الصحراوية من إفريقيا التي تغلغل فيها الإسلام[5].

ـ حدود بلاد السودان:

أما عن حدود بلاد السودان كما عرفها أصحاب المصادر العربية في العصور الوسطى هي المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى و الذي يحده بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) من الغرب و البحر الأحمر من الشرق و الصحراء من الشمال و البراري من الجنوب [6].

فحسب القزويني(ت 682هـ/1283م) هي بلاد واسعة و كبيرة ينتهي شمالها إلى البربر و جنوبها إلى البراري[7]،أما الجغرافي المقدسي(ت360هـ/970م) فيصفها:" أما أرض السودان فإنهـــا

---

[1]–موريس دولافوس،مادة السودان، *دائرة المعارف الإسلامية*،ص327.

[2]– ابن خلدون،*المقدمة*،لبنان،دار الفكر ،2004م،ص58.

[3]–نبيلة حسن محمد، *في تاريخ افريقية الإسلامية انتشار الإسلام في السودان الغربي* ،دار المعرفة الجامعية،2007م، ص66،67.

[4]– السواد نقيض البياض،سود،ساد،أسود والجمع سودان،أنظر:ابن منظور،*لسان العرب*،دار المعارف ،(د.ت)،ج4،ص209.

[5]– موريس دولافوس ،مرجع سابق ،ص327.

[6]– إبراهيم علي طرخان، *دولة مالي الإسلامية* ،القاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب،1973م،ص4.

[7]– زكرياء محمد بن محمد القزويني*آثار البلاد و أخبار العباد*،(د.ط)، بيروت ،دار الصناعة و النشر ،1969م،ص24.

تتاخم هذا الإقليم و مصر من قبل الجنوب ، و هي بلاد مقفرة واسعة و شاقة و هم أجناس كثيرة"[1]، و ذكرها ابن حوقل(ت367هـ/977م) بقوله:" و بلد السودان مفاوز و براري قليلة المياه متعذرة المراعي لا تسلك إلا في الشتاء ، و سالكها في حينه متصل السفر دائم الورود و الصدر"[2]، و قال عنها البكري(ت 487هـ/997م):" و أول بلاد السود...جبال و رمال عظيمة متصلة من الغرب إلى الشرق"[3].

و عرفها الجغرافي الإصطخري(ت 346هـ/956م):" أنه ليس في أقاليم السودان من الحبشة و النوبة و البجة و غيرهم إقليم أوسع منه و يمتدون إلى قرب المحيط مما يلي الجنوب و مما يلي الشمال على مغارة تنتهي إلى مفازة مصر من وراء الواحات"[4]، و يقول المؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون(ت808هـ/1406م) عن بلاد السودان:"و السودان أصناف شعوب و قبائل أشهرهم بالمشرق الزنج و النوبة، يليهم الزغاوة و يليهم من غربهم كوكو و يتصلون بالبحر المحيط إلى غانية"[5].أما التونسي (و هو من سكان المنطقة) فيعرف السودان أنه اسم يطلق على جميع الأقاليم في في إفريقية التي انتشر فيها الإسلام ، يمتد جنوب الصحراء الكبرى و مصر من المحيط الأطلسي غربا إلى وادي النيل شرقا[6].

و بلاد السودان من خلال هذه التعاريف هو مصطلح يكاد ينصب على سكان غرب و وسط إفريقيا و هذا لوجود تسميات محددة لأصحاب البشرة السوداء في غير هذا الجزء من القارة[7] ،فالإصطخري مثلا يصف بلاد السودان بأن سكانها ليسوا بنوبة و لا بزنج و لا بحبشة إلا أنهم أشد سوادا من الجميع و أصفى ،أما أبو الفداء (ت732هـ/1331م)فيصفهم بقوله:"لأنهم أشبه الناس بالزنوج"،فأما النوبة و الحبشة فهم سكان المناطق الواقعة جنوب مصر (حاليا تقابل جمهورية السودان و أثيوبيا)،و الزنج هم سكان الساحل الجنوبي الشرقي[8].

---

[1]- محمد بن محمد المقدسي، *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*،ط2،مطبعة بريل،طبع ليدن،1906م،ص331.

[2]- أبو القاسم محمد ابن حوقل،*صورة الأرض*،(د.ط)، بيروت،لبنان ،منشورات دار مكتبة الحياة، ،(د.ت)،ج2،ص100.

[3]- أبي عبيد عبد الله عبد العزيز بن محمد البكري،*المسالك و الممالك*،تح:جمال طلبة، بيروت،لبنان دار الكتب العلمية، ،2003م، ص172.

[4]- أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري،*المسالك و الممالك*،تح:عبد الغني الحيني،(د.ط)،القاهرة،1961م،ص35.

[5]- عبد الرحمن ابن خلدون،*تاريخ ابن خلدون المعروف:العبر و ديوان المبتدأ و الخبر* ، بيروت،لبنان ،دار الكتب العلمية، ،1992م، ج6،ص234.

[6]- محمد بن عمر التونسي،*تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب و السودان*،تح:خليل محمد عساكر،مصطفى محمد مسعد،(د.ط)الدار المصرية للتأليف و الترجمة،القاهرة،1960م،ص132.

[7]- إبراهيم علي طرخان،*دولة مالي الإسلامية*،ص 5.

[8]- نبيلة حسن محمد،*تاريخ إفريقية الإسلامية*،ص،ص66،67.

كما شاع استعمال كلمة"تكرور" عند بعض الكتاب و المؤرخين العرب دلالة على بلاد السودان الغربي و الأوسط(مثل القلقشندي ت821هـ/1418م) و في ذلك يقول محمد بلو بن عثمان بن فودي(ت 1253هـ/1837م):" و اعلم أن هذا الاسم الذي هو التكرور علم على الإقليم الغربي من الجنوب السوداني على ما فيها من تغييرهم من التواريخ و النقول"[1]، غير أن "التكرور هو إقليم في أقصى الغرب لبلاد السودان و في هذا يوضح فضل الله العمري(ت749هـ/1348م):" و صاحب هذه المملكة- يقصد مملكة مالي الإسلامية- هو المعروف عند أهل مصر بملك التكرور و لو سمع هذا أنف منه لأن التكرور دائما هو إقليم من أقاليم مملكته"[2] .

ومفهوم السودان بهذا الشكل عام وشامل لكن الذي يبدو جاليا أن الشهادات المصدرية العربية في توظيفها لتعبير بلاد السودان أو بلاد التكرور لا تتفق حول الموقع وكما أنها لا تعين حدودا واضحة ومتفق عليها [3].

وبعد العرب جاء الأوروبيين_العصر الحديث_ حيث بقي بينهم تداول هذا الاصطلاح لكن الكلمة استعملت استعمالات جزئية . فيما أطلقها الفرنسيون على ممتلكاتهم في غرب إفريقيا.و استعملها الانجليز للدلالة على ما كان يعرف لديهم بالسودان المصري_يشمل حاليا كل جمهورية السودان وجزء من أوغند الشمالية_[4] ، و من ثم قسم المؤرخون الأوروبيون – منهم المؤرخ الانجليزي ترمنجهام- بلاد السودان إلى ثلاث مناطق على النحو التالي: **السودان الشرقي** :يمتد من البحر الأحمر شرقا إلى إقليم دارفور غربا ويضم الحوض الأعلى والأوسط النهر النيل، **السودان الأوسط** :ويشمل حوض بحيرة تشاد والمناطق المحيطة بها ، **السودان الغربي**: ويشمل المناطق الواقعة بين حوض نهر السنغال ونهر غامبيا والمجرى الأعلى لنهر فولتا والحوض الأوسط لنهر نيجر[5].

و الخلاصة التي نصل إليها بعد هذا العرض هو أن مصطلح السودان الأوسط ظهر في العصـــر

---

[1]- محمد بلو،*إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور* ،(د.ط)، القاهرة إدارة الوثائق و المكتبات لوزارة الأوقاف،1964م،ص27.

[2]- أبو فضل الله شهاب الدين العمري،*مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*،تح:عبد القادر خوسيات،مصطفى هزايمة،(د.ط)،مركز زيد للتراث التاريخي،العين،2001م، ج4،ص39.

[3]- أحمد شكري،*الإسلام و المجتمع في' مبراطورية مالي1230م-1430م*،أبو ظبي،المجمع الثقافي،1999م، ص 59.

[4]- عبد القادر زبادية،*الحضارة العربية و التأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية*، الجزائر، المؤسسة الوطنية،(د.ت) ،ص11.

[5]- عبد القادر زبادية، المرجع السابق،ص11.أنظر كذلك: دائرة المعارف،مادة سودان، ص،ص327،328، محمد بن عمر التونسي،*تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب و السودان* ،ص132.

الحديث على إثر التقسيمات التي قام بها المؤرخون الأوروبيون لبلاد السودان عموما، لأن المصادر العربية و حسب ما أوردته لم تتضمن تقسيما معينا لهذه البلاد.

و من ثم يمكن تعريف السودان الأوسط كمايلي

هو المنطقة المدارية الممتدة من الضفاف الشرقية لنهر النيجر حتى منطقة بحيرة تشاد ثم المناطق التي تلي ذلك شرقا حتى دارفور و وداي وهي الجزء الغربي من السودان النيلي[1]. قامت في هذا الإقليم في العصور الوسطى ممالك إسلامية هي مملكة كانم-برنو و ممالك الهوسا(دول الهوسا)، و توسعت على حساب أراضي السودان الأوسط مملكة سنغاي[2] حيث حكمت لفترات دويلات الهوسا وكان هذا بداية لظهور الثقافة الإسلامية و حضارتها الزاهرة في هذه الجهات.[3]

ويشمل السودان الأوسط حاليا الأقاليم السياسية التالية :

جمهورية تشاد،شمال نيجيريا، شرق دولة النيجر، والأجزاء الشمالية لجمهورية إفريقيا الوسطى ،شرق جمهورية السودان والأجزاء الجنوبية من جمهورية ليبيا[4].

[1] -حسين مؤنس،*أطلس التاريخ الإسلامي*،القاهرة،الزهراء للإعلام،1987م ص378.

[2] - مملكة سنغاي : هناك من يضمها إلى ممالك السودان الأوسط لكن حسب العديد من الدارسين و التقسيمات التي ذكرت هي مملكة نشأت في منطقة النيجر الأوسط و توسعت في فترات معينة على حساب دويلات الهوسا،لكن معظم أراضيها في الجهة الغربية لمنطقة السودان عموما،أنظر:محمد فاضل علي باري، *المسلمون في غرب إفريقيا*، لبنان،دار الكتب العلمية،1971م ،ص109.

[3] - عبد الفتاح مقلد الغنيمي،*حركة المد الإسلامي في غرب إفريقيا*،القاهرة،مكتبة النهضة،ص 112.

[4] - يحي بوعزيز، *إفريقيا الغربية الإسلامية من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين ميلادي*،الجزائر،دار هومة للطباعة،ص11.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا: جغرافية المنطقة

منذ صدور أعمال « j.c suret. » ، وأعمال « Mauny »[1] لم تعد هناك ضرورة ملحة حسب أحمد شكري صاحب الكتاب إمبراطورية مالي وضع وصف أو توطئة جغرافية للصحراء وبلاد السودان كمدخل للدراسات التاريخية لما شملته هذه الدراسات من تفاصيل[2]، لكن بما أننا نتناول جزءا فقط من بلاد السودان الكبير و هو" السودان الأوسط "ارتأينا وضع لمحة مختصرة عن جغرافية المنطقة التي ظهرت فيها الحركة العلمية.

و قد تميزت منطقة السودان الأوسط بتنوع في التضاريس و المناخ و النبات و هذا ما ترك آثار على مختلف الأنشطة التي مارسها السكان .

1:التضاريس:

إن موقع السودان الأوسط تميز بعدة خصائص جعلها منطقة متنوعة النشاطات و المعتقدات و من هذه الخصائص التنوع في المظاهر التضاريسية من جبال و أحواض و بحيرات و أودية و صحاري :

أ- **المرتفعات (الجبال و الهضاب)**: رغم أن إفريقيا جنوب جبال الأطلس تفتقر إلى وجود المرتفعات الإلتوائية إلا أن بها قمما و هضاب عالية[3] تعود في معظمها إلى العديد من الأزمنة و العصور الجيولوجية القديمة[4] و تتمثل في :

- جبال التبيستي: هي جبال متوسطة الارتفاع (2000م)في الحدود الليبية التشادية و أقصى ارتفاع لها بلغ حوالي3390م .تمركزت فيها قبائل التيو (أو التيدا) [5].

- جبال العير:تقع في الحدود الشمالية للصحراء شمال نهر النيجر ،تتميز بسفوح شمالية قاحلة لمتاخمتها الصحراء و سفوح جنوبية خصبة ، سكنتها بعض من قبائل الطوارق و الهوسا – جبال مرة:و هي كتلة جبلية يبلغ أعلى ارتفاع بها حوالي 3088م تقع بإقليم دارفور و تليها هضبة كردفان.

---

[1] -R,Maunu,Tableau Géographique de l’oust african au moyen age,Paris,1961.

[2] –أحمد شكري،*الإسلام و المجتمع السوداني في إمبراطورية مالي*،ص 60.

[3] – جودة حسنين جودة، *جغرافية إفريقيا الإقليمية*،(د.ط)، الإسكندرية ،المكتب الجامعي، ،1998م ،ص 48.

[4] – محمد أحمد عقلة،عبد العلي الخفاف، *جغرافية القارات* ،(د.ط)،دار طارق للنشر،1998م، ، ص87.

[5] – جودة حسنين جودةّ،المرجع السابق،ص48.

– مجموعات جبلية أخرى: منها جبل الكمرون وهو عبارة عن مخروط بركاني مازالت تظهر عليه علامات النشاط و هو أعلى جبل بمنطقة السودان الأوسط حيث بلغ ارتفاعه حوالي 4100م[1]،و منها كذلك جبال البرقو و الجيراب و السورو و الأندي [2].

– الهضاب : تتكون معظم إفريقيا من الهضاب المشهورة باتساعها و تناسقها في الارتفاع عبر مساحات ضخمة لكنها متمركزة في شرق القارة،أما منطقة غرب إفريقيا و وسطها تتناقص بصورة عامة مستويات الهضاب حتى لا نجد هضاب يزيد ارتفاعها عن 600م[3]، و أهم هضبة بمنطقة السودان الأوسط " هضبة جوس" تقع بشمال نيجيريا و هي هضبة واسعة و قليلة الارتفاع تشبه السهول المرتفعة و تعرف بسهول أراضي الهوسا[4].

ب–**الأحواض و الأنهار**:تتميز دواخل القارة بوجود عدد من الأحواض الضخمة تفصل بينها الأراضي المرتفعة و الهضاب ، و تظهر مثل هذه الأحواض عادة حيث تصب الأنهار في بحيرات و مستنقعات داخلية و تكون لها منافذ محدودة جدا للبحر ،و تصرف الكثير من مياهها داخليا[5] ، و يعتبر حوض تشاد من أبرز الظواهر الطبيعية في منطقة السودان الأوسط و هو عبارة عن منخفض يشمل بحيرة تشاد .

– بحيرة تشاد : يسميها ابن سعيد المغربي(ت 685هــ/1286م) "بحيرة كوري" و هو أول من أعطاها هذا الاسم[6] ،أما أصل التسمية "تشاد" فيرجع لاسم نوع من الأسماك موجود في هذه البحيرة "chad أو shad "[7] .

و كانت هذه البحيرة واسعة و غزيرة المياه لكنها بدأت تجف شيئا فشيئا حتى أصبحت عبارة عن مستنقعات تتخللها جزر صغيرة ، عمقها لا يتعدى الثلاثة أمتار، و مساحتها تتراوح ما بين 160و 150ألف كلم مربع[8]، و يعود السبب في تناقص مياه هذه البحيرة إلى التبخر و التصريف الضمني (تصرف المياه جوفيا إلى الواحات الواقعة في الشمال الشرقي من البحيرة) مما نجم عنه عدم ارتفاع

[1]– أنور عبد العلي العقاد،*الوجيز في القارة الإفريقية*،الرياض،دار المريخ،(د.ت)،ص 38.

[2]– جودة حسنين جودةّ، *جغرافية إفريقيا الإقليمية*،ص49.

[3]– نفسه، ص،ص 51،52.

[4]– أنور عبد العلي العقاد،المرجع السابق، ص40.

[5]– جودة حسنين جودةّ،المرجع السابق،ص،ص52،53.

[6]– أبو الحسن علي بن موسى ابن سعيد المغربي،*كتاب الجغرافيا* ،تح:إسماعيل العربي،(د.ط)، الجزائر،1980،ص 95.

[7]– أحمد شلبي،*موسوعة التاريخ الإسلامي*،ط5،القاهرة،مطابع الرجوى،1990م ،ص،ص607،608.

[8]– حسين مؤنس،*أطلس التاريخ الإسلامي*،ص378.

مستوى ماء البحيرة على الرغم من كمية المياه الكبيرة التي تصل إليها من الأنهار (نهر لوقون و نهر شاري) ، و لذلك شواطئها غير محددة[1]، و للبحيرة موقع استراتيجي فهي تتوسط السودان الأوسط يعيش حولها الكثير من القبائل (قبائل الصو و البولالا و الكانوري) وتحولت منذ قرون إلى ملتقى للقوافل التجارية الآتية من الشمال والشرق والغرب [2]. أقيمت حولها العديد من الزراعات و هذا لخصوبة تربتها منها زراعة الأرز .

– حوض سوكوتو: يقع في شمال نيجيريا (بلاد الهوسا) ، و هو هضبة واسعة ، تعرض لعمليات التعرية الجوية ، تربة هذا الحوض خصبة لذلك أقيمت بها العديد من الزراعات مثل الذرة و الفول السوداني، أما أهم القبائل التي انتشرت بها هي قبائل الهوسا و قبائل الفولاني[3] .

– أما أهم الأنهار بمنطقة السودان الأوسط هما نهرشاري و نهر" لوقون" المتصلان ببحيرة تشاد ، يبلغ نهر شاري 1180كلم ،ينبغ من أراضي "أوبانجي" من إفريقيا الوسطى، أما نهر "الوقون" يبلغ طوله 965كلم ، تتغذى هذه الأنهار من الأمطار الموسمية [4].

ج– **الصحراء:**تتميز القارة الإفريقية بامتداد الصحراء الكبرى ، أوسع صحراء في العالم[5]، حيث تحتل تحتل جزءا كبيرا من المنطقة الشمالية لمنطقة السودان الأوسط ، تمتد شرقا حتى نهر النيل و في الغرب تصل المحيط الأطلسي ،أما شمالا تمتد إلى الهضبة الليبية و جبل نفوسة و شط الجريد و ملغيغ و جبال الأطلس الصحراوية و بذلك تضم المراكز التجارية في الشمال :فزان و غدامس و وادي ريغ و ورغلة و سجلماسة ، و بالنسبة لحدودها الجنوبية فتمر بمصب نهر السنغال و أعلى منعطف نهر النيجر و بحيرة تشاد[6]. و قد قدرت المسافة بين الشرق و الغرب بحوالي 4000كيلو متر،كما أنها تمتد لمسافة 1500كيلومتر بين الشمال و الجنوب[7].

والصحراء التي تسود شمال السودان الأوسط مستوية و أميل أن تكون صخرية منها رملية، لا

---

[1]– جودة حسنين جودةّ، *جغرافية إفريقيا الإقليمية*،ص53،أنظر: أنور عبد العلي العقاد،*الوجيز في القارة الإفريقية*،ص39.

[2] -Basil,Davidson,,l’afrique Ancienne,Paris,t1,p45_55.

[3]– جودة حسنين جودةّ، المرجع السابق،ص230.

[4]– محمد أحمد عقلة،عبد العلي الخفاف، *جغرافية القارات*،ص88.

[5]– نفسه،ص82.

[6]– تاديوز ليفسكي،"الصحراء الكبرى و أهل الصحراء في العلاقات بين الشمال و الجنوب "، موسوعة تاريخ إفريقيا،اليونسكو، 1997م،ج3،ص309.

[7]– اسماعيل العربي،*الصحراء الكبرى و شواطئها*،الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب ،1983م،ص14.

تتخللها أية تضاريس ذات شأن سوى بعض المرتفعات مثل :جبال التبيستي،هضبة أندي،جبال الهقار و التاسيلي،كما تبرز بهذه المساحة منابع مائية هامة[1] و تنتشر الواحات في أرجائها، مما أمكن أن تقطع من أقصاها إلى أدناها[2].

و تاريخ السودان عموما مرتبط بشكل أساسي بتاريخ الصحراء فعن طريقها اتصلت هذه المناطق بالعالم الخارجي (خاصة بعد دخول الجمل المنطقة[3] و الذي يعتبر وسيلة هامة للتوغل من الشمال إلى الجنوب[4])، و هذا عبر شبكة من الطرقات[5] و المراكز التجارية .أهمها الطريق الذي كان يسلك من من واحات مصر عبر الصحراء الشرقية متجها إلى السودان الأوسط و من ثم السودان الغربي و الذي كان يعرف "بدرب الأربعين"، كما سلك التجار أيضا الطريق من فزان و زويلة إلى الكانم – برنو ، و أيضا الطريق من غدامس إلى تادمكة و منها إلى بلاد الهوسا[6].

أما القبائل التي انتشرت في الصحراء الواقعة شمال السودان الأوسط هي قبائل الطوارق البربرية و قبائل التبو أو التيدا ، و القبائل العربية المهاجرة من الحساونة و جذام و جهينة و التي استطاعت التأقلم بهذه الصحاري لاعتيادهم على جوها و حرارتها[7].

2:المناخ والنبات

أبرزت العديد من الحفريات أن هذه المنطقة تعرضت منذ القديم لتغيرات مناخية كثيرة فتحولت مساحات كبيرة من مناطق عالية الرطوبة إلى الصحراء جرداء ويعود ذلك إلى الموقع الفلكي الذي تحتله[8] ، و لهذا لا يستبعد تحرك القبائل من المناطق التي تصحرت إلى الجنوب و انتشارها هناك مثل قبائل الهوسا،أما القبائل التي بقيت فتأقلمت مع البيئة الجديد.

[1]– دونالد ويدنز،*تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء*،تر:راشد البراوي، مصر ،نمكتبة الوعي العربي،2001م، ،ص13.

[2]– نبيلة حسن محمد،*في تاريخ أفريقية الإسلامية*،ص55.

[3]– و يرجح دخوله في أواخر العهد الروماني – ق4م– ،كما يرجح أن يكون جاء إلى الصحراء من الشرق على يد الهكسوس الذين جاءوا من آسيا و غزو وادي النيل،أنظر:اسماعيل العربي،*الصحراء الكبرى و شواطئها*،ص،ص33،34.

[4]–نفسه،ص33.

[5]– لتفاصيل أكثر عن هذه الطرق أنظر :البكري،*المسالك و الممالك*،ص– ص163–168 .أنظر :ملحق رقم1 حول شبكة الطرقات

[6]– نبيلة حسن محمد، المرجع السابق،ص،ص54،62. لتفاصيل أكثر حول شبكة الطرقات التي ربطت بلاد السودان الأوسط بمناطق المجاورة لهاأنظر: Joseph.M.Cuoq,Les Musulmans en Afrique,Pris,Maison neuve,1975,p294,295.

[7]– سنتحدث عن هذه القبائل و نشاطاتها في الفصول الموالية.

[8]– دونالد ويدنز، المرجع السابق، ص 26.

و عليه سادت المنطقة أقاليم مناخية متباينة يمكن حصرها في:

ا-الإقليم الأول: يمتد من 8-16 درجة شمال خط الاستواء يسوده المناخ المداري يطلق علية أحيانا المناخ السوداني[1]، و هو الأكثر شيوعا و انتشارا في إفريقيا ، يتميز بغزارة الأمطار في الصيف،أما في الشتاء هو جاف تماما، أما النباتات في هذا الإقليم فهي حشائش السافانا ، و تزداد كثافة السافانا كلما اقتربنا من الغابات الاستوائية، وهي حشائش متوسطة الطول ،يقل فيها النمو الشجري، و نظرا لجودة التربة فإن أراضي السافانا المكشوفة تزرع بالحبوب خصوصا الذرة و الدخن، كما تنتشر فيه أعداد كبيرة من الحيوانات كالزرافة و الوعول و الحمار الوحشي و الأسود[2].

ب-الإقليم الثاني: يمتد من 16-18 درجة شمال خط الاستواء ،و هو نمط معدل من المناخات المدارية يسمى:المناخ القاري المداري، و هو النطاق الانتقالي إلى الأراضي الصحراوية ،يشمل بحيرة تشاد وما جاورها تقل فيه الأمطار تسوده الأعشاب والشجيرات قصيرة ، له أهمية خاصة للرعي على هامش الصحراء الكبرى[3].

ج-الإقليم الثالث: 18-23درجة شمال خط الاستواء ، يغلب عليه المناخ الصحراوي أهم وصيفاته ندرة الأمطار والتطرف الحراري في النهار قد تصل الحرارة 59 درجة مئوية وتنخفض في الليل إلى أقل من12 درجة، ونتيجة إلى ندرة الأمطار كان الفقر النباتي [4].ومن خلال هذا العرض الموجز الجغرافي المنطقة يمكن أن نخلص إلى :

ـــطغيان ظاهرة الانبساط على منطقة السودان الأوسط وهذا ما شكل عاملا ايجابيا في عملية التواصل بين السودانيون وغيرهم.

ـــتعتبر بحيرة تشاد والنهرين المتصلين بها" شاري ولوقون" أهم عنصر يكسر المنظر الطبيعي لبلاد السودان الأوسط، و كان لها دور في تاريخ المنطقة نظرا لإمكانية استغلال مياهها في الزراعة والصيد[5].

---

[1]- محمد أحمد عقلة،عبد العلي الخفاف ، *جغرافية القارات*،ص 95.

[2]- جودة حسنين جودةّ، *جغرافية إفريقيا الإقليمية*،ص92.

[3]- نفسه،ص،ص83،92.

[4]- أنور عبد العلي العقاد ،*الوجيز في القارة الإفريقية*،ص 65.

[5]- أحمد شكري،*الإسلام و المجتمع السوداني في إمبراطورية مالي*،ص 60.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثا:ممالك السودان الأوسط قبل القرن5هـ/11م

1_ مملكة كانم _ برنو

أ_ التسمية

وردت كلمة "كانم" في أكثر من مؤلف عربي منذ عدة قرون و لا يعرف على وجه التحديد أصل الكلمة و اشتقاقها و يبدوا أنها كانت اسما لأرض توسع مدلوله بمرور الوقت.

و قد أورد ابن خلكان(ت 681هـ/1284م) كانم: بكسر النون ...جنس من السودان و كانم اسم بلدة فسمي هذا الجنس باسم هذه البلاد...و سمي جنسهم باسم أرضهم[1] و إلى مثل ذلك أشار غيرهم من المؤرخين[2].

و تسمية كانم ترد أحيانا للدلالة على المكان و قد ترد أحيانا أخرى للدلالة على جنس، و من ذلك ما أورده المسعودي(ت345هـ/956م) " و لما تفرق ولد نوح في الأرض سار ولد كوش بن كنعان إلى المغرب حتى قطعوا نيل مصر ، ثم تفرقوا فسار منهم طائفة ميمنة بين المشرق و المغرب، و هم النوبةو البجة و الزنج، و سار فريق منهم نحو المغرب و هم أنواع كثيرة نحو الزغاوة و الكانم"[3].

أما كلمة "برنو"[4] كثيرا ما ترادف ذكرها في التاريخ مع كلمة كانم نظرا لتاريخهما المشترك. و هو اسم أطلق على مجموعة القبائل" الكانوري" ثم أطلق على المملكة التي كان "للكانوري" فضل في تأسيسها غربي بحيرة تشاد،و قد قيل في أصل اشتقاقها الكثير فمنهم من أعطى اسم "بورنوه" معنى

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]-ابن خلكان، وفيات الأعيان و أنباء الزمان، بيروت،1977م،ج7،ص15.

[2]- الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البرو البحر،(د.ط)،طربورغ،مطبعة الأكاديمية،ص19،أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي، *الاستقصا لأخبار الدول المغرب الأقصى*،تح:جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البضاء،دار الكتاب، ج5،ص 102.

[3]-أبي الحسن علي ابن الحسن المسعودي،*مروج الذهب و معادن الجوهر* ،ط4،بيروت،دار الأندلس،1981م ،ج1،ص422. *الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء و الملوك*،القاهرة،1955م،ص 110.

[4]- وردت كلمة برنو لأول مرة في كتب الجغرافيا و التاريخ في ق8هـ/14م و ما بعده ،أنظر ابن بطوطة، *تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار*، بيروت،1968م،ص679.، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*، تح: خالد الخطيب،بيروت،لبنان،دار الكتب العلمية،1987م، ج5،ص279.

أرض نوح.[1] و يرجح البعض أن تكون الكلمة تحريفا لكلمة" بارات" أو "بارام "في بعض اللغات الصحراوية و معناها الرجال المحاربون[2].

لكن الغموض الذي وقع فيه المؤرخون القدامى و المحدثون حول كانم_برنو يرجع إلى عدم التمييز بينهما و الواقع التاريخي يؤكد سبق تأسيس كانم على برنو و ظهورها على المسرح السياسي[3]. و لهذا فإن دولة "كانم " تمثل المرحلة الأولى لتاريخهما المشترك الطويل و الذي امتدت من فترة التأسيس في القرن3هـــ/9م حتى القرن8هـــ/14م و هو ما يمكن تسميته بالعصر" الكانميو" حيث كان إقليم برنو الواقع غرب بحيرة تشاد خاضع لكانم و العاصمة هي "جيمي"[4]، و من الثابت أنها تأسست قبل انتشار الإسلام بها [5] أما المرحلة التالية فشملت المدة المتبقية من ق8هـــ/14م حتى ق13هـــ/19م و أصبحت "كانم" جزء من "برنو" و هو ما يمكن تسميته بالعصر البرنوي[6].

ب_ الموقع:

تقع هذه الإمبراطورية إلى الشمال الشرقي من بحيرة تشاد[7] وتميزت الرقعة الجغرافية التي كانت تشغلها دولة كانم بعدم الثبات والتغير المستمر [8] وذلك بفعل عوامل عديدة بعضها يعود إلى طبيعة نشأ نشأ هذه الدولة ،وبعضها الآخر يعود إلى العوامل الداخلية والخارجية التي رافقت تاريخها. مما أدى إلى تغير حدودها بين الاتساع (حيث وصلت شمالا حتى فزان و شرقا نهر النيل و غربا نهر النيجر) وانكماش(شملت إقليم برنو غرب البحيرة) حينا أخر تبعا للظروف والعوامل المحيطة .لذلك تجد أن من تعرض لهذه الدولة من الكتاب لم يتركوا تحديد واضحا ودقيقا يمكن الأخذ به[9].

[1]– من الأساطير الشائعة بين أهالي المنطقة المحيطة ببحيرة تشاد أن هذه الأرض هي نفسها التي عاش عليها سيدنا نوح عليه السلام و يبدوا أن القبائل المنطقة في العصور الوسطى صدقت هذه الأسطورة،أنظر:جوان جوزيف،*الإسلام في ممالك و إمبراطوريات إفريقيا السوداء*،تر: مختار السويفي ، القاهرة، دار الكتاب ، ،1984م، ص89.

[2]– مسعود خالدي، *الجاليات العربية و البربرية في إفريقيا جنوب الصحراء،(السودان الأوسط و الغربي) بين القرنينالخامس و العشر هجريين /الحدي عشر و السادس عشر ميلادي*، رسالة ذكتوراه،إشراف :مسعود مزهودي،جامعة الأمير عبد القادر،قسنطينة،2008م ،ص 304.

[3]– مادة برنو ،دائرة المعارف الإسلامية،ص 576.

[4]– شوكت عارفالأتروشي، *دولة كانم الإسلامية الجوانب السياسية و الإقتصادية،المملكة الأردنية،دار دجلة*،ص 28.

[5]– دريك لانغ،شعوب منطقة تشاد و لغاتها،موسوعة تاريخ إفريقيا العام، ط2، اليونسكو، ،1997م ج3،ص495.

[6]– شوكت عارف الأتروشي،المرجع السابق،ص،ص 27،28.

[7] _Fag, j.d :History of west Africa,cambridge,Cambridge univ,1972,p31.

[8]– أنظر ملحق رقم 2 خريطة توضح حدود مملكة كانم برنو.

[9]– شوكت عارف الأتروشي،المرجع السابق ،ص–ص23_24.

غير أن هذا لا يمنع من تأشير حدودها بصورة تقريبية حسب ما ورد في المصادر العربية وأول من أشار إليهم اليعقوبي (ت284هـــ/897م) بقوله:« و أما السودان الذين غربوا...و أنهم قطعوا البلاد فصارت لهم عدة ممالك فأول ممالكهم الزغاوة[1]، و هم النازلون بالموضع الذي يقال له كانم »[2] ويعتقد أن الزغاوة الذين وفدو من الشرق شمل نفوذهم خلال القرنين الأول والثاني الهجري السابع والثامن ميلادي مساحات كبيرة لكن لا تبدوا معالم الحدود السياسية لدولة كانم واضحة في هذه المرحلة فقد ورد عن المسعودي(ت346هـــ/956م) قوله:« مملكة الزغاوة واسعة كبيرة منها على النيل مما يحاذي النوبة »[3]، وورد عن المهلبي (375هـــ/985م) قوله: «ملكة الزغاوة مملكة عظيمة عظيمة من ممالك السودان في حد المشرق فيها مملكة النوبة الذين بأعلى صعيد مصر بينهم مسيرة عشرة أيام .وهم أمم كثير »[4].

و لم تتضح معالم الحدود السياسية إلا بعد انتشار الإسلام ق5هـــ/11م حيث كان إيذانا للتوسع والغنى .ودخل تاريخها في عهد النور والوضوح ويذكر العمري (ت749هـــ/1348م):« أن ملك كانم رجل مسلم مستقل بينه وبين مالي مسافة بعيدة جدا .قاعدة ملكه بلد اسمها جيمي[5] مبدأ مملكته من جهة مصر بلدة اسمها زلا[6] وآخر طولها بلدة يقال كاكا[7] وبينهما ثلاثة أشهر »[8]. أما الحدود الشمالية امتدت إلى كوار[9] وفزان[10] وجنوب تصل إلى تجمعات الوثنية حيث يذكر ابن سعيد سعيد المغربي(ت665هـــ/1288م) أن سلطات كانم كثيرا ما يغزو في أسطوله بلاد الكفار .

جـ ظهور المملكة:

---

[1]– الزغاوة و هم مؤسسو حكومة كانم الأولى إلى أنه لا توجد معلومات دقيقة عن ملوك الزغاوة،و اقترنت حدود مملكة كانم باسم الزغاوة،أنظر:شوكت عارف الأتروشي، *دولة كانم الإسلامية*،ص24.

[2]– أحمد بن يعقوب بن جعفر اليعقوبي،تاريخ اليعقوبي،(د.ط)،بيروت،دار صادر،(د.ت)،ج1،ص166.

[3]– أنظر :أخبار الزمان من أبادة الحدثان و عجائب البلدان و الغامرة بالماء و العمران،بيروت،1978،ص89.

[4]– ياقوت الحموي،معجم البلدان،بيروت،1975،ج3،ص142،أنظر:أبوالفداء،تقويم البلدان،باريس،1850،ص153.

[5]– من أشهر عواصم كانم،أشار إليها الكتاب العرب في رحلاتهم،تقع إلى الشمال من بحيرة تشاد حيث تبعد عنها حوالي 100ميل،أنظر:ابن سعيد ،*كتاب الجغرافيا*،ص95.

[6]– عند القلقشندي،دلا، *صبح الأعشى*،ج5،ص281.

[7]– ترد أحيانا كاغا،كاجا،تبعد عن جيمي حوالي 400ميل ،أنظر القلقشندي،المصدر السابق،ج5،ص281،يقر،،مادة برنو ،دائرة المعارف ،ج3،ص580.

[8]– ا أبو الفضل الله شهاب الدين لعمري،*مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*،الدار البيضاء،1988م،ص53.

[9]– كوار :مدينة وراء زويلة تبعد 15مرحلة بها قوم من المسلمين أكثرهم بربر حسب اليعقوبي افتتحها عقبة بن نافع سة 46ه/666م أهم مدنها بلما و قصر أم عيسى،أنظر البلدان،ص104.،ياقوت الحموي،المصدر السابق،ج4،ص432.

[10]– فزان قاعدتها زويلة بينهما 15ملرحلة،أنظر أبو الفداء،تقويم المصدر السابق،ص127.

لقد اختلف الباحثون في تحديد نشأة دولة كانم-برنو في الوقت الذي كان يستوطنها الزنوج.ولكن ظهور كانم ارتبط باستيطان رعاة من الصحراء وخاصة الزغاوة وذلك أوائل العصـــر الإسلامي ولقد عرفت حوالي 284هـــ/850م[1]على أن الأبحاث عموما لم تنته بعد إلى تحديد بداية تاريخ نشأة هذه المملكة [2].

ولا يعرف عن تاريخها المبكر سوى بعض الروايات المحلية التي تشير بعضها إلى إن الملوك الأوائل من الزغاوة ينحدرون من الملك "داجو " الذي أرخ لحكمه 254هـــ/820[3] والذي ينحدر من نسل القائد العربي "سيف بن ذي يزن"[4] وهذا ما ترويه المصادر التاريخية و الجغرافية[5].

وبالسنة للمصادر العربية فان أقدم إشارة إلى مملكة كانم جاءت عند اليعقوبي الذي أشار إلى الزغاوة ومملكتهم بقوله «وأما السودان الذين غربوا وسلكوا نحو المغرب .وأنهم قطعوا البلاد فصارت لهم عدة ممالك فأول ممالكهم الزغاوة .وهم النازلون بالموضع الذي يقال له كانم و منازلهم أخصاص القصب ... و يسمى ملكهم كاكره . و من الزغاوة صنف يقال لهم الحوضن و لهم ملك من الزغاوة »[6].

و استمر الزغاوة يحكمون كانم و اتسع نفوذهم إلى بلاد النوبة شرقا و إلى كوار شمالا حتى ظهرت أسرة حاكمة جديدة عرفت بالماغوميين في حدود (ق3هـــ/9م) وقد أشارت بعض المصادر إلى ظهور هذه الأسرة لكن باسم "دوغاو" ،لكن هناك من الدارسين يرى أن هذه الطبقة قد تكون شعب الزغاوة نفسه لكن باسم أخر أو مجموعة أخرى غير أن الزغاوة لم ينقرضوا تماما بل بقي منهم من سيطر على منطقة كبيرة جنوب كانم و كانت عاصمتهم "سمبا" أو "سامينا" قرب بحيرة فتري .و قامت مصاهرة بين الأسرة الحاكمة الماغوميين و الزغاوة[7].

[1]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي،*حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*،القاهرة،مكتبة نهضة الشرق ،ص 123.

[2]- عبد القادر زبادية، *مملكة سنغاي،في عهد الأسقيين*،الجزائر ،المؤسسة الوطنية للكتاب،ص16.

[3] -Trimingham.j spencer A History of Islam in West Africa,Oxford university press,1968.,p240.

[4]- سيف بن ذي يزن بن أصبح بن زيد بن سهل بن عمر الحميري (516م_574م) من ملوك العرب اليمانيين ، كان له شأن كبير في تاريخ العرب بمحاولته طرد الأحباش من اليمن،و يرجح أن يكون انتصاره حوالي 570م ،أنظر:ابن خلدون ،العبر،ج2،ص 62.الزركلي، *الأعلام*،القاهرة،1959م،ج3،ص219.دائرة المعارف الإسلامية،مادة سيف بن ذي يزن،ص313

[5] -Palmer, sudaneses MemorisLondon,1967,vol3,p36.

[6]- اليعقوبي، تاريخ،ج1، ص166.

[7]- المسعودي،أخبار الزمان،ص 89.

و الجدير بالذكر أن الطابع الأسطوري قد غلب على المعلومات التي وصلتنا عن نشأة دولة كانم . حيث تدعي الروايات المحلية بان سيف بن ذي يزن أول ملوكها و حكم 20 سنة . و أقام في عاصمة "جيمي" . خلفه ابنه " إبراهيم" الذي حكم 50 سنة، ثم ابنه "دوجو" و بعد " فون" االذي حكم ما يقارب 250 سنة حسب الأخبار الأسطورية الواردة [1]. تاريخ كانم لم يتحقق إلا بمجيء الملك "هيوم" أو "اوم بن جيلي"[2] (479هــ/1086م).(491هـــ/1097م) وترتيبه الثاني عشر في قائمة الملوك الماغوميين الذين حكموا كما انه أول من أسلم من ملوكها.سنتحدث عن هذه المنطقة في ظل الإسلام في الفصل الموالي حيث سنحاول إظهار جهود هؤلاء الحكام المسلمين في نمو الحركة العلمية ببلادهم[3].

2- دويلات الهوسا

أ_ التسمية:

إن كلمة الهوسا [4] لها مشتقات عدة منها:الهوس تعني الطوفان بالليل و الطلب و الجرأة،و رجل هواس و هواسة:معناه شجاع و مجرب،و منها:الهوس:الإسناد،كذلك هوس الناس هوسا:وقعوا في انحلال و فساد، في لغة الطوارق تعني المستقرين في شمال و شرق النيجر،و قيل أصلها غير معروف[5].

و هناك من يعتبر كلمة الهوسا كلمة مركبة من "هو" و معناها اركب و "سا" و معناها الثور أي " راكبو الثور" [6]، و شعوب الهوسا يطلقون هذا الاسم على بلادهم فيقولون "هوسا باكواي" و تعني تعني ممالك الهوسا السبع[7].و بذلك فالهوسا مصطلح جغرافي يقصد به في لغتهم الضفة اليسرى لنهر النيجر ثم صارت هذه الكلمة ذات دلالة لغوية أكثر منها عنصرية[8].

---

[1]- ياقوت الحموي، *معجم البلدان*،ج3،ص142.

[2]-كما ورد الإسم " حمي" أو" هومية بن جيلمة"أنظر:البكري،*المسالك و الممالك*،ص11.

[3]- أحمد شلبي،*موسوعة التاريخ الإسلامي*،،ج6،ص 139.

[4]- الهاوزا :عند حسين مؤنس،*أطلس التاريخ الإسلامي*، ص378، و الهوسا تدل على لغة و حضارة أكثر من دلالتها على شعب معين.

[5]- ابن منظور، *لسان العرب*،ص 178،دائرة المعارف الإسلامية،حرف السين،ج8،ص138،139.

[6]- علي بن أيوب ناجي، *لمحات عن الإسلام في نيجيريا*،(د.ط)،الكويت ،دار الكتاب الحديث ،(د.ت)،ص 33، أنظر :المقري التلمساني،*نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب*،تح:إحسان عباس،بيروت،دار صادر،ج2،ص85.

[7]- و هي : دورا،زمفرة،ورنو،كانو،كاتسينا،زوار،غوبير،أنظر: بدري محمد فهد،*الصلات بين العرب و أفريقيا*،الأردن، دار المناهج،2002م ،ص48.

[8]- حسين مؤنس ،الإسلام الفاتح،(د.ط)،مطبوعات رابطة العالم الإسلامية،ص 145.

ب_ الموقع

تعتبر دويلات الهوسا حالة خاصة مختلفة عن دول إفريقيا الغربية التي قامت في العصور الوسطى فقد اتبعت هذه الدويلات نظام" دولة المدينة"[1] .كل منها محاطة بسور وتدعا "بيرني"يرأسها ملك يدعا " ساركي" وظلت جميعا منفصلة.وتعد اليوم من أهم ما تبقي من تراث تلك المنطقة[2].

تقع بلاد الهوسا الآن في شمال دولة نيجيريا والقسم الجنوبي من دولة نيجر وإذا أزلنا الحواجز السياسية تكون الحدود الطبيعية لهذه البلاد هي :

السهول الخصبة المحصورة بين الصحراء الكبرى وجبال العير (غرب إقليم كوار) من الشمال.و نهر نيجر في الغرب وبحيرة تشاد في الشرق، أما جنوبا فيحدها نهر بوناوي وبلاد الساحلية لخليج غانا.[3]

كانت بلاد الهوسا في الماضي تقع بين مملكتي سنغاي في الغرب برنو في الشرق وهذا الموقع جعلها مطمع هاتين المملكتين. كما اثر هذا الموقع كثيرا في تاريخها [4] .

أما حاليا ينتشر الهوسا في شمال نيجيريا بوجه خاص وفي نيجر والكاميرون وتوجو غانا وجمهورية إفريقيا الوسطى.ويتجاوز عددهم 12 مليون في نيجيريا وحدها.[5]

ج_ أصل الهوسا:

أصلهم غير واضح لأن شعب الهوسا ليس قبيلة بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة،فهو شعب لا ينحدر من دم واحد،بل جاء نتيجة امتزاج ظل يحدث لعدة قرون بين جماعات جنسية كثيرة و انصهرت في شكل أقرب ما يكون لدولة ،و ذلك بفضل ما كان لهم من لغة مشتركة[6]. و بذلك فالهوسا مصطلح ذو دلالة لغوية أكثر منها سلالية[7].

و قد طرحت عدة فرضيات حول أصلهم غالبا ما تناقضت و تضاربت و التي يمكن تلخيصها في:

---

[1]– دولة المدينة هو نظام أو كيان سياسي محوره مدينة مستقلة تنحصر فيه السيادة و العصبية بمواطني المدينة،أنظر:موسوعة السياسة،المؤسسة العربية للدراسات و النشر،1981م،ج2،ص722.

[2]– محمد فاضل علي باري،*المسلمون غي غرب إفريقيا*،ص145.

[3]– حين مؤنس،الإسلام الفاتح،(د.ط)،القاهرة،مطبوعات رابطة العالم الإسلامي،1980مص378.

[4]- بدري محمد فهد،المرجع السابق ،ص48.

[5]– أحمد شلبي،موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6،ص 70.

[6]– نفسه،128. أنظر ملحق رقم 3 خريطة توضح موقع دويلات الهوسا.

[7]– حسين مؤنس،الإسلام الفاتح،ص145.

ــ الفرضية 1: تزعم أن أجدادهم من العرب من بغداد ــ مؤسسة على أسطورة بايجيد (أبوزيد) [1]

ــ الفرضية 2: تؤكد أن شعب الهوسا كان في الأصل يقيم جنوب الصحراء ــ قبل أن تصبح صحراءــ و عندما جفت هاجر الهوسا نحو الجنوب و دحروا الشعوب المحلية

ــ الفرضية 3:تعارض النظريتين السابقتين و تؤكد أن أسلافهم من الضفة الغربية لبحيرة تشاد كانوا يعيشون على الصيد و عندما بدأت البحيرة في الجفاف و التقلص قرروا أن يبقوا في نفس المكان و أن يمارسوا الزراعة[2] .

و يبدو من خلال الدراسات أن أصل الهوسا هو أصل محلي[3] و طبيعي أن هذه المجموعات قد استفادت من موجات الهجرات القادمة من الشمال و الشرق و فيما بعد هجرات قادمة من الغرب (السودان الغربي) و المتمثلة في هجرات" الونجارة" فروع من قبائل الفولاني خلال القرن الثامن هجري الرابع عشر ميلادي. و عليه نخلص أن نشأة مجموعة الهوسا تبقى غامضة بسبب بعد المسافة الزمنية [4].

[4].

ح_ نشأة الدويلات:

مصادرنا التاريخية عن دويلات الهوسا في عصرها المبكر تكاد تكون معدومة و قد يكون مرد ذلك أن حركة الجهاد التي قامت بالمنطقة أتلفت العديد من المخطوطات الهوسية،حيث اعتبرت الكتابات الموجودة غير إسلامية فتم القضاء عليها[5].

و تروي الأساطير أن شعب الهوسا مزيج من جماعات من البربر أغاروا من الشمال و اختلطوا على حافة الصحراء عند واحة تسمى "اير" و تزوج زعيم البربر ملكة الزنوج و أنجبت منه سبع أولاد أسسوا فيما بعد إمارات الهوسا السبع و هي :بيرم ،دورا،جوبر،زاريا،رانو،كانو،كاتسينا و تستمر الأسطورة لتحكي أن هذا الزعيم تزوج امرأة أخرى و أنجبت سبع أبناء آخرين و استطاع هؤلاء أن يشيدوا سبع ولايات أخرى هي:كبي،جواري،يورينكوارفا،ايلولين،ونفرة[6] يطلق عليها" بنذا باكواي"

---

[1]-م.أدامو، "الهوسا و جيرانهم بالسودان الأوسط"،موسوعة تاريخ افرقيا العام،اليونسكو،ط2،1997م،ج4، ص276.

[2]- روسيل و وين هاو،*تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا*،تر:عبد الوهاب الزنتاني ،القاهرة،دار غريب،2009م ،ص92.

[3]- م.أدامو،المرجع السابق ،تاريخ إفريقيا العام،ج4،ص 275.

[4]- بدري محمد فهد،*الصلات بين العرب و أفريقيا*،ص 48،أحمد شلبي، *موسوعة التاريخ الإسلامي*،ج 6،ص 129.

[5]- عطية مخزوم،*دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء*،منشورات بنغازي،1998م،ص 210.

[6]- أحمد شلبي،المرجع السابق،ص 129.

باكواي" أي الممالك السبع غير الأصلية ، و يتحدث شعوب هذه الولايات بلغة الهوسا مع احتفاظهم بلغاتهم الأصلية[1].

و على العموم تكونت ولايات الهوسا و أصبح لها لغة شائعة مشتركة لها أصول بربرية[2]،و كما حمل البربر معهم أصول هذه اللغة فإنهم حملوا معهم قسطا كبيرا من الحضارة و المدنية لهذه المناطق[3].

و يرى بعض الباحثين أن" دورا" هي أقدم دويلات الهوسا أما أقوى هذه الإمارات هي "جوبير" حيث كان يدين لها بقية الدويلات بالولاء مع الاستقلال المحدود لكل منها،و كان اسم "جوبر" يطلق على بلاد الهوسا كلها في كثير من الأحيان. و كانت مدن بلاد الهوسا تحتل موقعا ممتازا عند الطرف الجنوبي للصحراء لذا عرف الهوسيون بأنهم أكثر الرحالة و التجار مغمارة[4].

جاء القرن الرابع عشر و إمارات الهوسا لا يزال أكثرهم على الوثنية ثم بدأ الإسلام يدب فيها ،و أصبحت تلعب دور هام في تاريخ الإسلامي للمنطقة[5].

---

[1]- علي أيوب ناجي،*لمحات عن الإسلام في نيجيريا* ،ص 35.

[2]- قام الباحثون بتصنيف لغة الهوسا حيث ظهر أنها أقرب إلى لغة البربر من أي لغة أخرى،أحمد شلبي،*موسوعة التاريخ الإسلامي*،ص128.

[3]- نفسه،ص129.

[4]- نفسه،ص130_131.

[5]- عطية مخزوم،*دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء*،ص 212.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني

عوامل ظهور و نمو الحركة العلمية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا :التوسع في انتشار الإسلام و الخاصية التعليمية له.

ثانيا :قيام المملك الإسلامية و تشجيع ملوكها للعلم و العلماء.

ثالثا:الهجرات المختلفة للمنطقة و أثرها الثقافي.

رابعا: الصلات بالمراكز الثقافية المجاورة للمنطقة.

أولا : التوسع في انتشار الإسلام و الخاصية التعليمية له

أ_ التوسع في انتشار الإسلام:

يعتبر موضوع انتشار الإسلام في بلاد السودان في العصر الوسيط من أهم الموضوعات التي شهدت الاهتمام و الجدل و الحوار بين الكتاب و المؤرخين و هذا لما ترتب عليه من نتائج سياسية و اقتصادية و اجتماعية غيرت تغييرا شاملا البنية و السمات العامة التي كانت عليها القارة من قبل[1].

و دراسة انتشار الإسلام في إفريقيا بصفة عامة قد تبدوا يسيرة سهلة غير أنها في واقع الأمر شائكة معقدة نتيجة لتداخل المسائل و تضاربها مع غموض شديد ، فالمادة المتاحة قليلة و غير متوفرة بصورة متساوية كما و كيفا، عن كل المناطق، و ليست متيسرة بصورة متكافئة عن كل الفترات الزمنية في المنطقة الواحدة[2]،إضافة إلى تنوع و تعقد البيئة المحلية و الخارجية التي دخل منها الإسلام الأمر الذي يضطرنا إلى الالتجاء إلى بعض المعلومات نكون منها صورة تكون بعيدة الدقة العملية التي أدت إلى قبول الناس للإسلام أفرادا وجماعات ، و اعتناق الملوك للإسلام و من ثم اعتبار أراضيهم جزءا من دار الإسلام[3].

و الحقيقة التي ربما الوقوف عندها هو أن انتشار الإسلام في بلاد السودان جاء بعدة طرق قلما نجدها مجتمعة في مناطق أخرى ، فالفتوحات الإسلامية (الحملات العسكرية) كانت حجر الأساس لانتشار الإسلام في بلاد فارس و المشرق العربي، و شمال إفريقيا ، ووصل دين الحق إلى جنوب شرق آسيا و الهند بفضل النشاط الدعوي للتجار ، و في شمال القوقاز شقت الطرق الصوفية طريقها لتثبت دعائم أركان الإسلام ، أما بلاد السودان فقد اجتمعت كل هذه الطرق و دخل الإسلام بواسطتها[4].

و حتى نتمكن من إعطاء هذا الجزء حقه من الدراسة دون السرد الممل فإننا أثرنا تقسيم العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام في هذه المناطق، و هي في الواقع عوامل متداخلة لا غنى لإحداها

1- عطية مخزوم، *دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء*، ص93.

2- عز الدين عمرو موسى،" *انتشار الإسلام في غرب إفريقيا*" ، ندوة العلماء الأفارقة و مساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية،بغداد،المنظمة العربية للتربية و الثقافة،1985م. ص44.

3-دريك لانغ،"*شعوب منطقة تشاد و لغاتها*"، تاريخ إفريقيا العام ، ج3، ص495.

4- فاضل علي باري، *المسلمون في غرب إفريقيا*، ص 37.

عن الأخرى و هي: العوامل الذاتية المتعلقة بالإسلام ، العوامل الخارجية، العوامل المتعلقة بالقارة ذاتها.

_ العوامل الذاتية المتعلقة بالإسلام.

العوامل الذاتية هي تلك العوامل التي ترتبط بالإسلام كدين و عقيدة و منهج و سلوك، و هي بطبيعتها تمثل الجانب الأساسي الذي تتمحور حوله بقية أو غالبية العوامل الأخرى، فالدين الإسلامي في جوهره يحمل الكثير من الخصائص و السمات [1] أهمها سماحته و بساطته و إنسانيته، إنه يقدم للمؤمن الاطمئنان و هدوء البال و يفتح له إلى الله سبحانه بابا واسعا للمغفرة و الأمل و كل ذلك دون مقابل[2]، و الإسلام كما يقول " هوبير ديشان" أحد المؤرخين الأوروبيين :" دين الفطرة، سهل التناول لا لبس و لا تعقيد في مبادئه، سهل التكلف و التطبيق على مختلف الظروف و إن وسائل الانتساب إليه أيسر و أيسر ... و قد حبب الإسلام إلى معتنقيه مظاهر بعيدة عن التكلف ...فالذي يدخل الإسلام يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة و أنه ازداد من القوة و الحيوية"[3]

أما مبادئ الإسلام فأهمها عدم إجبار الناس على اعتناقه بل يكفل حرية التدين و العبادة للناس حيث يقول سبحانه و تعالى:" لا إكراه في الدين ،قد تبين الرشد من الغي"[4] و قوله سبحانه و تعالي: "لكم دينكم و لي ديني"[5]، و قوله تعالى:" أدع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة و جادلهم بالتي هي أحسن"[6]، و لهذا اعتنق الكثير من الزنوج الوثنيين الإسلام لبساطة إجراءاته ، و ماله على النفوس من جاذبية، ومما سهل عليهم تقبل العقيدة الإسلامية انسجام الإسلام مع البيئة الإفريقية في كثير من تعاليمه و تقاليده[7] و يضيف المؤرخ "ترمنجهام" أن الفرد الذي يدخل الإسلام يجد نفسه هو الآخر منسجما في المجتمع الإسلامي و ليس غريبا عنه، لأن الإسلام ينظم له جميع شؤون الحياة سواء كانت فردية أو جماعية مع الحفاظ على العرف القديم الذي لا يتعارض مع الإسلام[8].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1]- عطية مخزوم، *دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء*،ص ،ص93،94.

[2]- حسين مؤنس، *الإسلام الفاتح*، ص،ص16،17.

[3]- شوكت عارف الأتروشي، دولة كانم الإسلامية، ص82.أنظر أيضا : توماس أرلوند، الدعوة إلى الإسلام،تر:حسن إبراهيم حسن و آخرون،القاهرة،مكتبة النهضة المصرية،1981م ص 357.

[4]- سورة البقرة ،آية 256.

[5]- سورة الكافرون، آية 6.

[6]- سورة النحل ،آية 125.

[7]- مثل اباحته لتعدد الزوجات و احترام الرؤساء و في تقديم الأضاحي، مما كان له الأصل في المجتمع الإفريقي قبل الإسلام، أنظر : شوكت عارف االأتروشي، المرجع السابق، ص،ص82،83.

8 - Trimingham, infuluence islam upon Africa,2 e,london,Britech Library,1980 ,p14-42.

و عليه الإسلام بهذا المفهوم الحضاري حمل قوته في ذاته، فلا عجب أن ينتشر بين الأفارقة بقوته الروحية لا بالقوة المادية[1]، و سرعان ما أصبح فكرا محليا و ثقافة قومية فلم يصبح كسواه من الأديان التي عاشت قرونا و هي غريبة عن البلدان التي فتحتها، و أصبح معتنقوا الإسلام قادة الفكر في بلداهم و أصحاب الدعوة بها، و هكذا وجدنا الإسلام دينا يمكن تسميته إفريقيا في إفريقيا ، آسياويا في آسيا...[2].

_ العوامل الخارجية

يقصد بها الأفراد و الجماعات و حتى الهيئات أو المؤسسات التي عملت على نشر الإسلام و الدعوة إليه و هي:

1_ التجار[3]

لقد كان للعرب و البربر علاقات تجارية مع إفريقيا منذ أمد بعيد و بانتشار الإسلام في الجزيرة العربية و شمال إفريقيا ازدادت الصلات التجارية بدواخل القارة و أصبحت تجارة كبيرة و منظمة و في نشاط متزايد بين أطرافها[4]، و هذا عبر مسالك عرفها التجار منذ القديم و كانت تربط شمال الصحراء و جنوبها أو تصل بين شرق القارة و وسطها، أو بين الغرب و الوسط[5]، و قد سار بعض الرحالة العرب في هذه المسالك و وصفوها لنا أدق وصف [6]، كما بينوا المراكز التجارية الكبرى التي تقع عليها و المراحل المختلفة بينها[7]، و يتحدث الدارسون عن أهم هذه الطرق ذاكرين أنها لم تتغير عما كانت عليه قديما و أنها بقيت قائمة، و الذي يهمنا في هذا المقام الطرق التي سلكها الإسلام مع التجارة إلى بلاد السودان الأوسط و بحيرة تشاد، و هي عديدة أهمها الطريق من طرابلس إلى جبل نفوسة إلى كوار و بلاد كانم، الطريق من وداي مخترقا أوجلة و الكفرة، الطريق من القاهرة إلى دارفور المعروف بدرب الأربعين، و هذا جعل السودان الأوسط يتأثر بموجتين إحداهما

---

[1]- حسن أحمد محمود ، *الإسلام و الثقافة الإسلامية في إفريقيا*،(د.ط)،القاهرة،دار الفكر العربي، ص79.

[2]- أحمد شلبي ، *موسوعة الحضارة الإسلامية*، ج6، ص 161.

[3]- المقصود بالتجار هنا : التجار غير المستوطنين في هذه المناطق أي التجار الذين يفدون بقصد التجارة ثم يعودون لمواطنهم الأصلية في شمال القارة أو خارجها ، أما التجار الذين هاجروا و استوطنوا فيدخل نشاطهم ضمن الهجرات و أثرها في خدمة الإسلام .

[4]- يقول ابن حوقل(ت367ه) في هذا الصدد :" عرف العرب التجارة مع افريقيا منذ أمد بعيد و لما ظهر الإسلام أصبح التاجر مسلما زاد النشاط التجاري بين شمال الصحراء و جنوبها...و أشاع التاجر حوله جوا من الثقة...و أصبح يشبه منارة للفكر بما يحمله من مدنية و حضارة...فهيأ بذلك للإسلام فرصة الإنتشار مع التجارة"أنظر: صورة الأرض، بيروت، مكتبة الحياة، (د.ت)، ص99.

[5]- أنظر ملحق رقم 3حول الطرق التجارية الرابطة بين شمال القارة و دواخلها

[6]- لذا نجد كثير من كتب هؤلاء الرحالة سميت " المسالك و الممالك" مثل كتاب البكري، الاصطخري

[7]- أحمد شلبي، المرجع السابق، ص 192.

قدمت إليه عن طريق تونس و طرابلس و الثانية من وادي النيل[1] .

و على هذه الطرق و المسالك قامت مدن تجارية لعبت دورا مهما في خدمة الإسلام مثل :انجيمي، كانو، كاتسينا، فقد كان يقصدها التجار المسلمون ، هذه الفئة التي تسير وفق المبادئ الإسلامية مما جعلهم محل ثقة الأفارقة الزنوج، فما أن يدخل التاجر مدينة أو قرية في بلاد السودان سرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوئه و انتظام وقت صلاته ، فضلا عما يتحلى به من سمو عقلي و سلوك حضاري يفرض الاحترام[2].

و بالرغم من أن القليل منهم- أي التجار- كان يجيد الفقه الإسلامي لعدم استطاعته التفرغ له، فإن معظمهم قام باستقدام الفقهاء و العلماء لهذه المناطق خاصة عندما يكثر عدد المسلمين بها ليتولى هؤلاء العلماء تعليم الناس أمور دينهم، كما كانوا يختارون الطلاب لإرسالهم إلى المعاهد الإسلامية الشهيرة في مصر و شمال إفريقيا، كما عمد كثير من التجار ببناء بيوت و مدارس للطلاب إضافة إلى تقديم النفقات[3] .

و قد لعب التجار أيضا دورا في وصول الإسلام إلى الطبقة الحاكمة في بعض الممالك خاصة مع ازدياد العلاقات التجارية خلال القرنين الرابع و الخامس هجري،(العاشر و الحادي عشر ميلادي) حيث ساعد وجود هؤلاء في البلاط الملكي على توطيد و تعزيز الإسلام في تلك المناطق[4] .

أما عن الشعوب التي نشرت الإسلام من خلال ممارسة أفرادها التجارة فهم البربر أولا ثم العرب و بعد هذين الجنسين يأتي التجار من قبائل الهوسا و الفولاني، و كان دور التجار البربر واسعا للغاية نظرا لوجود حاصلات في الشمال يحتاجها سكان الجنوب[5] ، كما كانت هناك حاصلات سودانية[6] يحتاجها سكان الشمال، و من أجل هذا قامت تجارة واسعة أدارها المغاربة بنشاط واضح[7]، واضح[7]، حيث يذكر السلاوي أن تجار المغرب كانوا يجتمعون في مراكز الشمال ثم يسيرون إلى الجنوب و كانوا يقطعون المسافات في أشهر ذهابا و إيابا فيبيعون ما معهم من الأمتعة بالتبر[8].

أما التجار العرب عرفوا التجارة مع إفريقيا قبل الإسلام بزمن طويل فلما جاء الإسلام هيأ لهم فرص أوسع، و كانت تتم عن طريق مصر أو عبر البحر الأحمر حتى تصل قلب إفريقيا، فكـــانـــت

[1]-القاموس الإسلامي، ج3، ص552، نقلا عن أحمد شلبي،موسوعة التاريخ الإسلامي،ج6،ص104

[2]- عطية مخزوم، *دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء* ،ص - ص 101- 104.

[3]- أرلوند توماس، *الدعوة إلى الإسلام*، ص ، ص 371،376، 382.

[4]- محمد فاضل علي باري، *المسلمون في غرب إفريقيا*، ص- ص 39- 40.

[5]- في مقدمتها الملح، و المنسوجات و الحلي و الخيول لأنظر: عبد القادر زبادية، *الحضارة العربية و التأثير الأوروبي* ، ص 17.

[6]- على رأسها الذهب و الأخشاب و جلود الحيوانات و العبيد ، أنظر : نفسه، ص 17.

[7]- نبيلة حسن ،*في تاريخ إفريقيا الإسلامية*، ص – ص80 –86.

[8]- السلاوي، *الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى*، ص،ص99،100.

سلع بلاد السودان الأوسط خاصة العاج و العبيد من أهم اهتمامات التجار المصريين حيث كانوا يقومون بدور الوسيط لنقل هذه السلع إلى جنوب أوروبا[1]، و كان التجار المصريون يذهبون بقوافلهم إلى بلاد كانم حاملة الإسلام معها[2] .

كما تؤكد لنا المصادر و الدراسات أن نشر الإسلام في بلاد الهوسا و كانم يعود فيه الفضل للتجار المحليين حيث امتدت رحلاتهم إلى القاهرة[3]، و بلغ أثرها أن صارت لغتهم هي اللغة المتداولة[4]لأهل السودان و بانتشار لغة الهوسا اتسعت دائرة الدعوة الإسلامية .

هذا الوصف الموجز لنشاط التجار يدل على صلة انتشار الإسلام بالتجارة حيث لعب التجار المسلمون دورا مهما في خدمة الإسلام في المراكز و المدن التجارية ببلاد السودان فسرعان ما تصبح هذه المدن مراكز ثقافية يؤمها المعلم و المريد و يتبادل فيها الأفكار إلى جانب السلع[5] .

2_الدعاة

مما عمل على نشر الإسلام في هذه المناطق هم الدعاة الذين لا يخلوا منهم أي وقت، ووقعت هذه المسؤولية عليهم لافتقار الدعوة الإسلامية إلى جمعيات خاصة أو هيئات تشرف على نشر الإسلام، كما هو الحال في الإرساليات المسيحية التي دعمتها أوروبا[6] ،و انطلاقا من أن الدعوة واجبة على كل فرد و التي يحصل عليها على أفضل الثواب فعن سعد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه و سلم قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه:" فوالله لئن يهدي الله بك رجلا واحدا خيرا لك من حمر النعم"[7] وقعت مسئولية الدعوة على كل فرد مسلم و عدت من واجباته [8].

و الدعاة عموما أكثر حرصا و اهتماما في أداء واجباتهم الدينية و أكثر تحملا للمتاعب في سبيل الدعوة[9] و هنا يظهر الاختلاف بين التاجر و الداعي، و هو أن التاجر يهتم بالتجارة و الدعوة معا و هذا من خلال التدعيم المادي لهذه الدعوة من بناء مساجد و مدارس و دفع النفقات، أما الداعـــي

---

[1]– أحمد شلبي، *موسوعةالتاريخ الإسلامي* ج6، ص، ص 206،207.

[2]– حسن أحمد محمود، *الإسلام و الثقافة العربية في إفريقيا*، ص59.

[3]– نشأت طائفة من التجار المسلمين المحليين تسمى " الكانمية" و أصبح لها نفوذ كبير و شهرة عظيمة لما قاموا به من تصريف منتوجات إفريقيا الوسطى ، أنظر: نفسه، ص 57.

[4]– و اللغات التجارية هي اللغات المزيجة التي تطورت على هامش الإمبراطورية الإسلامية مثل السواحلية و الهوسية و هي لغات مشحونة بالعديد من التعابير المستعارة من العربية، و تكتسب هذه الرقع اللغوية أهمية كبرى أنظر: موريس لومبارد، *الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي*، تر: عبد الرحمن حميدة،دار الفكر، دمشق، ط1، 1419ه/ 1998م، ص،ص 134،135.

[5]– أحمد شلبي،المرجع السابق ، ص- ص106- 108.

[6]– محمد فاضل علي باري، *المسلمون في غرب إفريقيا*، ص37، توماس أرلوند، *الدعوة إلى الإسلام*، ص 391.

[7]–أخرجه مسلم في كتاب العلم باب من سنة حسنة أو سيئة4831، دار إحياء الكتب العربية ،1985م.

[8]– حسن أحمد محمود، المرجع السابق،ص 54.

[9]– محمد فاضل علي باري، المرجع السابق، ص38.

فكان اهتمامه الأول الدعوة لدين الحق[1].

و على يد هؤلاء الدعاة كانت بدايات انتشار الإسلام في السودان الأوسط خاصة على يد الدعاة الإباضيين حيث لم تقتصر صلات الإباضية بالسودان الأوسط على النواحي التجارية فقط رغم أهميتها في إيصال المؤثرات الإسلامية الأولى إلى هذه البلاد ، فكثيرا ما تواجد دعاة الإباضية في بلاد كانم و هدفهم نشر الإسلام، و مثال ذلك ما جاء عن عمروس بن فتح قاضي جبل نفوسة أنه بعث عالما كبيرا من أهل الدعوة إلى زغاوة حيث استقر هناك [2].

و بعد سيادة المذهب المالكي ببلاد المغرب وانتقلت تأثيراته على يد الدعاة و الفقهاء المالكيين خاصة بعد القرن 5هــ/11م و من الشواهد التي تدل على ذلك ما جاء في رسالة [3] أصدرها ملك كانم الماي أومي عبد الجليل (478هــ/1086- 489هــ/ 1097م) موجهة إلى أبنائه و خلفائه و تذكر هذه الرسالة أن أول بلد دخله الإسلام هو بلاد كانم- برنو و كان ذلك على يد الداعية الفقيه المالكي " محمد بن ماني" هذا الأخير الذي عاصر خمس مايات من مايات برنو[4].

أما بلاد الهوسا فقصدها العلماء و الفقهاء و الدعاة حيث كان لهم الفضل في عرض الإسلام على الملوك و الرعية منهم العالم الكبير أبو عبدالله بن كريم المغيلي التلمساني(ت909هــ/1503م) الذي تصدر للدعوة في هذه المناطق، كذلك العالم الشيخ مخلوف بن علي بن صالح البلبالي (ت940هــ/1553م) الذي قام بالدعوة هو الآخر في حواضر بلاد الهوسا:كانو و كاتسينا[5]، كما كما وصلت بعثة مصرية من الدعاة و العلماء إلى هذه المناطق عملت على نشر الإسلام .

أما أهم نشاط في ميدان الدعوة هو الذي قام به الدعاة المحليين الذين اكتسبوا حظا من التعليم الديني في المدارس المغربية و مصر أو حجوا إلى مكة حيث ظفروا بنصيب كبير من الإحترم في المجتمعات التي يعيشون فيها، إضافة إلى الرعاية و التشجيع من الحكام، أنشأ هؤلاء المدارس لتعليم الأطفال و تحفيظهم القرآن الكريم[6]، و أكثر هؤلاء الدعاة من قبائل الفولاني الذين نشطوا في بلاد الهوسا في القرن 8 و 9هــ/14و 15م [7].

---

[1]- عطية مخزوم، *دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء*، ص،ص 105،106.

[2]- شوكت عارف الأتروشي، دولة كانم الإسلامية، ص 73 .

[3]- تعرف مثل هذه الرسائل في المصطلح الكانمي " محرم" تتضمن معلومات تاريخية و قوانين و مراسيم معينة، أنظر: مسعود خالدي، *وسائل انتشار الإسلام في السودان الأوسط من القرن الأول إلى الخامس هجري السابع إلى الحادي عشر الميلادي*، مذكرة ماجستير في التاريخ الإسلامي،المشرف :مسعود مزهودي،جامعة الأمير عبد القادر،2000م، ص 142.أنظر ملحق رقم3 نسخة من هذا المحرم.

[4]- مسعود خالدي، وسائل انتشار الإسلام في السودان الأوسط، ص 142.

[5]- أحمد بابا التنبكتي، *نيل الإبتهاج بتطريز الديباج*،تح:علي عمر،(د.ط)،القاهرة،مكتبة الثقافة الدينية،1964م، ص608.

[6]- حسن أحمد محمود، *الإسلام و الثقافة العربية في إفريقيا* ، ص 54، توماس ارلوند، *لدعوة إلى الإسلام*، ص،ص 391،392.

[7]- محمد فاضل علي باري، *المسلمون في غرب إفريقيا*،ص 149.

و الخلاصة التي يمكن أن نصل إليها أنه إذا كان الإسلام قد انتشر عن طريق قنوات مخــتلفة و فلا شك أن للعلماء و الدعاة و المصلحين الدور الأكبر في توسيع رقعته و تصحيح مفاهيمه[1].

3_ الهجرات

على الرغم من أهمية حركة القوافل التجارية و الدعاة في انسياب التأثيرات الإسلامية إلى بلاد السودان الأوسط فقد حدثت هجرات كان لها أثر في انتشار الإسلام، فالهجرات لهذه المناطق لم تحدث دفعة واحدة بل كانت متقطعة و على فترات زمنية مختلفة ، أما أسبابها فمنها السياسية و الاقتصادية خاصة و أن أغلب القبائل و الشعوب التي اعتنقت الإسلام ثم عملت على نشره كانت من القبائل البدوية غير مستقرة تنتقل من أوطانها انتقالا فصليا لأسباب معظمها اقتصادية[2].

و أهم الهجرات التي كان لها شأنها في نشر الإسلام في بلاد السودان الأوسط هي هجرات القبائل العربية التي دخلت مصر في أعقاب الفتح العربي ثم دخلت بلاد المغرب و بلغت تحركاتها غربا حتى ساحل البحر، و كان انهيار مملكة مقرة[3] شرقا أن فتح الباب لهذه القبائل العربية لتمضي في توغلها إلى دواخل القارة ، فقبائل جذام اجتاحوا مملكة كانم و وصل تجوالهم حتى برنو بدليل ما جاء في شكوى سلطان برنو إلى سلطان المماليك سنة 794ه/1404م من هؤلاء الأعراب[4]، لكن الهجرات الهجرات التي تركت أثر واضح هي هجرات الهلاليين و أحلافهم منذ القرن 5هـــ/11م و التي كان لها الفضل في نشر الدم العربي و اللسان العربي حيث استطاعت أن تعبر إلى الجنوب مثل قبائل بني حسان[5].

و ترتب على تحركات القبائل أن اضطرت القبائل المحلية إلى التروح جنوبا بعد اعتناقها الدين الإسلامي[6] خلال القرن 5هـــ/11م حيث وصل بعضها إلى كانم،كما هو الحال مع قبائل التبو(التيدا) التبو(التيدا) و كان مقدمهم حوالي القرن4هـــ/10م[7] حيث يعتقد أن لهم دور في تأسيس الكيان السياسي هناك[8].

---

[1]- أحمد بوعتروس، *الحركات الإصلاحية في إفريقيا جنوب الصحراء*،رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، المشرف، عبد الكريم بو صفصاف، 2001م، ص54.

[2]- حسن أحمد محمود، *الإسلام و الثقافة العربية في إفريقيا* ، ص 59.

[3]- من ممالك السودان الشرقي قامت في800ق.م.و انهارت في 350م عاصمتها دنقلا،وصلت الجيوش العربية إلى هذه المملكة عام 651م أنظر :عطية مخزوم الفيتوري،دراسات في تاريخ شرق أفريقيا و جنوب الصحراء،ص56.

[4]- القلقشندي ، *صبح الأعشى*،ج8، ص 116.

[5]- حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 60.

[6]- محمد فاضل علي باري، *المسلمون في غرب إفريقيا*،ص47.

[7]- شوكت عارف الأتروشي،دولة كانم الإسلامية،ص75ن.ency of islam,art :kaneem ;vol1,ivp,p541

[8]- و قد ظل من عادات سلاطين كانم-برنو حتى نهاية القرن 6هـــ/12م يتخذون زوجاتهم من قبائل التبو،أنظر:دائرة المعارف الإسلامية،مادة برنو،ج4،ص574.

وامتدت هجرات البربر إلى بلاد برنو حيث يرى بالمر أن شعب البرنو بربري الأصل ، حتى أن هجراتهم وصلت إلى الشرق الإفريقي في دارفور[1].

و كان لهجرات أخرى غير العرب و البربر شأن في نشر الإسلام في السودان الأوسط تحديدا بلاد الهوسا و هي هجرات قبائل الفولاني خلال القرن 8هـ/14م حيث تقول إحدى الروايات أنه تمت هجرة نفر من الفولانيين وهم " الونغاريين أو الونجارة،الونغارة" إلى كانو في عصر السلطان محمد رمفا(1463م-1499م) و كان ضمن هذه الهجرات علماء و دعاة عملوا على ترسيخ الدين الإسلامي لدى سكان المنطقة[2].

و قد لعبت الهجرات الإسلامية إلى دواخل القارة دورا كبيرا و هاما في نشر الإسلام منذ بداية الدعوة و كان لها آثار واضحة خاصة نشر اللغة العربية و التي بدورها فعلت الحركة العلمية بتلك الأصقاع،كما كان لها دور في تغيير سمات المجتمع من عادات و تقاليد[3].

4_ الفتوحات

باستثناء الحملتين الأولى بقيادة عقبة بن نافع على شمال السودان الأوسط في القرن 1هـ/7 و الثانية بقيادة المرابطين على مملكة غانة في القرن5هـ/11م يكون دور الفتوحات و الغزوات في نشر الإسلام في بلاد السودان عموما صغير بالمقارنة مع الأساليب و الوسائل الأخرى[4].

و جاءت أغلب هذه الحملات الصحراوية متزامنة من حيث التوقيت و الأهداف الحملات الساحلية فبعد فتح برقة[5] من طرف عمرو بن العاص تقدم نحو طرابلس و لكي يؤمن حملته الساحلية أرسل عقبة بن نافع الفهري إلى المناطق الصحراوية في الجنوب حيث استطاع التوغل إلى فزان و زويلة و أخضعهما ،كما استطاع "بشر بن أرطأة " إخضاع جبل نفوسة [6]،و مناطق ودان،غير أن الحملة الأكثر أهمية في هذه المرحلة و ما تلاها هي الحملة التي اقترنت باسم القائد عقبة بن نافع سنة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]- حسن أحمد محمود،*الإسلام و الثقافة العربية في إفريقيا*،ص61، Palmer,The Bornonu,Sahara and Sudan,london ;1936,p

[2]- أحمد محمد كاني،*الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا*،القاهرة،الزهراء للإعلام العربي،1987م ،ص33.

[3]- لمزيد من المعلومات حول دور الهجرات في الحركة العلمية أنظر المبحث الثالث من هذا الفصل.

[4]- عطية مخزوم الفيتوري،*دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء*،ص118.محمد فاضل علي باري،*المسلمون في غرب لإفريقيا*،ص 48.

[5]- اختلفت الروايات حول سنة افتتاحها فقيل 21هـ و قيل 23هـ،أنظر:اليعقوبي،البلدان،ص104،أبي الحسن علي ترابي محمد ابن محمدابن الأثير،*الكامل في التاريخ*،تح:أبي الفداء عبد الله القاضي،بيروت،دار الكتب العلمية،1987م ،ج3،ص25.

[6]- جبل نفوسة :نفوسة بالفتح ثم الضم و السكون، بينها و بين طرابلس ثلاثة أيام،أنظر:ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج5،ص،ص296،297.

46هـــ/666م و قد أشار ابن عبد الحكم (257هـــ/871م) إلى هذه الحملة بشيء من التفصيل حيث استطاع المسلمون تحرير مناطق ودان و جرمة[1] و كوار و استغرقت هذه الحملة حوالي خمسة أشهر[2]، و عاد عقبة من هناك لأنه لم يجد خبيرا يرشده إلى الطريق جنوبا،رغم أن المسافة التي تفصل بينه و بين كانم كانت صغيرة[3]، و تمكن أهمية حملة عقبة بن نافع الفهري في كونها وصلت إلى العمق الصحراوي و نجاحها مهد لنشر الإسلام في تلك المناطق النائية منذ وقت مبكر، لكن هناك من الدارسين من يعتبر هذه الحملة رغم نجاحها أنها مرت مرور العابرين و من المرجح أنه لم يترك فيها أثرا باقيا، و انتشار الإسلام لم يكن إلا في القرن 2هـــ/8م عندما اعتنق بربر فزان و كوار لهذا الدين[4] .

و من هذا يجمع المؤرخون على أن الحيز الأكبر من نشر الدعوة الإسلامية في هذه المناطق قد تم بالطريقة السلمية خاصة على يد التجار و الدعاة و من ثم الطرق الصوفية (القرن10 و 11هـــ/15و16م) [5] .

أما أهم الحملات فجاءت بعد ذلك بقرون و هذه المرة على يد حكام و سلاطين الممالك الإسلامية التي نشأت ببلاد السودان الأوسط ضد القبائل الوثنية المتمركزة جنوبا، و من الشواهد التي تدل على ذلك ما قام به أول ملك مسلم في كانم-برنو الذي حكم حوالي اثني عشر سنة قضاها في الجهاد و نشر الإسلام بين القبائل الوثنية المجاورة و سار الملوك الذين أعقبوه على سياسة الجهاد هذه[6]، و أهم حروبه كانت ضد قبائل البولالا الوثنية و تروي المصادر المحلية أنه تصدى لهم بأن بعث جيشا بقيادة ابن أخيه "عبدالله " فانتصروا عليهم و أجبرهم على دفع الجزية[7].

أما أعظم ملوك كانم الذي اشتهر بالجهاد هو الماي:دونمة بن سالما (618هـــ-656هـــ/1221م- 1259م) [8] و هذت لامتلاكه قوة حربية كبيرة و التي قدرتها المصادر بنحو أربعون ألف فارس[9] و يحدثنا ابن سعيد المغربي عن الحملات التي كان يقوم بها ضد القبائل الوثنية

1- جرمة : مدينة في فزان تبعد ثماني ليالي عن ودان أنظر :البكري،*المغرب في حلى المغرب*،ص13.

2- أبو عبد الله ابن عبد الحكم،فتوح مصر و المغرب،تح:عبد المنعم عامر،(د.ط)،القاهرة،1927م،ص،ص195،196، البكري، المسالك و الممالك،ص- ص12-14،ابن أبي دينار، *المؤنس في أخبار إفريقية و تونس* ،(د.ط)،1968م،ص30.

3- عبد الفتاح الغنيمي، *حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*،ص124.

4- دريك لانغ،شعوب منطقة تشاد و لغاتها،موسوعة تاريخ إفريقيا العام،ج3،ص 496.

5- محمد فاضل علي باري، *المسلمون في غرب إفريقيا*،ص 48.

6- جوان جوزيف،*الإسلام في ممالك و إمبراطوريات إفريقيا السوداء*، ص94.

7- شوكت عارف الأتروشي، دولة كانم الإسلامية،ص 85.

8- و عرف أيضا باسم "دونمة دبالمي" نسبة إلى أمه دابال أنظر : .Trimingham,A history,p117

9- شوكت عارف الأتروشي،المرجع السابق،ص 87.

القاطنة حول بحيرة كوري(تشاد) نقلا عن الرحالة و الجغرافي ابن فاطمة فيقول:" و يحدق بها –أي بحيرة تشاد– من جميع جهاتها أمم طاغية من السودان الكفرة ، الذين يأكلون الناس...و على ركن ا البحيرة المغزاة، حيث دار صناعة لكانم و كثير ما يغزوا من هناك في أسطوله بلاد الكفار"[1] ، و إلى إلى هذا الماي دونمة يرجع الفضل في القضاء على بقايا الوثنية في كانم بتدميره الموني المقدس[2].

و أعقبه عدد من السلاطين لم يقل حماسهم عنه في نشر الإسلام آخرهم بالنسبة للعصر الوسيط إدريس ألومة (977هــ–1010هــ/1570م- 1602م) ، عرف هذا الأخير باتجاهاته الإسلامية حيث بذل جهدا كبيرا ليجعل الإسلام دين الدولة، و ينشره في جميع ربوعها، و أصبحت حروبه تابعة للفكر الإسلامي من حيث نظام الأسرى و عدم الإكراه على الدين[3] .

_ العوامل المتعلقة بالقارة ذاتها

و هي العوامل التي لا علاقة لها بالإسلام كدين و تتمثل في العوامل المادية و الطبيعية حيث لعبت هي الأخرى دورا في تسهيل انتشار الإسلام و يمكن إجمالها فيمايلي:

_ الموقع: فكما بينا في الفصل الأول احتلت ممالك السودان الأوسط موقعا استراتيجيا توسط بلاد السودان عموما[4]، كما تميزت بسهولة الاتصال بالمناطق المجاورة لها، لعدم وجود عوائق و موانع طبيعية قاسية و طغيان ظاهرة الانبساط على سطحها[5].

_ أن الإسلام له صلة وثيقة بنفسية الفرد الإفريقي، ذلك أنه يوجد ترابط عظيم بين العقلية الإفريقية و التقاليد الإسلامية ، حيث يشعر الفرد الإفريقي على الدوام أن الإسلام لم يقطعه عن ماضيه أو مجتمعه[6].

_ هذا إضافة إلى عوامل خارجية تتعلق بجنوب الصحراء لعبت دورا مكملا للأدوار السابقة في انتشار الإسلام و هي ظروف القارة السياسية و الاقتصادية و الثقافية–كما سيتم بحث ذلك تبعا– .

_ مراحل انتشار الإسلام بممالك السودان الأوسط

1_ مملكة كانم-برنو

---

[1]– ابن سعيد المغربي، *كتاب الجغرافيا*،ص 94.

[2]– تروي المصادر المحلية أنه كان لملوك كانم شيء معظم و مخبأ كان يتوقف عليه انتصاراتهم في الحروب، و يعرف باسم "موني" و لا يجوز فتحه ، و لما تجرأ السلطان دونمة ديبالمي على فتحه و تدميره فأغضب هذا القبائل الوثنية من البولالا لأن فتحه يعني التخلي عن القدسية،أنظر: شوكت عارف الأتروشي،*دولة كانم الإسلامية*، ص88.

[3]– أحمد شلبي، *موسوعة التاريخ الإسلامي*،ج6، ص،ص 293،294.

[4]– عطية مخزوم الفيتري، *دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء*، ص 130.

[5]– أحمد شكري، *الإسلام و المجتمع السوداني في إمبراطورية مالي*، ص 60.

[6]– توماس أرلوند، *الدعوة للإسلام*،ص 80.

جاء دخول الإسلام إلى هذه المنطقة في اتجاهين الشرق و الشمال و قد مرت بمرحلتين أساسيتين هما:

المرحلة الأولى: تمتد من نهاية القرن1هـــ/7م حتى نهاية القرن5هـــ/11م و فيها جاءت البدايات الأولى لانتشار الإسلام[1] ، و رغم عدم وجود إشارات تاريخية أكثر صراحة ن كيفية دخوله لكنه لا ينفي بالضرورة التأثير المبكر الذي تم عن طريق العلاقات التجارية بين العرب و البربر[2] و إقليم السودان الأوسط هذا فضلا عن الدور الذي لعبه الدعاة في المنطقة.

المرحلة الثانية: تمتد من نهاية القرن5هـــ/11م و ما بعده و هو المجال الزمني الذي حددناه للدراسة و تعد هذه المرحلة حاسمة لصالح الإسلام حيث اعتنق الحكام الإسلام و أصبح الدين الرسمي لدولتهم و من ثم أخذوا يعملون على نشر و صبغ دولهم بالصبغة الإسلامية[3] و يؤكد ذلك ابن خلدون في كتابه العبر عندما ذكر أخبار ملوك السودان المجاورين للمغرب و قال أن:" أن منهم تاجرة و يليهم الكانم و هم خلق عظيم و الإسلام غالب عليهم"[4] .

2_ دويلات الهوسا

تأخر دخول الإسلام لهذه المنطقة مقارنة مع بلاد السودان عموما، و لا نستطيع أن نجزم على وجه التحديد ببداية دخوله و يعتمد المؤرخون على روايتين:

تقول الأولى أن الإسلام دخل في عصر سلطان كانو الحادي عشر و هو " ياج بن ثاميا" (1349م-1384م) و هذا نتيجة لهجرة جماعة من قبائل الفولانيين و هم "الونغاريين،أو الونجارة" [5].

أما الثانية تختلف عن سابقتها في تاريخ وصول قبائل "الونغارةأو الونجارة" حيث تقول أنهم تركوا السودان الغربي في القرن الخامس عشر متجهين إلى كانو.[6]

و اختلاف الروايتين يدل على أن ظهور الإسلام في دويلات الهوسا قد يكون سابقا للقرنين الرابع و الخامس عشر و أن نشاطهم- أي نشاط الونغارة- قد حدث بعد ظهور الإسلام بهذه

---

1 -Palmer, sudaneses MemorisLondon,1967,vol3,,p6.

[2]- يتضح من دراسة النصوص التاريخية الدور التجاري الكبير الذي لعبته الجماعات الإباضية مع بلاد كانم في هذه المرحلة، حتى أن صلات الإباضية لم تقتصر على النواحي التجارية إنما تعدها فكثير ما تواجد دعاة الإباضية هناك كان هدفهم نشر الإسلام، أنظر الوسياني، مخطوط سيرة أبي ربيع الوسياني، نقلا عن شوكت عارف الأتروشي،*دولة كانم الإسلامية*، ص،ص 72،73،و أنظر عبد العزيز سالم، *المغرب الكبير*، (د.ط)،الأسكندرية،1966،ص573.

[3]- شوكت عارف الأتروشي ، المرجع السابق،ص 75.

[4]- ابن خلدون ، العبر،ج6 ،ص 265.

[5]- محمد فاضل علي باري، *المسلمون في غرب إفريقيا*،ص 149.

[6]- أحمد محمد كاني، *الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا*،ص 33.

المنطقة، و يؤكد لنا هذا صاحب كتاب "إنفاق الميسور" حيث يقول أن الإسلام دخل عن طريق التجار المسافرين بلا تحديد لمجموعة معينة أو زمن معين[1].

إذن الراجح أن روافد المؤثرات الإسلامية قد انحدرت لدويلات الهوسا من الشمال و الشرق و الغرب، منها المؤثرات التي وفدت مع البربر من الشمال إبان هجراتهم صوب بلاد الهوسا، كما يؤكد تاريخ مدينة كانو من جهة أخرى أن فريقا من فقهاء الونغارة قد نشروا الإسلام بين سكان الهوسا في أواسط القرن الرابع عشر، و يبدوا أن بعض فقهاء المالكية قد تقاطروا من تمبكتو و جني على هذه الدويلات، إضافة إلى المؤثرات الوافدة من الشرق من سلطنة برنو في أواسط القرن 15م، و لعل امتداد سلطة سنغاي على أطراف هذه المناطق أحدث بعض الأثر، و بالرغم من ذلك بقيت الوثنية منتشرة في بعض هذه الدويلات منها "غوبر" [2].

بـ_ الخاصية العلمية للإسلام

الإسلام في حقيقته علم أو هو علم بإطلاق المعنى[3]لذا تميز الإسلام عن غيره من الديانات بأن العلم فيه هو سبب الإيمان و سبيل التصديق بالدين[4]، كما و أن معيار وجود الإنسان و رقي البشر و و نهضة المجتمعات بالمفهوم القرآني هو العلم[5].

فالإسلام بهذا المعنى لم يكن دينا فحسب بل دينا و ثقافة متآلفين غير متنافرين، و كان لارتباط الإسلام بالعلم أثر عظيم في حياة الشعوب منها الشعوب الإفريقية[6]، فالمرء لا يكاد يسلم حتى يتعلم القراءة و الكتابة [7] و يرتفع قدره اجتماعيا كلما زادت ثقافته.

---

[1]- محمد بلو،*إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور*،ص47. أحمد محمد كاني، *الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا* ،ص 33.

[2]- محمد فاضل علي باري، *المسلمون في غرب إفريقيا*،ص ،ص148،149.

[3]- و قد وردت كلمة علم في القرآن الكريم كمصطلح على الدين نفسه ، بل أن القرآن الكريم هو الجوهر الأساس و هو كتاب العلماء قبل أن يكون كتاب الذين لا يعلمون ، و في هذا يقول العليم الحكيم:" بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتو العلم، و ما يجحد بآيتنا إلا الظالمون" العنكبوت آية49 و أنظر: صلاح الدين بيوني رسلان، *العلم في منظوره الإسلامي*، دار الثقافة و النشر و التوزيع، القاهرة، 1989م،ص5.

[4] -Ahmed Aroua : L'islam et la science, entreprise national du livre, alger ;1984,2edition,p53.

[5] -Haidar Bammate, visage de l' islam,2edition, Société Français du ivre,Plaris,1958,p58.

[6]- حسن أحمد محمود، *الإسلام و الثقافة العربية في أفريقيا*،ص43.

[7]- يقول ابن خلدون في هذا الموضوع : أن العلم و التعلم طبيعي في البشر و عليه فالإسلام جاء موافقا لهذه الطبيعة، حيث حث على طلب العلم الذي هو سبب الإيمان، و أهل السودان لم يختلفو عن غيرهم من الشعوب ، فقد أبدوا الرغبة في التعلم ،أنظر : ابن خلدون ،*المقدمة*، ص412، و أنظر: حسن أحمد محمود، االمرجع السابق،ص 43.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إذن إن الفتح الإسلامي – بصرف النظر عن الإقليم المفتوح- هو فتح عقائدي علمي بالمقام الأول و لم تشهد له البشرية مثيلا[1]. و يبدوا هذا واضحا في الآيات الأولى التي نزلت من القرآن و بدأ الوحي بقوله تعالى:" اقرأباسم ربك الذي خلق،اقرأو ربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم"[2]، لقد اشتملت هذه الآيات [3] على الأمر بالقراءة في إطار التربية الدينية، حتى يصل الإنسان باستعمال وسائل التعليم إلى العلم الذي يتجدد باستمرار[4]

كما لا نستطيع في هذا المقام إغفال الأحاديث النبوية العديدة و التي بدورها تحث على العلم و التعلم، فقد دعا عليه السلام إلى فريضة العلم على كل مسلم و مسلمة وحث على طلبه من أي مكان و من أي كائن و في مختلف فروع المعرفة، و لا نستطيع أن نحصي ما ورد عنه عليه السلام في فضل العلم[5] ، و نكتفي هنا بأن نشير إلى بعض أحاديثه التي توضح موقفه من العلم:

-" من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع" رواه الترميذي .

-" من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة" رواه مسلم و الترميذي و النسائي و ابن ماجة و ابن حيان.

- " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث أشياء صدقة جارية ، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعوا له" رواه مسلم.

و في كل مكان تسرب إليه الإسلام أقبل الإفريقيون على التعلم و القراءة ، فاختيارهم لهذا الدين ستتبعه بالضرورة خطوات هي الأخذ بالعلم و الثقافة[6]، و يؤكد على هذا الأمر أحد الباحثين بقوله:" لقد انتشرت الخلاوي القرآنية و معاهد العلم انتشارا كبيرا في كانم – برنو...و تتميز مملكو برنو بكثرة حفاظها و قرائها منذ أمد بعيد" و يضيف على ذلك محمد بلو في كتابه "إنفاق الميسور" أنه لا يوجد في هذه البلاد- أي كانم برنو- عامة معتنون بالقراءة أكثر منهم[7].، و يقول باحث لآخر

---

[1]- يوسف بن أحمد حوالة، *الحياة العلمية في إفريقية*، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1421هــ/2000م، ج1 ص79.

[2]- سورة العلق،آية 1-5.

[3]- كما اشتمل القرآن على آيات أخرى تحث على طلب العلم حيث وردت كلمة علم على اختلاف مدلولها نحو 400مرة، و كلمة الكتابة و مشتقاتها نحو300مرة، و كلمة القراءة و مشتقاتها نحو50مرة، كما أن كلمات الفقه و الفكر و التدبر و التذكر و العقل قد ذكرت كثيرا و في هذا كله دلالة على ما أولاه القرآن للعلم أنظر: صلاح الدين بيومي رسلان، *العلم في منظوره الإسلامي*، ص8.

[4]- نفسه، ص8.

[5]- أنظر الأحاديث التي تحث على العلم و التعلم و التي أخرجها البخاري في صحيحه، باب العلم، ج1،ص- ص 22-45.

[6]- حسن أحمد محمود، *الإسلام و الثقافة العربية في إفريقيا*، ص43.

[7]_ أحمد محمد كاني، *الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا*، ص21.

لآخر مانصه:" اتخذت إمارة كانو و كاتسينا من بلاد الهوسا مظهرا إسلاميا واضح المعالم منذ أن أعلن ملوكها إسلامهم بعد أن كان قد انتشر منذ فترة بين العديد من السكان، و قد تمثل المظهر الإسلامي في تشجيع الحركة العلمية و الفكرية، و إيفاد الطلاب لمراكز العلم المختلفة ، كذلك انتشار المساجد التي لعبت دورا في إنماء الحركة الفكرية و الأدبية و الحضارية في هذه الإمارات"[1].

و الخلاصة التي يمكن أن نصل إليها هي أن التوسع في انتشار الإسلام في بلاد السودان الأوسط قد تم بالطرق السلمية خاصة على يد التجار و الدعاة لذا ليس غريبا القول أن هذه الأقاليم كغيرها من الأقاليم قد تجاوبت مع الإسلام كدين و ثقافة، و تجاوبت مع خصوصياته العلمية .

[1]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي، *حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا* ، ص،ص 154،155.

ثانيا: قيام الممالك الإسلامية و تشجيع ملوكها للعم و العلماء

يرى المؤرخون الغربيون أن العصر التاريخي لإفريقيا (بلاد السودان) لم يبدأ إلا مع الإسلام ، وأن بالإسلام و لغته و علومه و حضارته تقدم السود و بلغوا شأنا كبيرا في المدنية.

و تعاليم الإسلام قادت هذه الشعوب إلى تكوين دول إسلامية ، فالفكر الإسلامي في السياسة يحث على التجمع و يضع نظما دقيقة للحكم، كما قادهم لنفس الغاية صلتهم بالممالك الإسلامية في الشمال و الشرق ، و بخاصة في مواسم الحج و تعرفهم على النظم هناك، ثم إن العناصر المهاجرة أخذت معها فكرة الدولة بدل القبيلة، و هذا و سواه أدى إلى قيام هذه الممالك على طول هذا القطاع[1]و التي عملت بدورها على تدعيم الحركة العلمية من خلال تشجيع حكامها للعلم و العلماء.

أ_ قيام الممالك الإسلامية

1مملكة كانم – برنو الإسلامية

تقع كانم إلى الشرق من بحيرة تشاد بينما تقع برنو[2] إلى الغرب من هذه البحيرة، و قد سبق و أن تحدثنا عنهما قبل أن يغمرهما الإسلام، فلما انتشر الإسلام في كانم- برنو ارتبط تاريخهما ارتباطا طويلا و أصبح ضروري أن يجري الحديث عنهما في نطاق واحد و ذلك ما سلكه أكثر المؤرخون[3].

و قد انتشر الإسلام في كانم قبل أن ينتشر في برنو، ثم قامت بها دولة إسلامية أواخر القرن5هـــ/11م عندما أعلن ملكها الوثني دخوله الإسلام هو و حاشيته، و حث بعد ذلك رعاياه على اعتناق هذا الدين[4]و يدعى هذا الملك "دونمة بن أوم" أو كما تسميه المصادر "أومي" أو "هومية جيلمة" و قد حكم في الفترة الممتدة من 479هــ-491هــ/1085م-1097م [5] و كانت تلقب هذه الأسرة المالكة بالأسرة السيفية نسبة إلى سيف بن ذي يزن[6]، و كان ملك كانم-برنو يتخذ لقب

---

[1]- أحمد شلبي، *موسوعة التاريخ الإسلامي*، ج6،ص 239.

[2]- أكثر أجزاء برنو الآن تدخل ضمن اتحاد نيجيريا، أما كانم فجزء من جمهورية تشاد، أنظر : حسين مؤنس، *أطلس تاريخ الإسلام* ،ص 378.

3 -Trimingham,islam in west africa,p110

[4]- أحمد شلبي، المرجع السابق، ص 289.

[5]- ظاهر جاسم محمد، *إفريقيا ما وراء الصحراء*،المكتب المصري، القاهرة،2003م،ص51.

[6]- تؤكد المصادر المحلية النسب السيفي و من ذلك ما جاء في قوائم أنساب برنو و التي تعرف باسم جرجام، أما المصادر العربية فقد وردت أول إشارة إلى النسب السيفي في القرن 7هــ/13م عند ابن سعيد المغربي ،*كتاب الجغرافيا*،ص95.

"الماي" أو "ماو" و قد ظل هذا اللقب مستعملا مع ملوكهم بعد إسلامهم، و عاصمة هذه الدولة "جيمي"[1] و دام حكم أول ملك مسلم حوالي 12عاما [2] و كان تحوله للإسلام أثر كبير و نتائج عظيمة منها أن الإسلام كسب جبهة ثابتة في منطقة السودان الأوسط[3].

تولى من بعده الحكم ابنه الماي "دونمة بن هيوم" و الذي دام حكمه حوالي53عاما (491هـــ-545هـــ/1097م-1150م) ، انتهج فيها سياسة الجهاد و هذا لامتلاكه لقوة كبيرة من الفرسان، و قد عرف بتقواه و تمسكه بتعاليم الدين الإسلامي ، أما في عهد خلفائه : الماي بيري بن دونمة(546هـــ-573هـــ/1151م-1177م)و الماي عبد الإله بكر (573هـــ-590هـــ/1177م- 1195م) ، كان الإسلام قد رسخ و تعمق في هذه المملكة[4].

و وصلت كانم إلى فترة النضج و ذروة المجد في القرن6 و7هـــ/12و13م على عهد أعظم ملوكها : الماي دونمة بن سلما (618هـــ-656هـــ/1221م-1259م) فقد استطاع هذا الملك – المشهور بالجهاد[5]– أن يوسع حدود بلاده إلى النيل الأوسط ،كما بسط سلطانه على الطرق التجارية المختلفة التي كانت تتصل بكانم حتى وصل نفوذه شمالا إلى فزان، فضلا عن سيطرته على مساحات شاسعة جنوبي بحيرة تشاد[6].

و تحولت بذلك العاصمة "انجيمي" [7] إلى مركز ضخم للإسلام بفضل جهود ملوكها المسلمين و المتعلمين، و قد أورد الرحالة ابن فاطمة في نهاية القرن 6هـــ/12م هذه الكلمات عن هذه المدينة:" فيها سلطان كانم المشهور بالجهاد و أفعال الخير،محمد من ولد سيف بن ذي يزن..."[8] و في عصر ابن ابن فاطمة كانت الشعوب الخاضعة لكانم تعتبر شعوبا إسلامية[9] و أصبحت كانم قبلة السودان، و مصدر من مصادر لإشعاع الحضارة الإسلامية في منطقة السودان الأوسط.

1– محمد فاضل علي باري، *المسلمون في غرب إفريقيا*،ص132.

2– عرف هذا الملك بحرصه على أداء الفرائض الإسلامية :الحج و الجهاد و أشارت المصادر أنه توفي بمصر حوالي 491هـــ/1097م أثناء ذهابه إلى مكة مما يعزز صدق إسلامه ،أنظر:شوكت عارف الأتروشي، *دولة كانم الإسلامية*،ص 86.

3– أحمد شلبي، *موسوعة التاريخ الإسلامي*،ج 6،ص 290.

4– شوكت عارف الأتروشي، المرجع السابق،ص 86.

5– ابن سعيد المغربي ،*كتاب الجغرافيا*،ص 95.،أنظر أبو الفداء ،*تقويم البلدان*،ص159.

6– شوكت عارف الأتروشي،المرجع السابق،ص87 نقلا عن دافدسون،إفريقيا القديمة،ص52.

7– و قد وصفها الإدريسي بأنها مدينة صغيرة جدا، و أهلها قليل، و هم في أنفسهم أذلة للملوك المقدسين،أنظر:نزهة المشتاق،في اختراق الآفاق ،تح:اسماعيل العربي،الجزائر،ديوان المطبوعات الجامعية،ج1،ص29.

8– ابن سعيد المغربي، *كتاب الجغرافيا*،ص،ص994،95.

9– فهمي سعد، *انتشار الإسلام في إفريقيا في العصور الوسطى*،بيروت،عالم الكتب2001م،ص117.

و مما تجدر الإشارة إليه أن كانم ربطت علاقات ودية مع الدول الإسلامية المعاصرة في بلاد المغرب و مصر- كما سيتم ذكر ذلك لاحقا- و كان لهذه العلاقات أثرها في إشاعة الكثير من المؤثرات الإسلامية في هذه البلاد[1].

و في القرن 8هـ/14م وصف ابن خلدون كانم بأنهم خلق عظيم و الإسلام غالب عليهم[2]، و و في هذا القرن تراجعت جهود السلاطين في الجهاد بسبب الحروب الداخلية بين أبناء الأسرة الحاكمة من أجل السلطة و الحقوق الإقطاعية الأخرى[3]، كما شهدت أطراف الإمبراطورية صراع طويل مع القبائل و الشعوب الوثنية[4](قبائل الصو من الغرب و قبائل البولالا من الشرق)[5] مما أدى إلى إضعاف البلاد و فقدانها لكثير من مقاطعاتها[6]، وقد استطاعت قبائل البولالا أن تهزم مرارا قوات كانم خلال القرن8هـ/14م (و قد قتل أربعة من حكام كانم في صراعهم مع البولاليين) و تمكنوا من احتلال العاصمة"انجيمي" و استولوا على السلطة الفعلية[7] و من ثم فرت الأسرة الحاكمة إلى برنو[8].

أحسنت برنو استقبال الأسرة السيفية، و يعتبر الملك"علي غاجي بن دوما" (875هـ-909هـ/1476-1503م) المؤسس الحقيقي للحكم في برنو حيث تمكن من القضاء على الحروب الداخلية ، و استطاع بذلك أن يقيم دولة قوية[9]، أبدت تأثيرا كبيرا على الإمارات الهوسية و شعوب وداي و دارفور و الأراضي الواقعة إلى الجنوب من بحيرة تشاد[10].

---

[1]- من بين هذه المؤثرات :لقب أمير المؤمنين الذي اتخذه " دونمة سلما" متأثرا بسلاطين الحفصيين،و سار على نهجه خلفائه من بعده، أنظر:شوكت عارفالأتروشي،*دولة كانم الإسلامية*،ص88.

[2]- ابن خلدون، *العبر*، ج6،ص199.

[3]- ابتدأ هذا الصراع بين أبناء السلطان دونمة سلما ، ثم أحمد لكي يسود الهدوء طيلة عهد سلطانين من بعده، ليعود الصراع مرة أخرى و تندلع الحروب لقرنين من الزمن، شوكت عارف الأتروشي، الرجع السابق، ص88 نقلا عن دافدسو،افريقيا القديمة،ص52.

[4]- فهمي سعد،*انتشار الإسلام في إفريقيا في العصور الوسطى*،ص118.

[5]- عطية مخزوم الفبيتوري، *دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء*،ص 224.

[6]- ظاهر جاسم محمد، *إفريقيا ما ووراء الصحراء*،ص 54.

[7]- و قبل أن نتتبع ملوك الأسرة السيفية في برنو نشير أن قبائل البولالا قنعت بالسيادة التي حصلت عليها في العاصمة انجيمي، و لم تطمع في ألقاب الملك بل اختارت بعض أفراد الأسرة السيفية الذين لم يغادروكانم و عينتهم ملوك إسميا فقط، أنظر محمد بلو:*انفاق الميسور*،ص46،أحمد شلبي، *موسوعة التاريخ الإسلامي*، ج6،ص291.

[8]- أحمد شلبي، المرجع السابق،ص291.

[9]- وأسس عاصمة جديدة اسمها"انغزرغا" غرب بحيرة تشاد و أصبحت مع الوقت مركز علميا كبير،أنظر ا،عثملن برايماباري، *جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي* ،دار الأمين،القاهرة،200م،ص81.

[10]- دريك لانغ،ممالك تشاد و شعوبها،تاريخ إفريقيا العام،ج3،ص- ص292-267.

أما أعظم حكام هذه الأسرة هو "إدريس ألوما" الذي حكم في القرن 10هـــ/16م و قد نظم السلطات التنفيذية و التشريعية و القضائية و فصل بينها كما كانت له اتصالات مع الأقـــطار الإسلامية الأخرى مصر و تونس و مراكش و حتى تركيا[1].

و يتميز تاريخ هذه المملكة حسب عبد القادر زبادية بالاستمرارية ،حيث ظل يحكمها أمراء و ملوك اشتهروا بالعلم و قوة الشخصية و تميزوا بسياساتهم الإصلاحية[2].

2_ دويلات الهوسا الإسلامية

على الرغم من قلة المصادر المتحدثة عن تاريخ دويلات الهوسا، إلا أنه يمكن الاعتماد على ما دونه الرحالة العرب الذين زاروا المنطقة منهم الرحالة ابن بطوطة[3] و الذي تحدث عن واحدة من ولايات الهوسا و هي "غوبير" [4] كذلك ما دونه الحسن الوزان[5] عن بعض الولايات[6]، إضافة إلى الكتابات الهوسية التي لم يصل إليها الدمار و أهمها مخطوطات كانو "فانو" و التي نشرت سنة 1928م[7].

و تمثل دويلات الهوسا نظام- دولة المدينة- بحيث كونت كل مدينة قوة سياسية و اقتصادية منفصلة عن بقية المدن الأخرى على الرغم من أن العامل الجغرافي قد وحد بينها، و بدأت تلك المدن مد نفوذها السياسي على المناطق المجاورة و التي تستخدم سكانها اللغة الهوسية كلغة ثانية لهم و منها تكونت الولايات الثانوية [8].لذا تنقسم هذه الدويلات حسب الدراسات إلى مجموعتين:

- **المجموعة الأصلية**

---

[1]- عبد الحق عبد الحي ،"انتشار الإسلام في السودان الأوسط"،ندوة علماء الأفارقة،بغداد ،1985م،ص120.

[2]- عبد القادر زبادية،الحضارة العربية و التأثير الأوروبي،ص25.

[3]- هو أبو عبد الله محمد ابن ابراهيم اللواتي نسبة إلى قبيلة لواتة من البربر توفي 779هــ/1377م، طاف أرجاء العالم الإسلامي ، منها بلاد السودان و دون رحلاته في كتابه الموسوم:*تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار*.علق عليه:محمد السعيد محمد الزيني،(د.ط)،القاهرة،المكتبة التوفيقية،(د.ت).

[4]- ابن بطوطة، المصدر السابق،ص 282.

[5]- ولد في أسرة عربية من مدينة غرناطة سنة 1494م و نشأ و تربى في فاس ، وقع أسيرا في أيدي القراصنة االأوروبيين سنة 1518م، و قدم هدية للبابا ليو العاشر الذي لمح فيه مقدرة و كفاءة للمجلس البابوي، قام برحلات واسعة في إفريقيا ،عاش بقية عمره في تونس بعد أن رجع إلى دينه.

[6]- الحسن الوزان، *وصف إفريقيا*،تح:محمد حجي و آخرون،(د.ط)،بيروت،دار الغرب الإسلامي،1983م ،ص 172.

[7]- و كتبت هذه المخطوطات باللغة العربية لتغطي تاريخ ولاية كانو في القرن 15م،أنظر الفصل3، المبحث4.

[8]- عطية مخزوم الفيتوري، *دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء*،ص،ص112،113.و أنظر :بدوي محمد فهد، *الصلات بين العرب و أفريقيا*،ص،ص48،49.

و التي تعرف باسم "هوسا باكواي" أي ممالك الهوسا السبع و هي :

1:غوبير : و تكتب في المراجع جوبير،جوبر،غوبر، و قد ضبطها محمد بلو في "إنفاق الميسور" بضم الغين و كسر الباء[1]، تتميز بقسوة الطبيعة لتطرفها في الشمال على أطراف الصحراء.

2:زكزك: و تسمى أيضا زجزج،زازا،زاريا، و أول من أسس هذه الإمارة الإسلامية امرأة تسمى آمنة بنت أمير زكزك، و قد غزت المناطق المجاورة لها و دخلت في حروب مع كانو و كاتسينا، و قد عرفت بالقوة ترهب الجيران و كانت من أوسع أقاليم الهوسا[2].

3: دورا: و كانت تعتبر المملكة الرئيسية لقدم نشأتها، اعتبرتها الولايات الأخرى أكثر أماكنها قداسة.

4:كانو: من أهم الولايات في التاريخ الإسلامي ،اشتهرت بقوتها الاقتصادية.

5:كاتسينا: أو كاشنا ، كشنة كانت هي و سابقتها أكثر بلاد الهوسا حضارة و أهمية.

6:جاران جابا أو كما تسمى بيرام.

7:رانو

و تنسب أسماء هذه الممالك السبع لأسماء المؤسسين و كان لهذه الولايات توسعات في المناطق المجاورة و نشأت عن ذلك المجموعة الفرعية

- **المجموع الفرعية**

هي في الجنوب من المجموعة الأصلية و أقرب إلى نهر النيجر، و هي مجموعة غير متجانسة حيث تضم بعض الشعوب التي تتميز إلى الآن عن قبائل الهوسا الأصليين و هي:

1:زنفر: أو زنفرا أو زامفارا و هي في الغرب من بلاد الهوسا ، عدت من المجموعة غير الأصلية، لكن هناك من يعتبرها من البلاد الهوسية الأصلية. 2: كب أو كبي،3: ياور أو ياوري و قد أصبحت أكثر تطابقا و انسجاما مع الهوسا الأصليين.،4:نفي أو نوب أو نوبي،5:يرب أو ايلورين.،6:برغ،7: عزم

---

[1]- ص44

[2]- الهادي مبروك الدالي، قبائل الهوسا دراسة وثائقية،ط3،طرابلس ،ليبيا،أكاديمية الفكر الجماهيري،1998م، ص16.

و قد كان على كل مملكة من هاتين المجموعتين أمير أو سلطان يعد ندا للآخر[1].

و كما أسلفنا الذكر فإن الإسلام أتى عن طريق الممالك الإسلامية المجاورة (الشرق مملكة كانم-برنو، الغرب مملكة صنغاي) ، كما انساب عن طريق التجار و الدعاة و الهجرات[2]، و هذا في فترة متأخرة عن انتشار الإسلام في المناطق الأخرى،فحتى القرن 8هــ/14م كان هناك من السكان لا يزالون على وثنيتهم[3]،إلا أنه من المؤكد أن الإسلام قد دخل بشكل تدريجي إذ أسلمت بعض الإمارات و أقامت حكم إسلامي قبل أخرى ، و كانت كانو أولى هذه الإمارات[4].

و يعتبر القرن9هــ/15م مهما في تاريخ هذه الدويلات و مرد ذلك إلى زيادة الاتصال بالعالم الخارجي و نشر الإسلام على الطريقة الصحيحة[5] ، وهذا بفضل جهود " الونغارة" من الفولانيين حيث انتشروا في الأراضي الفسيحة لبلاد الهوسا ، و بعض المصريين، و بفضل تعاليم العالم الجليل محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي أدخل التشريعات الإسلامية إلى بلاد الهوسا و كان لهؤلاء العلماء تأثيرا واضحا في سير خط الإسلام بهذه المناطق و نشر التعليم.

و أصبحت دويلات الهوسا محط أطماع الممالك المجاورة منذ منتصف القرن10هــ/16م و هذا بسبب الرخاء الاقتصادي الذي كانت تعيشه ،حيث تمكن الأسكيا محمد ملك سنغاي من الاستيلاء على أكثر هذه الولايات منذ سنة 1513م، وسقطت الواحدة تلوى الأخرى و قتل على إثرها ملوك كل من غوبير و كاتسينا و زاريا و أسر ملك كانو ، كما عين الأمراء من أتباع مملكة سنغاي و أرهق كاهل السكان بالضرائب[6].

و طال الصراع بين دويلات الهوسا و دولة سنغاي من الغرب و حكام كانم –برنو من الشرق و بضعف هاتين الأخيرتين: الغزو المراكشي قضى على سنغاي أواخر القرن10ـــ/16م ، كما لم يستطع حكام برنو الحفاظ على عظمة مملكتهم مما هيأ لدويلات الهوسا أن تأخذ الزمام التجاري و

1– حسن عيسى عبد الظاهر، *الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا و قيام دولة الفولاني*،القاهرة،الزهراء للإعلام العربي،1991م، ص-ص162-164.

2– نعيم قداح، *إفريقيا الغربية في ظل الإسلام*،(د.ط)،دمشق،مكتبة أطلس،(د.ت)،ص 80.

3– حسن أحمد محمود،*الإسلام و الثقافة العربية في إفريقيا*،ص،ص232،233.

4– محمد فاضل علي باري، *المسلمون في غرب إفريقيا*،ص 149.

5– عطية مخزوم الفيتوري، *دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء*،ص-ص 214-217.

6- محمد فاضل علي باري، المرجع السابق،ص149.

الثقافي و السياسي في بلاد السودان الأوسط و الغربي، و كان بروزها تحت قيادة دولة كاتسينا التي قفزت بصفة خاصة إلى مكانة الصدارة و الشهرة في عالم التجارة و الحضارة[1].

و على هذا فإن قيام الدويلات الهوسية المسلمة لم يكن في وقت واحد ، فدولة غوبير في الشمال و رغم الجهود التي بذلت لنشر الإسلام فيها بقيت الوثنية منتشرة إلى ما بعد العصور الوسطى الإسلامية.

ب- تشجيع الملوك للعلم

إن ظهور الحركة العلمية و نموها في الفترة الزمنية موضوع الدراسة إنما تدين في كثير من الجوانب إلى تلك الممالك الإسلامية التي ظهرت هناك، فلقد أوجد قيامها و من ثم استقرارها تيارا ثقافيا دفع العلماء إلى نشر الإسلام أولا و نشر العلم و المعرفة ثانيا، كما أن هذه الدول الإسلامية أسهمت بما أولته للعلوم و المعارف من أهمية و ما قدمته للعلماء من رعاية و ما وهبته لهم من أعطيات في تقدم الحركة العلمية ، و ما من ريب أن دوافع هذه الدول إنما يعود في رغبة ملوكها إلى صبغ دولهم الصبغة الإسلامية، و إضفاء جو من الهيبة عليها هذا من جهة، و إيجاد حالة من الاستعلاء و التفوق على الدول المجاورة من جهة ثانية.

و من مظاهر اهتمام سلاطين و ملوك السودان الأوسط بالعلم هو الإشراف على بناء المساجد و الكتاتيب و الخلاوي القرآنية ، و كان لسلطان كانم – برنو الماي " عبد الجليل سلمة" (591هـ-618هـ/1194م-1221م) الفضل في بناء أعظم مسجد بكانم ، كما يدل وجود أربعة مساجد لصلاة الجمعة في العاصمة"غسرغمو"[2] على الاهتمام الكبير الذي أولاه السلاطين لإحياء الشعائر الإسلامية و جعل مدنهم و عواصمهم مراكز علمية يقصدها الطلاب و العلماء [3] .

و اهتمام الحكام بدور العلم قد تعداه إلى خارج المملكة في زمن السلطان"دونمة ديبالمي"(618هـ-656هـ/1221م-1259م)[4] حيث بنيت مدرسة عريقة تعرف بمدرسة "ابن "ابن الرشيق" في مصر من مهامها الإشراف على تعليم الطلاب الوافدين من كانم-برنو ، و يذكر

1- الحسن الوزان، *وصف إفريقيا*، ج2،ص 182.أنظر: عطية مخزوم الفيتوري،*دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء*،ص 218.

2- عثمان برايا باري، *جذور الحضارة الإسلامية*،ص81.

3- محمد أحمد كاني، *الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا*، ص17.

4- شوكت عارف الأتروشي، *دولة كانم الإسلامية*،ص104.، ency of islam,art kanem,vol iv,p541.

المقريزي أثناء سرده للمعلومات عن هذه المدرسة و التي أسست سنة640هـــ/ القرن13م فيقول:" مدرسة ابن الرشيق هذه المدرسة المالكية و هي بخط حمام الريش من مدينة مصر، و كان لكانم من طوائف التكرور[1] لما وصلوا إلى مصر سنة و بضع و أربعين و ستمائة قاصدين الحج دفعوا للقاضي علم الدين ابن الرشيق مالا بناها به، و درس بها و كانوا يبعثون إليها غالب السنين المال"[2]، كما خصص لطلبة كانم –برنو رواق[3] بجامع الأزهر يسمى رواق البرنو و قد قام ببنائه و الاعتناء بشؤونه حكام كانم – برنو و أسس هذا الرواق سنة 1240م .

و في عهد السلطان "علي جاجي" 875هـــ-909هـــ/1472م-1503م) ازدادت التأثيرات الإسلامية و ازداد معها عدد الطلبة فانتشرت المدارس في المملكة من بينها مدرسة الشيخ أحمد الفاطمي، و مدرسة كالومباردو[4]

و قام مايات الكانم – برنو بتقريب العلماء و الفقهاء منهم و الإغداق عليهم و تشجيع الطلاب على الدراسة و العلم و بذلوا لذلك الأعطيات و المنح و الهبات ، و مما يدل على ذلك المحارم و المراسيم التي أصدروها [5] و التي تمنح لكبار العلماء و الفقهاء امتيازات خاصة كإعفائهم من الضرائب ، و أول محرم صدر كان سنة476هـــ/1086م من طرف أول ملك مسلم" أومي عبد الجليل" وكان بشأن العلم الفقيه "محمد بن ماني" ، و مثال آخر عن المحارم صدر بشأن أسرة "مسبغرمة" التي أشتهر أفرادها بالعلم حيث منح جدهم العالم" عمر بن عثمان بن إبراهيم " امتيازات ، و في سنة 561هـــ/1194م صدر محرم زمن الماي" عبد الله بكر بن بيري" يمنح من خلاله للعالم الفقيه" عبد الإله بكر " امتيازات مكافأة له على إشرافه على تعليم سلما ابن الماي [6].

---

[1]– التكرور : إسم أطلقه المؤرخون و الرحالة العرب على أهل السودان عموما ، و هو في الواقع كما يقول العمري لم يكن سوى إقليما من أقاليمها المشهورة ، ثم ما لبثت التسمية أن أطلقت على جميع و أغلب سكان بلاد الودان الغربي و الأوسط ، أنظرك البكري، *المسالك و الممالك*،ص 60، الأنصاري، نخبة الدهر، ص268.، ضيف الله، الطبقات في خصوص الأولياء و الصالحين، جامعة الخرطوم، 1974م،ص81، دائرة المعارف، مادة تكرور، ج5،ص،ص427،428.

[2]– أنظر: *المواعظ و الاعتبار*، ج2،ص365.

[3]– الرواق عبارة عن نزل معد لسكن الطلبة و ينقسم إلى غرف و مرافق، و يلحق بالأروقة الحارات ، أنظر: مصطفى بيرم، تاريخ جامع الأزهر،(د.ط)، القاهرة،1902م،ص،ص16،17، شوقي عطا الله الجمل،*الأزهر و دوره السياسي و الحضاري في إفريقيا*،(د.ط)،القاهرة،الهيئة المصرية للكتاب،1988م،ص15.، شوكت عارف الأتروشي، *دولة كانم الإسلامية*،ص104.

[4]– مدرسة كالومباردو : تقع على بعد خمسين ميلا من العاصمة البرنوية، أصبحت فيما بعد مركز لنشر الطريقة القاديرية و التي كان لها دور كبير في نشر الإسلام ،أنظر: عطية مخزوم الفيتوري، *دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء*،ص،ص226،227.

[5]– و هي وصايا الحكام و بعض القوانين التي كانوا يصدروها لخلفائهم و وزرائهم للعمل بها و تطبيق أوامرها، أنظر: مسعود خالدي، الجاليات العربية و البربرية في السودان الغربي و الأوسط ،ص362.

[6] –palmer,mémoire soudanaise,p-p16-19.

كما منح السلاطين للعلماء مكانة مرموقة في المجتمع من خلال توليهم أكبر مناصب الحكومة مثل القضاء و الوزارة ، و بلغ هذا الإجلال للعلماء أنه لا يتعرض لهم أحد أثناء الحروب و الفتن بين هذه الدول حتى في المدن و القرى الوثنية [1].

أما دويلات الهوسا التي أنشأت نظما أساسها التعاليم الإسلامية و تطبيق الشريعة في كل أمر من الأمور[2] أعطت عناية خاصة للعلم فأكرموا وفادة العلماء و سهلوا لهم مهامهم بطرق متعددة[3]، و أول مظهر لتشجيع الحركة العلمية هو انتشار المساجد الكبيرة التي كانت تعقد بها حلقات الدرس و الوعظ منها مسجد كانو الكبير حيث بذل حكام كانو جهودا كبيرة لجعله يماثل مسجد سانكري في تمبكتو و المسجد الكبير في جني و كانو[4] ، و اشتهر أيضا مسجد كاتسينا الكبير و الذي جلس للتدريس فيه كبار العلماء على رأسهم العالم الجليل "جلال الدين السيوطي" ، كما أقام حكام زاريا من جهتهم مساجد و مدارس لتحفيظ القرآن و هذا ما ينطبق على دولة رانو شأنها شأن باقي الدويلات التي وصلها دين الحق[5].

و شهدت بلاد الهوسا في الربع الأخير من القرن العاشر هجري الخامس عشر ميلادي تحولات و حركة إصلاحية عظيمة قادها السلاطين: كسلطان كانو " محمد رمفا" و سلطان كاتسينا" محمد كورا" و سلطان زاريا "محمد رابو" و الذين اهتموا بإحياء الشعائر الدينية و توسيع قاعدة التعليم و تشجيع العلماء [6]، ويذكر لنا السعدي في هذا الصدد أن هناك علماء من تمبكتو و جني وصلوا دولة كانو و قامو بدور كبير و مؤثر في شرح الأمور و المسائل الدينية و هذا تحت رعاية حاكمها و أبرز هؤلات العالم الجليل:أحمد بابا التمبكتي و هذا عند عودته من الأراضي المقدسة[7].

كذلك شاركهم في إثراء الحركة العلمية الإسلامية علماء قدموا من برنو و علماء قدموا من توات و أشهرهم:محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني التواتي من الفترة(1493م-1528م) الذي زار أغذز و كاتسينا و كانو، و تذكر المصادر أنه تقلد منصب قاضي القضاة في كانو ثم عينه السلطان " محمد رمفا" مستشارا سياسيا و شرعيا يرجع إليه في المسائل الفقهية المعقدة، و بذلك يكون لهذا

[1]– أحمد شلبي،*موسوعة التاريخ الإسلامي*، ج6،ص 165.

[2]– عبد الفتاح الغنيمي، *حركة المد الإسلامي في غرب إفريقيا*،ص 151.

[3]– محمد أحمد كاني، *الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا*،ص34.

[4]– أنظر المبحث الأخير من هذا الفصل و الذي يتحدث عن دور هذه المراكز .

[5]– عبد الفتاح الغنيمي، المرجع السابق،ص ،ص 155،162.

[6]– محمد أحمد كاني،المرجع السابق،ص35.

[7]– عبد الرحمن بن عبد الله السعدي، *تاريخ السودان*،وقف على طبع هوداس ، باريس،مكتبة أمريكا و المشرق ،1908م ،ص 61.

العالم دور بارز في مساعدة هذا السلطان[1]، كما تؤكد المصادر أنه قد كانت هناك صلات وثيقة بين شيخ الإسلام جلال الدين السيوطي (عبد الرحمن بن بكر) و غيره من العلماء مع حكام بلاد الهوسا – حاكم كاتسينا- حيث رحل هذا العالم إلى هذه المناطق بدعوى من حاكمها و أقام فترة من الزمن يدرس فيها ، و كان صديقا شخصيا للساركن"إبراهيم ماجي بن أيرة كومابوة" ، و الواقع أن هذا العالم وغيره كانوا يتمتعون بعناية الحكام و تشجيعاتهم و احتلوا مكانة رفيعة في بلاد الهوسا عامة[2].

و من هذا نخلص إلى أن اعتناق حكام و سلاطين السودان الأوسط للإسلام جعلهم يقيمون ممالك إسلامية دفعت الحركة العلمية إلى النمو و التقدم و هذا من خلال تشجيعهم للعلماء و الإغداق عليهم و إيفاد الطلبة إلى المراكز الثقافية المختلفة ، و أشرفوا على إنشاء المساجد و المدارس و أوقفوا الأوقاف على الطلبة، و إليهم يرجع الفضل في بسط لواء الحضارة الإسلامية في المنطقة.

[1]- عبد القادر زبادية، "التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي"، *مجلة الأصالة*، عدد26(1975م)، الجزائر، وزارة التعليم الأصلي، ص،ص213،214.

[2]- حسن أحمد محمود، *الإسلام و الثقافة العربية في أفريقيا*،ص239.

ثالثا: الهجرات المختلفة و أثرها الثقافي

نتيجة للموقع الهام الذي يحتله السودان الأوسط و ظاهرة الانبساط الطاغية على سطحه و عدم وجود حواجز و موانع طبيعية تعوق حركة التنقل[1] و التواصل ، إضافة إلى الرخاء الاقتصادي الذي عاشته المنطقة فقد وصلتها هجرات متعددة من قبائل عربية و بربرية و قبائل سودانية محلية، كما شهدت المنطقة نوع آخر من الهجرات و هي هجرات لعلماء قصدوا المنطقة و استقروا بها لفترة،و هذا لنشر الإسلام و التعليم وكانت إما فردية أو جماعية، و كان لهذه الهجرات آثار حيث غيرت مع الوقت ملامح و سمات المنطقة من الناحية الحضارية.

أ_ هجرات القبائل

1: القبائل العربية

جاءت الموجات الأولى لهجرات القبائل العربية إلى إفريقيا منذ عهد قديم، و لما جاء الإسلام و هزمت القوى الإسلامية جيوش الرومان في مصر و شمال إفريقيا هيأ لموجة ثانية من موجات الهجرة العربية و التي وصلت هذه المرة إلى دواخل القارة[2]، و كانت هذه القبائل ترحل للاستقرار في القارة الواسعة و تعيش هناك ترعى الماشية أو تخدم التجارة أول تبلغ الدعوة الجديدة و تعيش في كنفها، بالإضافة إلى العامل السياسي الذي دفع الفرق و الأحزاب و القبائل إلى الهجرة فرارا من الاضطهاد الواقعي أو المحتمل و الناجم عادة عن سقوط دولة و قيام أخرى[3] ، و لم تشكل الصحراء عائقا طبيعيا لتنقل القبائل العربية إلى بلاد السودان الأوسط و هذا لتعودهم على بيئتها الحارة .

و تؤكد المصادر أن المنطقة شهدت هجرات لقبائل عربية قبل القرن5هـ/11م حيث سكن الكثير منهم المدن السودانية و تعاملوا مع أهلها بواسطة التجارة و المصاهرة[4] و يذكر البكري أنه وجدت جالية تنتمي لبني أمية في السودان الأوسط " و يزعمون أن هناك قوما من بني أمية صاروا إليها-أي كانم- عند محنتهم مع العباسيين و هم على زي العرب و أحوالها" ، و أكد الإدريسي ذلك[5] .

[1]- أحمد شكري، *الإسلام و المجتمع السوداني في إمبراطورية مالي*، ص60.

[2]- أحمد شلبي،*موسوعة التاريخ الإسلامي*،ج6، ص181.

[3]- ظاهر محمد جاسم، *تاريخ إفريقيا ما وراء الصحراء*،ص70.

[4]- حسن أحمد محمود، *الإسلام و الثقافة العربية في أفريقيا*، ص201.

[5]- البكري، *المالك و المسالك*، ص11، و أنظر : الإدريسي، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، ص46.

أما قوائم ملوك كانم – برنو ذكرت الملوك المسلمين و أنهم يرجعون إلى عمر بن عبد العزيز،كما يدعي الفونج الذين سكنوا السودان الأوسط أنهم من بقايا الأمويين الذين دخلوا بلاد الحبشة للاختفاء من بطش العباسيين ، و قد يكونوا من الأمويين الذين تدفقوا إلى مصر و منها إلى السودان النيلي و منها إلى بلاد كانم و يحتمل هذا في القرن 2هـــ/8م[1] ، و وجود الأمويين بكانم وارد لكن اختلطت مع الروايات و الأساطير مما جعلها موطن شك فالبكري يقول يزعمون أي أنهم يتشبهون بالعرب و ليسوا عرب حقيقة[2] ، أما ياقوت الحموي بدوره يؤكد على وجود الأمويين لكن نصه مأخوذ من نص البكري[3].

أما قوائم ملوك كانم فيشك في دقتها لأنها كتبت بعد زمن طويل من تاريخ هجرة الأمويين ، و القول أنهم دخلوا منتصف القرن2هـــ/8م غير صحيح ويرجح دخولهم فعلا في القرن 5هـــ/11م عند تحول الأسرة الحاكمة للإسلام[4] .

كما شاعت نزعة الانتماء إلى العروبة بعد انتشار الإسلام و رسوخه في بلاد السودان و من ذلك النسب العربي الذي حملته الأسرة الحاكمة و ادعائها أنها تنحدر من نسل القائد العربي سيف بن ذي يزن و تذكر ذلك المصادر المحلية – قوائم أنساب كانم برنو- و غير محلية[5] حيث اعتبروا جدهم: سيف بن ذي يزن و أسرتهم حكمت أولا في كوار 236هـــ/850م، و من السجلات أيضا التي ذكرت هذا النسب رسالة السلطان عثمان بن إدريس"(795هـــ-828هـــ/1392م-1394م) إلى سلطان مصر و مما جاء فيها "و عن بنو سيف بن ذي يزن والد قبيلتنا العربي القريشي، و كذا ضبطناه عن شيوخنا" [6] ، و تعرض ابن سعيد إلى هذا النسب معتمدا على رواية لابن فاطمة(ق4هـــ/10م) حيث يقول:" و سلطان كانم...محمد بن جيل من ولد بن سيف بن ذي يزن،

---

[1]- أحمد شلبي، *موسوعة التاريخ الإسلامي*، ج6،ص305.

[2]- ربما يقصد البكري هنا أهل كوار لأنهم أكثر اتصالا بالعرب و أكثر تشبها بهم، كما أنهم يتفاخرون بالانتماء غليهم خاصة بعد دخولهم الإسلام، مسعود خالدي، *الجاليات العربية و البربرية في إفريقيا جنوب الصحراء*، ص323.

[3]- ياقوت الحموي، *معجم البلدان*،مادة كانم، ج4، ص420.

[4]- شوكت عارف الأتروشي، *دولة كانم الإسلامية*، ص89.، و أنظر : مسعود خالدي، الجاليات العربية و البربرية ، ص322.

[5]- شوكت عارف الأتروشي، المرجع السابق،ص89.

[6]- القلقشندي، *صبح الأعشى*،ج8، ص117.

عاصمة أجداده وثنيين"[1] ، و أشار المقريزي إلى البيت السيفي و لكن بصفة الشك فقال:"و أول ملوكهم من دخل الإسلام هو محمد بن جيل يزعم أنه من أنساب سيف بن ذي يزن"[2] ، و يعقب

القلقشندي على الإدعاء السيفي اليمني بقوله: إلا أنه يحقق النسب ، فذكر أنه من قريش و هو غلط ، فإن سيف بن ذي يزن من أعقاب تتابع اليمن من حمير"[3] ، و اعتبر محمد بلو أن أسرة سيف بن ذي يزن من أسرة بربرية و عرفوا فيما بعد بالطوارق. و منه فإن هجرة هذا القائد إلى السودان الأوسط و تأسيسه للمملكة هناك يكتنفه الغموض و كثرة الأخطاء التاريخية.

و ازدادت الهجرات العربية بقيام الممالك الإسلامية ابتداءا من القرن الخامس هجري الحادي عشر ميلادي حيث كانت للقبائل المهاجرة قوة سياسية و اجتماعية و اقتصادية[4] ، و أطلق على هذه القبائل المهاجرة اسم" الشوا"[5] بصرف النظر عن انتماءاتهم القبلية[6] ، و ينقسم الشوا إلى مجموعات مجموعات قبلية منها: الجوامعة، جذام، أولاد حامد، الحساونة، جهينة ، السلامات.

ــ **جهينة:** لها بطون كثيرة و هي فرع من قضاعة[7] سلكت في هجرتها إلى السودان الأوسط درب الأربعين و هو من الطرق المعروفة منذ القدم ، أهم مجموعاتهم : السلامات ، أولاد راشد، المحاميد، الدكاكير، ، و قد ساعدت قبائل السلامات لكثرة عددهم ملوك برنو في حروبهم ضد القبائل الوثنية "الصو" .

---

[1]– ابن سعيد المغربي، *كتاب الجغرافيا*، ص95.

[2]– تقي الدين ابن العباس المقريزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك السودان،(د.ط)،مصر،مطبعة التأليف،(د.ت)، ص37.

[3]– القلقشندي، *صبح الاعشى*، ج5، 279.

[4]– عبد القادر زبادية، *دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر و مؤلفات العرب المسلمين* ،الجزائر،ديوان المطبوعات الجامعية،2010م ،ص23.

[5]– كلمة شوا أطلقته قبائل الكانوري المحلية على العرب أما البولالا فسموا العرب سوجري ، كما أطلق عليهن اسم أورا و دامكا و سولنج و تعني عند الفولاني عربي بدوي ، إضافة إلى تفسيرات عديدة أخذتها هذه الكلمة منها: جميل في لغة البرنو ، و منهم من أرجع أصلها لكلمة شاوية و هم بربر يسكنون المغرب الأوسط ،كما عرفت هذه الكلمة علة أنها إقليم في هضبة الحبشة و قد أسست فيه أول دولة إسلامية في السودان الشرقي، و هذا عام 896م من طرف نفر من بني مخزوم، استمرت هذه الدولة أربعة قرون ،أنظر: حسين مؤنس،*الإسلام الفاتح*،ص14. و أنظر: عطية مخزوم الفيتوري، *درسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء*، ص161.و أنظر: Trimingham , historu of islam,p 17.

[6]– و مازال الشوا إلى اليوم يتواجدون في شمال نيجيريا و و الكمرون و تشاد و السودان الحالي، و يتفاوت لون بشرتهم تبعا لدرجة إختلاطهم بالسكان الإصليين،أنظر: الطيب عبد الرحيم الفلاتي،، الفلاتة في أفريقيا و مساهمتهم الإسلامية و التنموية في السودان،الكويت،دار الكتاب الحديث،1994م. ص 211.

[7]– نفسه،ص16.

_**جذام**[1]: استطاعت الحفاظ على اسمها في المنطقة انتشرت من دارفور إلى برنو بجوار قبيلة جهينة[2]، اكتسبت وجود سياسي قوي وصل إلى تهديد كيان مملكة كانم.

_ **بنو هلال**: و هذه القبائل لم تستقر كل فروعها و بطونها في بلاد المغرب الإسلامي ، فأقلية منهم حسب ما أوردته المصادر قصدت بلاد السودان الأوسط منهم: التنجور، فبعد أن اتخذوا تونس مقر لهم [3] خرجت جماعات منهم في القرن 9هـ/15م إلى كانم وداي و دارفور و فرضوا سيطرتهم على السكان الأصليين[4].

2_ القبائل البربرية

قبائل البربر و منذ قرون من الفتح الإسلامي كانوا على اتصال بأهل السودان متعاونين حينا و متنافرين حينا آخر، و استمر ذلك حتى بعد انتشار الإسلام و كان لهم الفضل في تأسيس عدة مدن و تنشيط التجارة بين الشمال و جنوب الصحراء[5]، و جاءت هجراتهم إلى السودان الأوسط كنتيجة لتطور الأحداث السياسية في بلاد المغرب الإسلامي ، حيث اتجهت مجموعات كثيرة إلى منطقة الصحراء ثم توغلت نحو الجنوب.[6]

_ **التبو(التيدا)**: بيئتهم الأصلية جبال التيبستي الواقعة جنوب طرابلس (الآن واقعة في الجزء الشمالي من دولة تشاد) و هم أقدم سكان الإقليم لهم صلة بالجرمانتيين[7] ، وصفهم الوزان بأنهم يعيشون على قطع الطرق التجارية و لا يلتزمون بالعهود و المواثيق[8] لكن بعد اعتناقهم الإسلام هذب هذب أخلاقهم و أصبح موردهم ما يزرعون من نخيل و حبوب في الوديان الرطبة و يعمل بعضهم على قيادة القوافل و تأجير الإبل.

---

[1]- هم بطن من بطون قبائل كهلان من القحطانية، و تعني الكلمة المرض المعروف جذام، أنظر : عبد الفتاح الغنيمي، *حركة المد الإسلامي في غرب أفريقيا*، ص24.

[2]-القلقشندي، *صبح الأعشى*،ج8، ص 8.

[3]- أحمد شلبي، *موسوعة التاريخ الإسلامي*، ج6،ص307.

[4]- محمد بن عمر التونسي، *تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب و السودان*، تح :ظليل محمد عساكر و آخرون، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، ، 1965م،ص- ص 145-183.

[5]- عمر عز الدين عيسى، "انتشار الإسلام في غرب"، ندوة علماء الأفارقة، ص53.

[6]- شوكت عارف الأتروشي، *دولة كانم الإسلامية*، ص75.

[7]- الذين ذكروا في تاريخ هيرودوت، أنظر : تاريخ هيرودوت، تر، ص227..hirodot,p40

[8]- الحسن الوزان،*وصف إفريقيا*،ج2، ص176.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هاجرت هذه القبائل في القرن 3هـــ/9م من التيبستي و انتشرت أكثر في كانم برنو في القرن 5هـــ/11م و دخل أفرادها في خدمة حكومة الزغاوة و ينسب لهم الفضل في نشر الإسلام بهذه المناطق [1]، استقروا في مناطق مجاورة لقبائل الصو الوثنية ، و قد شكلت هذه القبائل نسبة من الجيش خلال القرن10هـــ/16م.

ــ **الطوارق** [2] : من القبائل الصنهاجية[3] هاجروا في دفعات متتالية إلى المنطقة و سيطروا على القبائل القبائل المحلية ، و كانت لهم تدخلات سياسية بكانم[4] و حسب دريك لانغ كانت لهم هجرات أخرى نحو كانم و هذا بعد القرن الخامس هجري الحادي عشر ميلادي بسبب زحف قبائل بني هلال التي دفعت بهم نحو الجنوب [5] ، و يذكر ابن خلدون أن أصلهم من قبيلة "تاركا" أو "تريكة" و جمعها "توارك" أو طوارق" و كانت تنزل بنواحي الهجار[6].

اختلط الطوارق بدرجات متفاوتة مع الزنوج، و سيطروا على مناطق صحراوية واسعة من غدامس و غات و ممالك الهوسا و كانوا يقومون بحفر الآبار و فرض المكوس و الضرائب و تأمين الطرق التجارية[7].

ــ **الزغاوة:**هم من البربر هاجروا إلى بلاد كانم –برنو منذ القرن3هـــ/9م ثم سيطروا على سكان المنطقة و كان لهم الدور الرئيسي في تأسيس هذه المملكة [8]، لكن نفوذهم تقلص بعد تحول المملكة إلى الإسلام في القرن5هـــ/11م، و يذكر ياقوت الحموي أن مملكة زغاوة مملكة عظيمة من ممالك السودان [9].

أما الإدريسي أورد اسم الزغاوة واصفا حالتهم الاقتصادية و الاجتماعية فيقول" مدينة الزغاوة مدينة متجمعة الكور كثيرة البشر و حولها خلق عظيم من الزغاويين ينسلون بإبلهم و لهم تجارة... و

[1]- ابن خلدون، *العبر*، ج6،ص218.

[2]- يطلق عليهم عدة أسماء منها : الكندن،الإموشك، الملثمون،البرادو،أنظر: الوزان،*وصف أفريقيا*، ج2،ص155

[3]- ابن خلدون، *العبر*، ج6، ص214.، البكري، *المسالك و الممالك*، ص163، السعدي، *تاريخ السودان*، ص45.

[4]- حين أحمد محمود، *الإسلام و الثقافة العربية في أفريقيا*، ص199.

[5]- تاريخ إفريقيا العام ، ج 4، ص289.

[6]- ابن خلدون، *لعبر*، ج6، ص110.

[7]- بوفيل، *تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير*، تر : الهادي أبو لقمة و محمد عزيز،ط2،منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، 1988م، ص99.

[8]- محمد بن عمر التونسي،*تشحيذ الأذهان*، ص356.

[9]- و أول من ذكر مملكتهم اليعقوبي و ذكر أنهم هاجروا من الشرق(إدعاء النسب العربي) و دخلوا بلاد المغرب و من ثم هاجروا إلى بلاد السودان، أنظر: اليعقوبي، *تاريخ اليعقوبي*، ج1ص155، و أنظر: ياقوت الحموي،*معجم البلدان*، ج3،ص160.

هم أكثر السودان حربا"[1] .، انتهى سلطانهم على كانم أواخر القرن 5هـــ/11م و انحصر وجودهم بعد هذا القرن في شرق البلاد و كانت عاصمتهم سامينا[2]

3_ القبائل السودانية

من القبائل المحلية التي هاجرت إلى بلاد السودان الأوسط – تحديدا بلاد الهوسا– هم قبائل : الفولاني و التي كان لها أثر كبير في نشر الإسلام و الثقافة الإسلامية في هذه المناطق .

قبائل الفولاني[3]: من الأسماء التي تدل على المسمى نفسه: الفولاتي ، الفولا، الفول، الفولب و الفلاتة[4] و يطلق الشعب الفولاني على نفسه اسم: بولو لمفرد و فولبي للجمع و يعرفون عند المؤرخين المؤرخين العرب بالفولانيين أو الفلاتيين و الفلاتة[5].

و تختلف الآراء حول أصلهم ، فيرى بعضهم أنهم ينحدرون من الحاميين الشماليين الذين قدموا إلى إفريقيا و لاسيما القبائل الليبية القديمة ، و يرى البعض الآخر أنهم من الجنس السامي وصلوا إلى إفريقيا عن طريق الهجرات من بلاد اليمن عن طريق باب المندب[6] ، كما يرى بعض المؤرخين الغربيين أنهم من قبائل إسرائيل (اليهود) المفقودة[7] ، أما من وجهة نظر الأنثروبولوجية فتؤكد الأصل المحلي للفولانيين[8] و الموطن الأصلي لهم هو ماسينا في مالي و فوتاتورو في شمال السنغال.

و على أي حال فإن الفولانيين اختلطوا مع بقية السكان في بلاد السودان مما أكسبهم صفات و ملامح جديدة، أما أصلهم فيبقى مبني على أقاويل أسطورية كثيرة التي اتخذت وجوها عدة[9].

---

[1]– الإدريسي، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، ص46.

[2]– محمد بن عمر التونسي، المصدر السابق، ص،ص 137،138.

[3]– ينتشرون حاليا في السنغال و غينيا و نيجيريا، و الكامرون و موريتانيا

[4]– الطيب عبد الرحمن الفلاتي، الفلاتة، ص–ص28–32.

[5]– عثمان برايما، *جذور الحضارة الإسلامية*، ص327.

[6]– مسعود خالدي، *الجاليات العربية و البربرية في إفريقيا جنوب الصحراء*، ص 43.

[7]– روسيل ، ورن هاو، *تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا*، ص 94.

[8]– عثر على نقوش في جدران كهوف الصحراء الكبرى يرجع تاريخها إلى العصر الحديدي أي حوالي الألفية الثالثة قبل الميلاد و تحمل تلك النقوش صور لسكان الذين كانوا يعيشون على رعي الأبقار و ملامح هؤلاء السكان الجسمانية جد شبيهة بملامح الشعوب الفولانية ، فبات من المرجح أن يكون الأصل العرقي للشعوب الفولانية راجع إلى أولئك القوم،أنظر:عثمان برايما باري، *جذور الحضارة الإسلامية*،ص،ص322،323.

[9]– نفسه، ص 317.

و يعد الفولانيين من الرعاة الرحل الذين يقومون بتربية الماشية حيث امتلكوا قطعان كبيرة من الأبقار و الأغنام و هم ينتقلون من مكان للآخر طلبا للماء و الكلأ فسكنت مجموعة منهم بلاد فوتاتورو و استقرت مجموعة ثانية في الفوتاجالو و زحفت مجموعة ثالثة ناحية الشرق و استقرت في بلاد الهوسا[1] ، و قد دخلت هذه القبائل الإسلام منذ عهد مبكر ، و عرفت بأنها قبائل مسالمة نشطة ذات مزاج معتدل و أخلاق طيبة[2].

ساهمت قبائل الفولانيين في تأسيس دولة كانم – برنو الإسلامية و ذلك منذ القرن 5هـ/11م بقيادة الفقيه " محمد بن ماني" و إخوانه من علماء الفلاتة و يظهر ذلك من خلال وصية الملك "أومي جيملي" التي تقول " يعفى المعلم محمد ماني و أخوانه من الفلاتة –حددتهم الوثيقة- من الضرائب و ذلك لما قاموا به من عمل جليل في توجيه الملوك المسلمين في كانم -برنو[3] و ساهموا أيضا في تأسيس تأسيس دولة مالي الإسلامية و ذلك في القرن 7هـ/13م فقد أورد البكري أن دولة مالي قد أسستها مجموعات من قبائل الماندي و الجولا و الفلاتة[4]، كما كانت لهم أيضا مساهمة في تأسيس دولة سنغاي و ذلك في القرن8هـ/14م و ذكر بالمر أن دولة سنغاي سكنها الفلاتة و التكرور[5] .

أما أبرز دور لهذه الجماعات هو نشر الإسلام على الطريقة الصحيحة في بلاد الهوسا و تم ذلك عن طريق هجرات جماعية متتالية لفروع المنادي إلى هذه المناطق و هم: الونجارة أو الونغارة ، و تقول إحدى الروايات حول هجرتهم أنهم تركوا بلادهم(مالي) و اتجهوا شرقا[6] ، و دخلوا دولة كانو دولة كانو في القرن 8هـ/14م ، أما الرواية الأخرى فترجح دخولهم في القرن9هـ/15م ، و كانت هجرة كبيرة بسبب ضغط دولة سنغاي الفتية على مالي التي تسير نحو نهايتها[7]، و من كانو قصدوا دولة كاتسينا و زاريا و انتشروا في المناطق الفسيحة في بلاد الهوسا، و ازدهرت بمجيئهم العلوم –خاصة العلوم الدينية- في مساجدها[8].

1- الهادي مبروك الدالي، *قبائل الهوسا*،ص59.

2- أحمد شلبي، *موسوعة التاريخ الإسلامي*،ج6، ص 69.

3- علي بن أيوب ناجي، *لمحات عن الإسلام في نيجيريا*، ص55.

4- البكري ، *المسالك و الممالك*، ص11.

5- علي بن أيوب ناجي، المرجع السابق، ص 55.

6- و وصلت هجراتهم شرقا حتى برنو لكن في القرن 11هـ/17م على عهد الماي عمر بن إدريس 1037هـ- 1055هـ/ 1625م-1645م) حيث وفد عليه رعايا شعب الفولاني و كان معهم بعض المشايخ،أنظر:عبد الفتاح الغنيمي، *حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*، ص199.

7- بدري محمد فهد، *صلات العرب بإفريقيا*، ص48، و أنظر: أحمد محمد كاني، *الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا*، ص33.

8- أحمد شلبي، *موسوعة التاريخ الإسلامي*،ج6،ص69.

ب- الأثر الثقافي العلمي للهجرات

كان نتيجة اختلاط العرب و البربر و السكان الأصليين اختلاط مجاورة و معايشة و معاملة و مصاهرة[1] أن تغيرت التركيبة السكانية للسودان الأوسط و تغيرت معها العادات و التقاليد و سمات المجتمع ، كما أحدثت هذه الهجرات تغيرات سياسية على المنطقة من خلال مساهمتها في قيام ممالك و سقوط أخرى عن طريق تحالفات و تدخلات من القبائل المهاجرة[2]، غير أن الأثر البالغ الأهمية لهذا الامتزاج يظهر في تداخل الثقافات ، و دخول قدر كبير من المدنية و العلوم الإسلامية بجانب الحياة الإسلامية[3].

و من أبرز مظاهر هذا التغير هو انتشار اللغات و تطورها و اقتراض بعضها من بعض[4] و أهم هذه اللغات هي اللغة العربية –لغة القرآن و العلم- حيث لعبت الهجرات العربية دورا هاما في نشرها و ترسيخها[5] .

و فضلا عن كونها لغة التعليم أصبحت مع الوقت اللغة الرسمية للحكومة و يظهر ذلك من المراسلات التي كانت بين ملوك المنطقة و غيرهم من سلاطين و ملوك الشمال[6] ، و أينما سارت القبائل العربية سارت معها اللغة العربية و نمت معها الحركة العلمية و اكتسبت بذلك اللغة العربية مسحة التقديس عند أهل السودان[7].

و من اللغة العربية و انتشارها بفضل تحركات القبائل العربية تظهر أهمية أخرى للهجرات و هي نمو الحركة العلمية كون القبائل المهاجرة ضمت بين أفرادها علماء و فقهاء و قراء و معلمين — سواء قل عددهم أو كثر- و منه لنا أن نتصور مدى الأثر الذي تركته هذه العناصر على بلاد السودان الأوسط من إنشاء الخلاوي القرآنية و الكتاتيب و الجلوس للتعليم و نشر الإسلام، مما أوجد أرضية خصبة لتقدم الحركة العلمية و الفكرية فيما بعد.

---

[1]- عمر عزالدين موسى،" *انتشار الإسلام في غرب أفريقيا*" ، ص 53.

[2]- علي بن أيوب ناجي، *لمحات من تاريخ نيجيريا*، ص 55، بدري محمد فهد، *الصلات بين العرب و إفريقيا*، ص 48.

[3]- عبد الفتاح الغنيمي، *حركة المد الإسلامي في إفريقيا*، ص 63.

[4]- حين يعرض المحدثون من الدارسين لظاهرة الاقتراض بين اللغات فإنهم يتناولونها من زوايا ثلاث : من حيث الأصوات و الحروف و من حيث التركيب و المسائل النحوية، من حيث الألفاظ و الكلمات، و هم يجمعون على وقوع هذه الظاهرة قديما و حديثا،أنظر: ابراهيم أنيس، "اللغات يقترض بعضها من بعض"، *مجلة العربي* ، عدد130(1969م)، وزارة الإرشاد و الأنباء،الكويت،ص66.

[5]- حسن أحمد محمود، *موسوعة التاريخ الإسلامي*،ج6، ص 59.

[6]- القلقشندي، *صبح الأعشى*، ج8،ص،ص116،118.

[7]- ابراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص153.

و أهم الموجات البشرية التي ضمت عدد كبير من العلماء و الفقهاء هي قبائل الفولانيين " الونجارة" حيث نجد و في مرة واحدة أنه كان من بين العناصر المهاجرة في القرن8هـــ/14م حوالي ثلاثة آلاف و ستمائة و ست و ثلاثين بين عالم و قارئ[1] ، و تقول المصادر أن هؤلاء العلماء كثيرا ما أحضروا معهم كتبا و مخطوطات في مختلف العلوم خاصة العلوم الدينية من الفقه المالكي، كما جاءت جماعة أخرى من العلماء و هذه المرة من مملكة سنغاي يزيد أفرادها عن الأربعين عالما حيث قصدوا دولة كانو و أقاموا يعلمون الناس و شاركوا بذلك في إثراء الحركة العلمية[2].

و في هذا المضمار لا بد من الإشارة أن دخول العلماء و الفقهاء و المعلمين إلى بلاد السودان الأوسط لم يكن ضمن هجرات القبائل فقط بل شهدت المنطقة هجرات فردية لعلماء تركت هي الأخرى أثر ها العلمي[3].

و من هنا يمكن القول أن الهجرات المتتالية للجماعات و الأفراد إلى منطقة السودان الأوسط قد ساهم في إنماء و إثراء الحركة العلمية و برز ذلك في نشر اللغة و التعليم و هذا ما سنأتي للحديث عنه في الفصل التالي.

[1]- ربما العدد مبالغ فيه أو أن هؤلاء العلماء هاجرت إلى بلاد الهوسا في طريقها إلى الحج أو أن معظمهم طلاب علم و ليسوا علماء بالمفهوم الاصطلاحي للكلمة، أنظر: أحمد محمد كاني، *الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا*، 33.

[2]- عبد الفتاح الغنيمي، *حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*، ص 156.

[3]- أنظر تفاصيل أكثر الفصل الثالث المبحث الثاني.

رابعا: الصلات مع المراكز الثقافية في الشمال و الغرب

تمثل العلاقات الخارجية لممالك السودان الأوسط جانبا مهما من تاريخها الثقافي ، فالمعروف منذ أن اعتنق ملوك هذه المنطقة الإسلام في القرن5هـ/11م حتى انتقلوا بممالكهم إلى مصاف الدول الإسلامية السودانية العظيمة[1] ، و دخلت في علاقات مباشرة مع الدول المجاورة و على وجه الخصوص الدول الإسلامية في مصر و بلاد المغرب، و قد جاءت صلاتها هذه تأكيدا لروح الأخوة الإسلامية من جهة و الإفادة من الخبرات الثقافية و العلمية التي تمتلكها من جهة ثانية[2].

و الحقيقة أن موضوع التواصل الثقافي خاصة بين بلاد المغرب و بلاد السودان موضوع واسع، و قد كتب فيه الكثيرون، لذا أصبحت مادته محصورة تقريبا ، و قلما يظهر فيها جديد أو يكشف منها خبي، و إنه لمن الصعب على الباحث في التاريخ الوسيط لبلاد السودان أن يجد نصوصا – عربية خاصة– تتعلق به زائدة على هذه النصوص[3] و التي حصرها الراهب كيوك في مجموعته القيمة[4].

و تبرز أهمية البحث عن طبيعة و جوهر الصلات الثقافية التي كانت تربط ممالك السودان الأوسط بالدول الإسلامية العربية و السودانية في مدى تأثيرها في نمو و إثراء الحركة العلمية [5].

أ_ صلات ممالك السودان الأوسط مع مراكز الشمال

1:مراكز بلاد المغرب الإسلامي

جاءت صلات ممالك السودان الأوسط امتداد للتواصل التاريخي الطويل بين منطقة بحيرة تشاد و شماليها[6]، و هذا ما أكدته البحوث الأثرية بالإضافة إلى إشارات المؤرخين القدامى كالمؤرخ اليوناني "هيرودوتس (ت500ق.م)[7].

1– نقصد بها دولة مالي و صنغاي التي قامت في السودان الغربي على ضفتي نهر النيجر و السنغال.

2– شوكت عارف الأتروشي، *دولة كانم الإسلامية*، ص 95.

3– محمد ابن شريفة، *ابراهيم الكانمي أنموذج مبكر للتواصل بين المغرب و بلاد السودان*،(د.ط)،الدار البيضاء،مطبعة النجاح الجديدة،1991م ،ص7.

4 - recuil des sources arabes concernant l'afrique occidentale du vIII au XVI siécle(Bilad Al-Sudan),Paris,édition du centre national de la recherche sciontifique,1975.

5– شوكت عارف الأتروشي، المرجع السابق، ص 95.

6 - Trimingham,a history,p103

7– أشار هيرودوت في تتاريخه إلى وجود صلات بين الليبيين القدامى و جيرانهم السودانيين في الجنوب،أنظر:دونيس بولم،*الحضارات الأفريقية*،تر:علي شاهين،(د.ط)،بيروت،منشورات دار مكتبة الحياة،1974م، ص46.

و لم ينقطع الاتصال بين الشمال و الجنوب في أي عصر من العصور[1] ، كما لم تكن الصحراء الكبرى لتحول بينهما[2] ، بل كانت عاملا قويا من عوامل الاتصال الحضاري، و كان لطرق التجارة و الهجرة التي اتجهت جنوبا أثر في إيجاد نوع من العلاقة بين أولئك الذين عاشوا في كلا الطرفين من الصحراء، و قد عبر عن ذلك بوفل بقوله:" إن دماء هؤلاء الذين قدموا من الصحراء أو من الأراضي الممتدة إلى شمالها مازالت تجري في عروق بعض شعوب السودان و كذلك فإن دماء السودانيين تركت آثارها في أهل الواحات و في أهل المدن في المغرب"[3].

و من الملاحظ أن هناك عوامل عديدة قد لعبت دورها في استمرار التواصل الحضاري بين ممالك السودان الأوسط و المغرب الإسلامي، و في مقدمة ذلك: العامل الاقتصادي فبلاد كانم و بلاد الهوسا بحكم موقعهما كانت بحاجة ماسة إلى منفذ لتصريف منتجاتها عبر الشمال خاصة بعد مجيء الإسلام و ازدهار النشاط التجاري[4] و ما رافقه من توافد المسلمين على بلاد السودان عموما، و نشرهم إلى جانب تجارتهم الثقافة العربية الإسلامية حتى أصبحت المراكز التجارية في الجنوب صور مصغرة لحضارة المغرب[5] .

و هكذا مهدت العمليات التجارية لصلات دبلوماسية و ثقافية خاصة بعد القرن 5هـــ/11م ، فشهدت المراكز الإسلامية في المغرب الإسلامي كتونس و طرابلس و تلمسان و مراكش إقبالا ملحوظا من علماء و طلاب بلاد السودان و ذاع صيت بعضهم في أرجاء المغرب.

ــ **تونس** : و أهم مركز ثقافي بها هي القيروان[6] ،ارتفع شأنها منذ اعتراف الخلافة الأموية بها و استقلالها عن مصر،فأصبحت قبلة المغرب و كعبة الحضارة خاصة على زمن الأغالبة الذين بذلوا جهودا كبيرة لخدمة الثقافة بها، فعنوا بمساجدها و أنشأوا حلقات التدريس و استقدموا لها الأساتذة و بذلك كانت أول مركز ثقافي إسلامي ببلاد المغرب[7] ، إذ غلب الفكر و الدرس على بعض مساجدها مما نقلها من طبيعة المسجد إلى طبيعة الجامعة على نحو ما حدث في الأزهر، و ظلت

---

[1]– أحمد شلبي، *موسوعة التاريخ الإسلامي*،ج6،ص168.

[2]– دائرة الامعارف الإسلامية،مادة صحراء،ج14،ص157. أنظر: اسماعيل العربي، الصحراء الكبرى و شواطئها، ص279.

[3]– بوفيل، *تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير*،ص211، شوكت عارف الأتروشي،*دولة كانم الإسلامية*، ص96.

[4]– و بخلاف السودان الغربي فإن تجارة الرقيق لا الذهب كانت هي الأساس في الصلات التجارية السودان الأوسط مع الشمال و منذ وقت مبكر،أنظر:اليعقوبي، *البلدان*،ص104.

[5]–شوكت عارف الأتروشي، المرجع السابق،ص،ص 96،97.

[6]– أسست على يد القائد العربي عقبة بن نافع سنة 55هـــ/677م و هي معقل الإسلام بهذه البلاد،أنظر: الاصطخري، *المسالك و الممالك*،ص34،ياقوت الحموي،*معجم البلدان*، ج7،ص194.

[7]– حسين مؤنس، *فتح العرب للمغرب*،(د.ط)،مكتبة الثقافة الدينية،(=.ت)،ص،ص130،131.

مفتوحة الأبواب حتى دب الإسلام خلف الصحراء فأرسلت من خرجيها و من درسوا بها من يعلم الإسلام [1] ، و استقبلت بين طلابها أعدادا كبيرة من السودانيين، و قد بذل سلاطين كانم جهودا لتطوير صلاتها مع تونس على عهد الحفصيين[2] و يعطينا ابن خلدون (ت808هــ/1405م) دليلا على ذلك في وصفه للسفارة التي أرسلها السلطان الكانمي" دونمة ديبالمي"(618هــ-656هــ/1221م-1259م) في عام 655هــ/1258م إلى السلطان الحفصي المستنصر (646ه-676هــ/1246م-1277م) و كانت محملة بهدايا ثمينة[3].

ــ **المغرب الأقصى**: و إن كانت بلاد المغرب الأقصى قد حظيت بمكانة مرموقة من الناحية العلمية ، فإن مدينة فاس كانت أهم مركز علمي في هذه البقاع، تفتحت للثقافة منذ نشأتها في 2ه/8م، و بلغت أوج عظمتها في عهد بني مرين خلال القرنين7 و 8هــ/13 و 14م و قد شيدت بها الجوامع و المدارس ، و من أشهر معاهد العلم جامعة القرويين[4] و قد جلس للتعليم بها أشهر الأساتذة ، لم تكتف فاس و مراكش بالاتجاه للشمال فقط بل اتجهت للجنوب ترسل الوفود و تستقبل جماعات الطلبة، و عندما أنشأت مراكز العلم في بلاد السودان تمبكتو و جني كانت فاس و غيرها تمدها بالمعلمين و الأساتذة و الكتب[5].

و أهم أنموذج للتواصل الثقافي بين السودان الأوسط و المغرب الأقصى شخصية علمية يبدوا أنها كانت من الثمرات المبكرة لتسرب الثقافة العربية المغربية إلى مملكة كانم- برنو[6] و هذه الشخصية

---

[1]- و مثالنا في ذلك يحي بن إبراهيم زعيم قبيلة جدالة الصنهاجية و منشئ دولة المرابطين عندما أحس بالتزامه بخدمة الإسلام و ا إنقاذ البربر و الزنوج من ظلام الوثنية ، قصد القيروان و هي المركز الإسلامي العام و قابل أشهر علمائها " أبو عمران الفاسي" و انتهى الأمر ببعث عبد الله بن ياسين إلى الصحراء و أنشأت بذلك دولة المرابطين و هكذا انبعث من القيروان إشعاع إلى الجنوب أدى دوره خير أداء،أنظر: مجهول، *الحلل الموشيةفي ذكر الأخبار المراكشية*،تح:سهيل زكار و عبد القادر زمامة،الدار البيضء،دار الرشاد،1979م، ص218.ابن غذارى المراكشي، *البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب قسم الموحدين*،،تح:محمد إبراهيم الكتاني و آخرون،بيروت،دار الغرب الإسلامي،1985م،ص265.ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، ج6،ص331.، ابن خلدون، *العبر*، ج6، ،ص 182،183.

[2]- الدولة الحفصية : نسبة إلى أبي حفص يحي بن عمر الهنتاتي، قامت دولتهم بعد الموحدين(625هــ-941هــ/1228م-1534م) و امتدت لتشمل طرابلس شرقا و سجلماسة جنوبا، للمزيد أنظر:شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية،ج2، ص179.

[3]- ابن خلدون، *العبر*، ج6،ص199.

[4]- جامعة القرويين : أسس في سنة 859هــ/1480م على يد علماء من القيروان الذين فروا من اكتساح الهلاليين للشمال الإفريقي ابتاءا من القرن 5هــ/11م فوجدوا في المغرب الأقصى ملاذهم ، ثم أسسوا بفاس جامعة نسبت إليهم :القيراونيين ثم خفف الاسم إلى القرويين ، وشيد هذا الجامع ليكون للتعليم ، و يعتبر أقدم جامعة اسلامية، أنظر : البكري، *المسالك و الممالك*،ص 115 و ما بعدها.

[5]- أحمد شلبي، *موسوعة التاريخ الإسلامي*،ج6، ص174.

[6]- محمد ابن شريفة، *إبراهيم الكانمي أنموذج التواصل الثقافي بين المغرب و بلاد السودان*،ص15.

هي: أبو إسحاق إبراهيم الكانمي كان قد قدم المغرب[1] قبل عام 600هــ/1203م و سكن مراكش و دخل الأندلس، كان عالما بالآداب مشهودا له بإجادة الشعر[2] ، يذكر ابن الآبار أنه أقرأ الآداب بمدينة مراكش و تشير هذه العبارة إلى أنه كان متمكنا من اللغة و النحو و البلاغة [3].

و كان هذا الشاعر قد دخل يوما على الأمير اليعقوبي المنصور الموحدي فأنشده:

أزال حجابه عني و عيني ترأه من المهابة في حجاب

و قربني تفضله و لكن بعد مهابة عند اقترابي[4]

_ **معاهد تلمسان**: و هي منارة أخرى من منارات الفكر الإسلامي ، لعبت في العصور الوسطى دورا مهما في خدمة الإسلام جنوب الصحراء، و من أشهر علمائها الذين رحلوا إلى بلاد السودان الأوسط:العالم الجليل محمد بن عبد الكريم المغيلي و قد أخذ معه جماعة من علماء توات ، و قصدوا بلاد الهوسافزاروا: كانو و كاتسينا، و كان له باع طويل في خدمة العلم و التعليم هناك، فجذب إليه الطلاب و المريدن ، كما تقلد مناصب عند ملوكهم مما يدل على مكانة الرجل التي تخطت العامة إلى السادة و الملوك[5].

2 مصر و الحجاز: أما صلات السودان الأوسط مع مصر فهي تاريخية و قديمة[6] و توثقت بعد مجيء مجيء الإسلام و لا سيما أن مصر كانت طريق حجاج السودان و كان لابد من المرور من خلالها[7] ، ، هذا فضلا عن قوة و تشابك العلاقات الاقتصادية و السياسية منذ العهد الفاطمي (ق4هــ/10م)[8].

و يتحدث ابن خلدون في زمانه فيقول:"و نحن لهذا العهد نرى أن العلم و التعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، لما أن عمرانها مستبحر و حضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين ،

---

[1]- حسب المصادر العربية هو أبو إسحاق ابراهيم بن محمد بن شكلة بن عمرو بن عبد الله السلمي الذكواني، من أهل كانم ساق اسمه ابن الآبار في التكملة و اختصر إلى أبي اسحاق ابراهيم بن محمد بن شكلة الذكواني الكانمي،أنظر ترجمة كاملة لحياته عند الصفدي و ابن الآبار ملحق رقم 4 .

[2]- شوكت عارف الأتروشي،*دولة كانم الإسلامية*،ص100.

[3]- محمد بن شريفة، المرجع السابق، ص18.

[4]- ابن خلكان،*وفيات الأعيان و أخبار الزمان*،(د.ط)،بيروت،1977م، ج7،ص15،السلاوي، *الاستقصا*،ج5،ص103.

[5]- أحمد شلبي، *موسوعة التاريخ الإسلامي*،ج6،ص 175.

[6]- حين أحمد محمود، *الإسلام و الثقافة العربية في إفريقيا*،ص 171.

[7]- ابراهيم علي طرخان، *دولة مالي الإسلامية*،ص 168.

[8]- شوكت عارف الأتروشي، *دولة كانم الإسلامية*،ص 101.

فاستحكمت فيها الصنائع و تفننت و من جملتها: تعليم العلم ،فاستكثروا من بناء المدارس و الزويا[1].

و يعتبر جامع الأزهر بمصر[2] الجامعة الإسلامية الأولى و كعبة الفكر، قصده عدد كبير من الطلاب من جميع ربوع إفريقيا، و كان لأهل السودان الأوسط نصيب واضح في هذا المجال، فقد وفدت منهم طوائف كثيرة لمصر و جلست بحلقات العلم لتسمع عن شيوخه[3].

و نظرا لتزايد أعداد الوافدين من طلبة بلاد السودان عموما و كانم خصوصا فقد خصص لهم رواق – كما أوردنا سلفا- يسمى رواق برنو يترل به طلاب العلم من الكانوري و غيرهم[4] ، كما عمد الكانميون في عهد " دونمة ديبالمي" (618هـ-656هـ/1221م-1259م) إلى بناء مدرسة لاستقبال طلابهم و هي مدرسة ابن الرشيق العريقة[5] و أصبحت مثابة الطلاب في هذه البلاد حيث تؤكد الروايات أن المدرسة قد وجدت شهرة كبيرة في بلاد التكرور عامة[6].

و يذكر "توماس أرلوند" أن بلاد الهوسا من جهتها و المناطق المحيطة ببحيرة تشاد قد تأثرت في إسلامها بالموجة الكبيرة التي زحفت من مصر نحو الجنوب في القرن 6هـ/12م [7] حيث توجه نخبة من العلماء المصريين إلى هذه المناطق و جلسوا لتلقين العلوم هناك مثل: العالم "عبد الرحمن سوجين " الذي جلس يدرس في إحدى مدارس كانو [8].

---

[1]- ابن خلدون، *المقدمة*،ص418.

[2]- وضع أساسه في 14 رمضان سنة 359هـ/971م و كان في البداية مسجدا ثم فتحت أبوابه لدراسة العلوم الدينية و العقلية في عصر المماليك أصبح من أعظم الجامعات ، فكان بحق منارة للمسلمين ،أنظر: سعد بدير الحلواني، " دور الأزهر في السودان" من موقعwww.dramarzouk.comK ، و أنظر: شوقي عطا الله الجمل، *الأزهر و دوره السياسي و الحضاري في إفريقيا*،ص11.

[3]- أحمد شلبي، *موسوعة التاريخ الإسلامي*،ج6، ص،ص177،178.

[4]- العمري، *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*،تر:عبد القادر خويسات و آخرون،الإمارات العربية المتحدة،مركز زيدان للتراث التاريخي،2001م،ج4، ص 56، شوكت عارف الأتروشي، دولة كانم الإسلامية، ص 104.

[5]- سبقت الإشارة إليهاأنظر م2 من هذا الفصل.

[6]- أحمد محمد كاني، *الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا*، ص 15.

[7]- توماس أرلوند، *الدعوة إلى الإسلام*، ص 357.

[8]- أحمد محمد كاني، *الجهاد الأسلامي في غرب أفريقيا*، ص41.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

استمرت الصلات بين السودان الأوسط و مصر مزدهرة في شتى المجالات خاصة في العصر المملوكي[1] لذا نلاحظ بعض التأثيرات في ميدان المذاهب[2] و تعلم الناس الفقه و التوحيد و اللغة و غيرها من العلوم عكس الطابع الصوفي العلمي الذي تميزت به الثقافة الحجازية و المغربية و العراقية[3].

أما الصلات مع بلاد الحجاز فهي طبيعية و بديهية شملت بالخصوص العلاقات الثقافية الدينية،فقد كانت قوافل حجاج بلاد السودان الأوسط بقيادة سلاطينهم مستمرة كل عام تغدوا إلى مكة و المدينة، و مما يجدر ذكره أن المصادر العربية لم تحدثنا عن قوافل الحجيج التي وصلت الحجاز، و اكتفت بالحديث عن القوافل و دخولها مصر و خروجها، لأن مركز الخلافة للمسلمين آنئذ كان في مصر حيث انتقلت الخلافة العباسية إليه و كان المماليك هم القوى المتنفذة فيها[4]، و هكذا فالعلاقة مع الحجاز كانت موجودة على المستوى الديني خاصة[5].

ب_ صلات ممالك السودان الأوسط مع مراكز الجنوب

بعد أن أرسى الإسلام دعائمه في منطقة السودان جاءت الخطوة الجديدة و هي قيام نشاط داخلي نابع من المنطقة نفسها و يخدم الأهداف نفسها و هي نشر الإسلام و العلم ، فظهرت زعامات إسلامية متمثلة أساسا في السلاطين و ظهرت مراكز ثقافية ماثلت المراكز السابقة الذكر[6]، و كان السودان الغربي أسبق من السودان الأوسط في ظهور هذه المراكز و التي كان لها أبعد أثر و أكثر نجاح في خدمة الإسلام و العلم، لكن المصادر المحلية خصوصا لا تمدنا إلا بمعلومات ضئيلة عن طبيعة الصلات التي ربطت بين هذه المراكز و السودان الأوسط خاصة الجانب الثقافي[7].

---

[1]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي، *حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*، ص 158.

[2]- فقد شاع بين البعض اتباع المذهب الشافعي في بلاد كانم، و من المؤكد أن تأثيراته جاءت من مصر للتفاصيل أنظر المبحث الثالث من الفصل الثالث.

[3]- حسن أحمد محمود، *الإسلام و الثقافة العربية في أفريقيا*، ص 178.،أنظر : أحمد شلبي، *موسوعة التاريخ الإسلامي*، ج 6،ص 180.

[4]- عز الدين أبي الحسن ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*،ط3، بيروت،دار صار،2001م، ج10،ص373.

[5]- شوكت عارف الأتروشي، *دولة كانم الإسلامية*، ص 109.

[6]- أحمد شلبي، المرجع السابق، ص 220.

[7]- شوكت عارف الأتروشي، المرجع السابق، ص 110.

1:الصلات مع تمبكتو: تقع على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى بالمنطقة المعروفة منحى النيجر، أما عن تاريخ تكوين المدينة فلم يحدد تاريخ معين و أكثر الروايات المتداولة تقول أن تأسيسها كان على يد جماعات من البربر الطوارق[1] في أواخر القرن 5هـــ/1087م [2] و كان ذلك في عهد المرابطين.

و يقال أن أصل الكلمة يعود إلى سيدة من مالي مسنة كان يستأمنها الطوارق على أشيائهم كانت تسمى" بكتو" أما "تين" معناها مكان في لغتهم و مع مرور الزمن اندمجت الكلمتان فأصبحت تين بكتو ثم تمبكتو و بذلك سميت المدينة[3].

خضعت المدينة في أول الأمر لحكم الصنغاي إلى أن تمكن السلطان " منسى موسى" سلطان مالي (1307م-1332م) من فتحها و حظيت بعناية كبيرة من طرف هذا الملك[4].

و عندما ضعفت إمبراطورية مالي عاد الطوارق فاستولوا عليها سنة 1433م و عينوا عليها حاكما منهم، و في سنة 1468م تمكن الصنغاي من السيطرة عليها أيام السلطان "سني علي" ، و على عهد الأسكيا الحاج محمد وصلت ذروة مجدها التجاري و الثقافي، استولى عليها المراكشيون 1591م ضمن ما استولوا عليه من أراضي الصنغاي و اضمحلت تمبكتوا بعد ذلك[5].

اشتهرت هذه المدينة بصفة خاصة بأنها مركز دينيا و ثقافيا و تجاريا هاما، لكن الجانب الثقافي كان الأرجح[6] مما أكسبها الكثير من الإجلال فالسعدي يقول عنها:" هذه البلدة الطيبة الطاهرة الزكية الفاخرة...و ما دنسها عبادة الأوثان و لا سجد على أديمها لغير الرحمن، مأوى العلماء و العابدين و مألف الأولياء و اللاهين..."[7] و الإمام محمود كعت يفخر بأن ينتسب لها فيقول في مقدمة كتابه:" محمود كعت الكرنسي دار، التمبكتي مسلنا، الوعكري أصلا"[8].

و قد اتجهت تمبكتو هذا الاتجاه الثقافي منذ عهدها المبكر، فشيدت بها المساجد و المدارس و المعاهد، و أقبل عليها العلماء و كثرت حلقات التدريس بمعاهدها، و حظيت بمزيد من الازدهار في

[1]- كان الطوارق يتزلون بمنحى النيجر شهور الصيف و في الخريف يرتحلون، و من أسباب اختيارهم لهذا المكان أن به كثير من الآبار ذات المياه العذبة، كما تصل إليه قنوات متفرعة من نهر النيجر، و عام بعد عام استقر الطوارق في هذا الموضع،أنظر: أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص195.

[2]- علي محمد عبد اللطيف،*تمبكتو أسطورة التاريخ*،جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا،1369هـــ/2001م،ص85.

[3]- نفسه،ص85.

[4]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي، *حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*،ص139.

[5]- علي محمد عبد اللطيف، المرجع السابق، ص- ص86-96.

[6]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المرجع السابق، ص 139.

[7]- السعدي، *تاريخ السودان*،ص،ص20،21.

[8]- محمود كعت، *تاريخ الفتاش في أخبار البلدان و الجيوش و أكابر الناس*،باريس، طبع هوداس و دولافوس،1964م، ص9.

عهد السلطان منسى موسى[1] الذي استقدم إليها عدد كبير من العلماء و أقام بها مسجدا كبيرا[2] أصبح فيما بعد جامعة إسلامية يؤمها الطلاب لتلقي الدروس و المحاضرات و دعي أشهر العلماء و الفقهاء للتدريس بها[3].

في القرن الخامس عشر و السادس عشر ظهرت تمبكتو كأعظم مدينة حضارية و ثقافية و علمية في منطقة السودان، و وصلها العلماء من الحجاز و مصر و المغرب و الأندلس، و انتشرت بها المدارس و الكتاتيب و المكتبات[4] ، و بالتالي جذبت الطلاب من مختلف النواحي الإفريقية من السودان خاصة[5]، و هكذا كانت تمبكتو مركزا علميا له عظيم الأثر في نشر الإسلام التعليم في بلاد السودان.

السودان.

2:الصلات مع جني: تعد هذه المدينة منافسة لمدينة تمبكتو في نشاطها التجاري و الثقافي و إن كانت لم تصل إلى مستواها، تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة تمبكتو[6] ، محاطة بسور عظيم به ثماني بوابات.

بوابات.

وتختلف مدينة جني عن تمبكتو في نقطة مهمة هي أن تمبكتو ولدت مسلمة لكن جني ابتدأت كما يقول السعدي في الكفر أواسط القرن2هـ/8م[7] ، و أصبحت ملتقى القوافل التجارية و أخذ الإسلام يدب فيها رويدا رويدا، و أقام بها العلماء ينشرون الإسلام و يعلمون الناس مبادئه[8].

و قد دخلت هذه المدينة دائرة المد الإسلامي في القرن 5هـ/11م و بالتحديد عام1055م تاريخ إسلام أميرها، و قام هذا الأخير ببناء مسجد كبير في مدينته على نظام مسجد الحرام[9]، و يذكر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]– أحمد شلبي، *موسوعة التاريخ الإسلامي*،ج6، ص 232.

[2]– قام بتشييده المهندس العربي الأندلسي اسحاق ابراهيم الساحلي استقدمه السلطان منسى موسى معه من الحجاز ، و شيد كذلك قصر السلطان و بهذا أدخل الطرز الهندسي الموجود بهذه المدينة، هذا إضافة إلى أنه كان أديبا و عالما، فهو فقيه ،أنظر: محمد بن شريفة،*ابراهيم الساحلي و دوره الثقافي في مملكة مالي*،(د.ط)،الدار البيضاء،مطبعة النجاح الجديدة،1992م،ص-ص8 -34.

[3]– عبد الفتاح مقلد الغنيمي، *حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*،ص139.

[4]– نفسه ،ص140.

[5]– حسن أحمد محمود، *الإسلام و الثقافة العربية في أفريقيا*، ص 248،أنظر:أحمد شلبي،*موسوعة التاريخ الإسلامي*،ج6،ص 235.

[6]– على مرحلة 200ميل من الضفة اليسرى لنهر بني أحد روافد نهر النيجر

[7]- السعدي، *تاريخ السودان*،ص 12.

[8]– أحمد شلبي، المرجع السابق، ص 200.

[9]– عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المرجع السابق، ص 143.

يذكر السعدي أن هذا الأمير عندما قرر إعلان إسلامه أمر بأن يجمع له من سائر المدينة رجال الدين و العلماء المسلمين ،فأجتمع له نحو 4200عالم و أسلم على يدهم[1].

اشتهرت المدينة بالكثير من العلماء و القضاة نذكر منهم: العالم "موري جاجا" الذي كان يباشر التعليم و التدريس في مسجد المدينة الكبير في القرن9هـــ/15م، كذلك قاضي المدينة العالم"محمد سافو" الذي كان يباشر القضاء في القرن9هــ/15م، منهم أيضا العالم:"محمد برمابورد" و العالم"أحمد طورقو"[2] ، و في عهد الأساكي حكام صنغاي بقيت المدينة محتفظة بمكانتها العلمية كمركز من المراكز الكبرى للثقافة الإسلامية في قلب إفريقيا، و بتدهور صنغاي سياسيا وقعت مع بقية المدن بيد المراكشيين ،لكن هذا لم يدم طويلا لتسيطر عليها قبائل سودانية .

و ما يمكن قوله حول هذه المدينة هو أن بتطورها الثقافي خاصة ساهمت إلى جانب تمبكتو في نشر العلم و التعليم بالمنطقة حيث وفد إليها الطلاب من شتى المناطق السودانية.

3: الصلات مع غاو: يصفها الحسن الوزان بالمدينة العظيمة الشأن و الواسعة النفوذ و يضيف بأنها أجمل المدن في غرب إفريقيا[3] و حسب الإحصاء الذي تم في القرن 10هـــ/16م أن عدد منازلها يزيد يزيد عن 7626 مسكن و عدد سكانها حوالي75ألف نسمة، لذا بلغت درجة كبيرة من الشهرة و الازدهار.

خضعت هذه المدينة لسيطرة مالي في عهد ازدهارها و قوتها و توسعها، و قد زارها السلطان "منسى موسى" و أقام بها مسجدا عام 1325م[4]، و كانت مدينة غاو بعد أن استطاع حكام السنغاي السيطرة عليها من أهم المدن و احتلت مكانة و سمعة طيبة.، و في تاريخ السعدي هناك أكثر من إشارة لرحيل علماء من تمبكتو إليها و جلسوا للتدريس في مسجدها الكبير و أقاموا يعلمون و يفقهون الناس أمور دينهم و ينشرون الثقافة الإسلامية.

[1]– العدد مبالغ فيه بلا شك و يعتقد أن معظمهم قراء و طلاب علم،أنظر السعدي، *تاريخ السودان*،ص،ص12،13.

[2]– عبد الفتاح مقلد الغنيمي، *حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*،ص 144.

[3]– الحسن الوزان، *وصف إفريقيا*،ج2، ص 178.

[4]- أشرف على بنائه أيضا أبو إسحاق إبراهيم الساحلي الشاعر و المهندس المشهور، لا تزال أطلال هذا المسجد باقية حتى اليوم شاهدة على الحضارة الإسلامية هناك، أنظر:نبيلة حسن محمد ، *في تاريخ أفريقية الإسلامية*، ص 242.، محمد بن شريفة، *إبراهيم الساحلي و دوره الثقافي في مملكة مالي*، ص18.

و يظهر الأثر الثقافي لها في تسرب النفوذ الحضاري منها إلى بلاد الهوسا و كان ذلك بداية ظهور الثقافة الإسلامية بهذه المناطق، و حسب تأكيد المصادر فإن غاو لم تقل أهميتها العلمية عن أهميتها السياسية و لم يكن علمائها أقل استعدادا في التحصيل و التدريس[1].

و هكذا كانت مدينة تمبكتو و جني و غاو مراكز تجارية عظيمة خدمت التجارة و المال من جانب و جذبت العلماء و الدارسين و الطلاب من جانب آخر [2] و يظهر أثرها الثقافي و العلمي من خلال مساهمة علمائها[3] في دفع عجلة الثقافة الإسلامية بالسودان الأوسط .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]– عبد الفتاح مقلد الغنيمي، *حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*، ص 147.

[2]–أحمد شلبي، *موسوعة التاريخ الإسلامي*، ج6، ص202.

[3]– سيتم الحديث عن هؤلاء العلماء ضمن الحديث عن الرحلة العلمية في الفصل الموالي.

الفصل الثالث

مظاهر نشاط الحركة العلمية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا: نظام التعليم و مؤسساته

ثانيا :الرحلة العلمية

ثالثا: انتشار اللغة العربية و المذاهب الإسلامية.

رابعا: الإنتاج الفكري وظهور المراكز العلمية المحلية.

أولا:نظام التعليم و مؤسساته

إن الفهم العميق لأهمية العلم و التعليم الذي استنتجه المسلمون من مقومات دينهم و مبادئ عقيدتهم جعل الدول الإسلامية في أول نشأتها حريصة عليه فأصبحت القرون الثلاثة [1] أزهى عصور الدول الإسلامية في مجال التعليم، و لما دانت الأمم للإسلام ظهرت حركة البعث العلمي و التصنيف و تطورت تطورا كبيرا.

و الدول و الممالك الإسلامية التي قامت بمنطقة السودان الأوسط منذ القرن5هـ/11م لم تكن بمنأى عن ذلك فقد أنتج وصول الإسلام إليها حالة من الوعي التي أنتجت بدورها حضارة جديدة تشتمل على نهضة علمية اعتمدت الأصول الإسلامية و نهلت من العلوم العربية المزدهرة في تلك الفترة.

و مع مرور الوقت أضحت حواضر السودان الأوسط :انجيمي،كانو،كاتسينا...نموذجا لنشاط الحركة العلمية، و كان لهذا التطور بعده الإفريقي المتناغم مع ما جاء به الإسلام.

و كان التعليم حرا مثلما هو الحال في البلاد الإسلامية عموما(المشرق و المغرب و الأندلس) ، أما الدولة فكانت تساهم خاصة في الجانب المادي و تترك شؤون سيره للمتطوعين من العلماء و المعلمين في غالب الأحيان، أما المدن الكبرى التي يكثر فيها الطلاب و المدارس فيعهد لقاضيها الإشراف على سيره و تنظيم شؤونه[2].

و حظي العلماء و المعلمون باحترام كبير من طرف الأهالي و السلطة، فكانوا يجزلون لهم العطاء ، و يصدرون المراسيم التي تعفيهم من الضرائب و تمنحهم الامتيازات[3] و هم يتفرعون إلى قسمين:

1:فئة المؤدبين(الأساتذة) :اختصت بتعليم أبناء الحكام و الأمراء و أبناء الطبقة العليا و الأغنياء[4] و من أمثلة هؤلاء الفقيه "محمد بن ماني" الذي عاصر خمس مايات من مايات كانم – برنو و أشرف

---

[1]- نشطت الحركة الفكرية ابتداء من القرن الثاني الهجري، فالقرن الأول كان عصر الفتوحات و التوسعات،أنظر: محمد بكر العليان،*التربية و التعليم في الدول الإسلامية خلال القرن الربع عشر ميلادي من التبعية إلى الأصالة*،القاهرة دار الأنصار،د.ت،ص26.

[2]- محمدكعت،*تاريخ الفتاش*، ص 183 و ما يليها، عبد القادر زبادية،*مملكة سنغاي*،ص141.

[3]- نعيم قداح،عمر الحكيم، *إفريقيا الغربية في ظل الإسلام*، ص143.

[4]- كريم مناحي الصريفي، "تطور المدرسة و الفكر التربوي عبر القرون" ،مجلة العربي،عدد154(1971م)،وزارة الإعلام و الأنباء،الكويت،ص94.

على تعليمهم و سماع قراءاتهم من القرآن و سيرة النبي صلى الله عليه و سلم[1]، كما أشرف الفقيه "دبلن بن بكر" على تعليم ابن السلطان الكانمي" سلما ديبالمي"(590هـ- 618هـ/1194م-1221م) و أقرأه ما يقارب المائة و خمسين كتابا في علوم الدين[2] .

2:فئة المعلمين:اختصت بتعليم العامة من أبناء الشعب و سميت بطبقة معلمي الكتاتيب[3].

و كانت فئة المعلمين و الأساتذة في أول الأمر محصورة بالأساتذة العرب و البربر القادمين من الشمال و بعد مضي مدة تكونت طبقة مثقفة من السودانيين تولت مهمة التعليم بعد أن تخرجت من المدارس في المغرب و مصر، و أغلبية المعلمين السودانيين كانوا من رجال الدين الذين أتقنوا اللغة العربية و مارسوا بها التعليم[4] .

و النظام التعليمي السائد في بلاد السودان الأوسط –كغيره في البلاد الإسلامية- ينقسم إلى مراحل وهي:

1:**مرحلة التعليم الأولى:** و يتولى التعليم في هذه المرحلة التي توازي حاليا مرحلة التعليم الابتدائي معلمو الكتاتيب، و لم يكن يتصدى لهذه المهنة إلا من أنس في نفسه الكفاءة اللازمة لمهنته كتحفيظ القرآن الكريم و تعليم مبادئ اللغة و إتقان الخط[5] ، و يبدأ الطفل تعليمه متى بلغ الخامسة أو السادسة أو السابعة (سن التميز) و تنتهي عند البلوغ على وجه التقريب من الثالثة عشر أو الرابع عشر[6]،فإذا ظهر تفوقه جاز له الانتقال إلى المرحلة التالية[7].

2:**مرحلة التعليم الثانية:** توازي مرحلة التعليم الإعدادي و الثانوي ،لم تكن محددة بعمر معين فهي متاحة لجميع من أكمل تعليمه الأول بنجاح و تتم عادة في المساجد الصغيرة[8] و قد يتولى الطالب تعليم نفسه من خلال دراسة نظامية عن طريق حضور حلقات الدروس في المساجد و

---

[1]- مسعود خالدي،"أثر الجاليات المغاربية على الحياة الفكرية في السودان الغربي بين القرنين5هـ-10هـ/11م-16م"،النشرة الخاصة المحكمة في الدراسات الأفريقية،عدد84(2008م)،ص5.

[2]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي، *حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*،ص130.

[3]- كريم مناحي الصريفي،"تطور المدرسة و الفكر التربوي عبر القرون"،ص94.

[4]- نعيم قداح،*إفريقيا الغربية في ظل الإسلام*،ص،ص143،144.

[5]- أضاف الأندلسيون إلى هذه المرحلة تعليم الحديث و القواعد العامة لمختلف العلوم كالحساب،أنظر :أبوالقاسم سعدالله ،تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1،ص36.

[6]- محمد عادل عبد العزيز، *التربية الإسلامية في المغرب*، (د.ط)،القاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب،1978مص8.

[7]- عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي،ص142،منير بوغرارة، محمد بن عبد الكريم المغيلي و مساهمته في الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا، رسالة ماجستير،إشراف:أحمد صاري،جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية،2003م، ص33.

[8]- عبد القادر زبادية،مملكة سنغاي،ص144.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يشرف عليها علماء و أساتذة أكفاء في مختلف المواد[1]، و في هذه المرحلة تدرس بعض الكتب في العلوم الإسلامية (التفسير و الفقه و الفرائض) و علوم اللغة (مثل النحو و البلاغة و الصرف)،إضافة إلى الحساب و المنطق،هذه الدراسات تغذي المرحلة التالية العليا و التي تتم في المراكز العلمية الكبرى مثل تمبكتو و فاس و القاهرة فيما إذا أراد الطالب متابعة تحصيله[2]، تتميز بالتدرج في دراسة المؤلفات البسيطة إلى المؤلفات المفصلة مع شروحها و حواشيها[3].

3: مرحلة التعليم العالي: و كان يجلس للتعليم في هذه المرحلة الأساتذة المتضلعين[4] في المواد التي يدرسونها و قد شكل المغاربة نسبة كبيرة منهم ، و قد تجري على بعض هؤلاء رواتب إذا كانوا منقطعين للتعليم سواء من قبل الدولة أو من الأوقاف[5] ، أو من الطلبة أنفسهم، و يكون بعض هؤلاء هؤلاء العلماء متطوعون فهم يعملون على كسب أرزاقهم بواسطة العمل التجاري أو لفلاحي[6].

و كانت حلقات التدريس تجرى فيها المناقشات الجدلية و الفقهية حول الفلسفة اليونانية و مقامات الحريري حيث كانت مدرجة ضمن مواد المنهاج، أما طريقة تدريس النحو كانت تعتمد على الاستنتاج إذ يقرأ الطالب النص الأدبي ثم يناقش من خلاله المسائل النحوية بعدها تستخرج القاعدة.

و قد انتقل حب المغاربة للنحو إلى السودانيين لأن كثيرا من كتب اللغة قد حملها المغاربة إلى بلاد السودان[7] ، و ما يدل على ذلك الأديب السوداني "ابراهيم الكانمي" الذي يعتبر نحويا ماهرا يحفظ كتاب الجمل و كثيرا من أشعار العرب و أنه كان عالما بالآداب[8] و بلغ مستواه أن أقرأ الآداب بمدينة

---

[1] – السعدي، *تاريخ السودان*،ص 16.

[2] – نعيم قداح،*إفريقيا الإسلامية في ظل الإسلام*،ص،ص144،145.

[3] – الهادي مبروك الدالي، التاريخ الحضاري،ص 166.

[4] – هذا النوع من الأساتذة قد أحاطوا بجزئيات المواضيع التي يدرسونها ، فكل من أحمد بابا و السعدي و محمود كعت يتفقون على أن المدرسون في زمانهم كانوا على مستوى عال من التحصيل و الاطلاع على أمهات الكتب المتداولة في العالم الإسلامي.

[5] – قد كان لبلاد السودان حظ وافر من هذه الأوقاف الإسلامية تأثيرا و تأثرا، و قد ساهمت في نشر الدعوة و تدعيم الحركة التعليمية ، من هذه الأوقاف:الآبار مساكن للطلبة اقطاعات الملوك للعلماء، و يقول دالدكو:"كانت الهبات و الأوقاف في بلاد كانم و مازالت باقية في العصور الحديثة ،بل تكاد تكون تقليدا متبعا ادى عامة سلاطين غرب إفريقيا،أنظر:حسب الله مهدي فضلة،اسهامات الوقف الإسلامي في أسلمة الممالك التشادية القديمة و تواصلها مع العالم الإسلامي،مجلة العلوم الانسانية،عدد45،موقع: www.ulume.com

[6] – منير بوغرارة،*محمد بن عبد الكريم المغيلي و مساهمته في الثقافة الإسلامية في غرب أفريقيا*،ص33.

[7] – نعيم قداح،المرجع السابق،ص145.

[8] – محمد ابن شريفة،*إبراهيم الكانمي أنموذج مبكر للتواصل الثقافي بين المغرب و بلاد السودان* ،ص،ص 17،18.

بمدينة مراكش أواخر القرن6هـــ/12م و بداية القرن7هـــ/13م و في هذا الصدد يذكر ابن الآبار : " قرأ

(أقرأ) مقامات الحريري تفقها و لا أدري عمن رواها"[1] و تشير هذه العبارة إلى أنه كان متمكنا من الأدب لغة و نحو و بلاغة[2].

و يدخل الطالب هذه المرحلة بعد أن يكون مسلحا بأسس العلم و يكون حفظ جزءا من القرآن الكريم أو حفظه كله و يكون مستعدا لقراءة أعمال من نوع آخر من قراءة الكتب الشرعية و الفلسفية لذا تتميز الدراسة فيها بالعمق و الولوج في القضايا التفصيلية و الدقيقة، أما مدة الدراسة فقد تصل عشر سنوات و ربما يقضي الطالب نصف عمره في هذه المرحلة، و قد ينتقل الطالب من أستاذ لآخر و ذلك حسب قدرته و استعداده [3]و بعد إكمال الدراسة يمنح الطالب إجازة علمية تؤكد أهليته[4].

المناهج و المواد المدرسة

لم تكن معاهد التدريس تدرس كافة العلوم النقلية و العقلية مجتمعة على نحو ما نجده اليوم ، و لم يكن من المتيسر أن تجد في المدرسة الواحدة أساتذة و معلمين لكل المواد في تلك العصور، و لعل ذلك يرجع إلى الظروف المحلية — خاصة و أن بلاد السودان لم يترسخ فيه الإسلام إلا بعد القرن(5هـــ/11م) أين تأسست الممالك الإسلامية التي اهتمت بالعلم- و لهذا كان الطلاب يضطرون للرحيل رغبة في علم لا وجود له في بلده[5].

أما البرامج و المواد فكانت في مجملها دينية :أول دروس الأطفال هي مختارات من القرآن الكريم[6]،

---

[1]- محمد بن عبد الله القضاعي ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة،تح:عبد الله الهراس،بيروت،دار الفكر،1995م، ج1،ص177.

[2]- و حسب ترجمته في المصادر العربية لا يذكر عمن درس و أين و ذيل التكملة الذي يشتمل على ترجمته الكاملة مازال مفقودا و ما أثبته العمري(ت749هـــ/13...م) في مسالك الأبصار لا يعطينا تفصيلات و التي تفيدنا في إعطاء صورة عن الحياة العلمية في بلده كانم.

[3]- عبد القادر زبادية،مملكة سنغاي،ص144.

[4]- الإجازة العلمية هي إقرار الأستاذ بأهلية الطالب بعد مدة من الانقطاع للتعلم و قد تكون شفوية بالنطف أو تحرر ورقة تمنح للطالب،إنظام الإجازة كان معروفا في بلاد السودان خاصة في عهد مملكة صنغاي كما هو معروف في العالم الإسلامي، و يذكر أحمد بابا التمبكتي و السعدي الكيفية التي أخذوا بها الإجازة، و اشتهرت الأسر التي توارثت العلم في منح الإجازات مثل أسرة:مسبغرمة ،أنظر السعدي، *تاريخ السودان*،ص66،أحمد بابا التمبكتي،نيل الإبتهاج *بتطريز الديباج*، ج2،ص373.

[5]- محمد عادل عبد العزيز،*التربية الإسلامية في المغرب*،ص19.

[6]- و يحدد ابن خلدون السبب في ذلك بأن أهل الملة متفقون في القول بأن القرآن يجب أن يسبق كل شيء إلى قلوب المتعلمين ليرسخ في نفوسهم الإيمان و عقائده كما أنهم متفقون في القول بأن ذلك مما يجب أن يتم في الصغر،أنظر:*المقدمة*،ص،ص505،506.

مبادئ في اللغة ،الخط و تعليم الفرائض ثم تلي ذلك دراسة العلوم الإسلامية المتفرعة عنها: التفسير و الحديث الفقه النحو البلاغة و يدرج الحساب ضمنها ، أما المرحلة المتقدمة من التعليم تدرس فيها المواضيع و القضايا الدقيقة في العلوم النقلية و العقلية[1].

تعتبر مادة علوم القرآن من المواد الأساسية في التدريس في جميع المراحل في الكتاتيب والمدارس و المساجد، و قد اعتنى أهل مملكة كانم –برنو بتدريس هذه المادة حتى أصبحت مشهورة بكثرة حفاظها و قرائها حيث يقول محمد بلو في هذا الصدد:" أنه لا يوجد في هذه البلاد عامة معتنون بقراءة القرآن و تجويده و حفظه و كتابته أكثرمنهم–أي أهل كانم–"[2].

و درس أهل السودان أيضا النحو و الصرف كما تطرقوا في دراساتهم إلى المنطق و الفلسفة و مقامات الحريري و أشار إلى ذلك السعدي و أحمد بابا التمبكتي[3].

و رغم الاهتمام باللغة العربية و علومها في مناهج التدريس في بلاد السودان إلا أنه لم يبرز شعراء و أدباء لهم مؤلفاتهم إلا شخصيات معينة أمثال:إبراهيم الكانمي – من السودان الأوسط–و ربما يعود هذا إلى إهمال كتب التراجم لذكر هذه الشخصيات[4].

أما مادة التاريخ لم تكن من المواد الأساسية المدرسة حيث ارتبط تدريسه برغبات الأساتذة و الطلاب لذا نلتمس قلة الدراسات التاريخية مقارنة بالدينية ، و حتى السيرة النبوية درست ضمن مادة الحديث و يؤكد لنا المؤرخ السوداني:"محمود كعت" إهمال هذه المادة من خلال قول:"لما رأيت إهمال الناس للتاريخ على ماله من فائدة جليلة في معرفة البلاد و تسقط أخبار أبطالها ،التمست من الله جلت قدرته أن يساعدني على كتابة هذا التاريخ الذي يبحث في سلاطين السودان"[5] .

و بالنسبة للكتب هي نفسها المتداولة في بلاد المغرب نذكر منها:ألفية ابن مالك و شروحها،المعيار الونشريسي ،المدونة الكبرى ،رسالة ابن زيد القيرواني،مختصر خليل،كتب الحديث الصحيحين لمسلم

---

[1]– أول ما اتجه إليه المسلمون هي علوم القرآن و الحديث ثم استنتجوا منها الفقه و أطلق عليها العلوم النقلية و منهج البحث و التأليف فيها يعتمد على الرواية و تتبع الرواة و مراجعة النص في الكتاب و السنة ،بعدها بدأ المسلمون ينقلون الكتب اليونانية و الإغريقية و ترجمت إلى العربية فظهروا نوابغ في هذه العلوم و صححوا كثيرا من النظريات و أستنتجوا نظريات أخرى و كتبوا في مجالات أخرى و تسمى هذه العلوم العقلية و تعتمد التجربة و التدقيق المنطقي و الفحص العلمي،أنظر:محمد بكر العليان، *التربية و التعليم في الدول الإسلامية في القرن الرابع عشر*،ص،ص26،27.

[2]– *انفاق الميسور*،ص 47. ، أحمد محمد كاني،*الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا*،ص 21.

[3]– السعدي، *تاريخ السودان*،ص46،أحمد بابا التمبكتي، *نيل الابتهاج بتطريز الديباج*، ج2،ص377.

[4]– محمد ابن شريفة،*إبراهيم الكانمي أنموذج مبكر للتواصل الثقافي بين المغرب و بلاد السودان*،ص 15.

[5]– محمدكعت،*تاريخ الفتاش*،ص9.

و البخاري، مقامات الحريري و الهمداني، بالإضافة لبعض الكتب في التاريخ و الجغرافيا و الفلك [1]

المؤسسات التعليمية

أما أماكن التدريس فتمثلت في الكتاتيب و المدارس النظامية و المساجد (الصغرى و الكبرى الجامعة)،و ضمت حتى قصور الملوك.

1:المساجد: لقد كانت المساجد في بلاد السودان كسائر البلاد الإسلامية على رأس معاهد التعليم و الثقافة ،فهي أول المؤسسات التي انطلق منها إشعاع التفكير و العلم و المعرفة، و المسجد يحمل خاصية أساسية بالنسبة للحضارة الإسلامية ،و له أهمية كبرى و دور عظيم في تنمية العقل البشري و رقيه[2].

و قد ظل المسجد على امتداد تاريخ المسلمين مؤسسة تعليمية للصغار[3] و الكبار[4] و أول الأمكنة التي تحقق الأهداف الثقافية و الحضارية لتربية الإنسان، فضلا عن أداء فريضة الصلاة و إحياء الأعياد و مكان عقد الزواج و تشييع الجنازات ،فهو منطلق التعليمات و التوجيهات إلى المجتمع[5].

انتشرت المساجد في بلاد السودان منذ وصول المسلمين إلى هناك و كانت محل التعليم على غرار البلاد الإسلامية،و رغم انتشار المدارس ظلت تقوم بدورها بل و ارتفع فيه مستوى التعليم حتى أطلق على بعضها جامعات،و كانت المساجد على نوعين:

- المساجد الكبرى الجامعة:يقوم بإنشائها عادة السلاطين و الحكومات و تقوم بالعناية بها .
- المساجد الصغرى:يقوم بإدارة شؤونها الأهالي[6].

و أول من اهتم ببناء المساجد هم الدعاة كوسيلة لتوطيد الإسلام في بلاد السودان[1]، وكلما توسع توسع انتشار الإسلام في هذه المناطق ازداد معه بناء و تشييد المساجد ،و بقيام الممالك الإسلامية

---

[1]- أحمد محمد كاني،المرجع السابق،ص36.

[2]- محمد بكر العليان،*التربية و التعليم في الدول الإسلامية*،ص27.

[3]- من المعلوم أن المسلمون كانوا يتخذون الأماكن اللاصقة للمسجد مراكز لتعليم صبيانهم القراءة و الكتابة،أنظر:فوزية بنت حمد آلالعالي،المؤسسات التربوية الإسلامية" موقع:www.biblioislam.net

[4]- تحولت العديد من المساجد الكبرى في المدن الإسلامية إلى جامعات تشرف على الدراسات العليا للطلبة مثل:جامع الأزهر،جامع الزيتونة،جامع سنكري بتمبكتو،أنظر:أحمد شلبي،*موسوعة التاريخ الإسلامي*،ج6،ص،ص175،176.

[5]- محمد بكر العليان،المرجع السابق،ص28.

[6]- محمد عادل عبد العزيز ،*التربية الإسلامية في المغرب*،ص49.

بعد القرن5هـــ/11م أشرف سلاطينها على بناء عدد كبير من المساجد لاستيعاب المصلين[2].

و كان للماي" عبد الجليل سلمة" (591هــ-618هـــ/1194م-1221م) الفضل في بناء أعظم مسجد بمملكة كانم ،كما عرفت العاصمة الجديدة للمملكة –المرحلة البرنوية- و اسمها"غسرغمو" أو"وانغورغمو" أربعة مساجد كبرى لصلاة الجمعة مما جعلها مركزا علميا مهم في بلاد السودان الأوسط[3]. كذلك عرفت كل من كانو و كاتسينا و زاريا في بلاد الهوسا انتشار المساجد فيها منها المسجد الكبير في كانو الذي بذل له الحكام الكثير من الاهتمام و حاولوا جعله يماثل المسجد الكبير "سانكري" في تمبكتو،أما مسجد كاتسينا الكبير فجلس للتدريس فيه كبار العلماء منهم:العالم الجليل جلال الدين السيوطي [4] .

كان التعليم في المساجد يختلف من مسجد لآخر،فالمساجد الصغرى في المدن و القرى اختصت بالمراحل الأولى كتحفيظ القرآن و قواعد الصلاة و تعلم الخط و شيء من قواعد التوحيد و اللغة[5]،أما المساجد الكبرى فكانت عبارة عن جامعات و معاهد كبرى و مراكز ثقافية و تربوية حققت الأهداف المنوطة بها[6] و قد جلس للتدريس فيها كبار العلماء من العالم الإسلامي الذين ارتحلوا إلى هذه المناطق ،كما تتلمذ بهذه المساجد العديد من الدعاة و المعلمين و القضاة مثل:أحمد بن فرتو مؤرخ البلاط في مملكة كانم برنو في الرن10هـــ/16م[7]

و قد تأثرت المساجد بطابع المساجد الإسلامية في بنائه و تنظيماته و تخصصاته ، و الجدير بالذكر هنا أن المساجد التي سادت السودان الأوسط مازالت تتميز بفنها المعماري الإباضي –شكل المئذنة-[8]

و كان المسجد في بلاد السودان إضافة لما قيل حرمة كبير لدى السكان عامتهم و خاصتهم حتى

---

[1]- يذكر لنا البكري أن مملكة غانة الوثنية كان بعاصمتها"كومبي صالح" حوالي 12مسجدا ،كما تحدث ابن بطوطة عن المساجد في مملكة مالي و ذكر أنها منتشرة في جميع أرجائها،أنظر:البكري،*السالك و الممالك*،ص175،ابن بطوطة،*تحفة النظار*،ص690.

[2]- فضل كلود الدكو،*الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم*،(د.ط)، منشورات كلية الدعوة،1998م،ص125.

[3]- عثمان براياباري،*جذور الحضارة الإسلامية*،ص81.

[4]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي،*حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*،ص،ص155،158.

[5]-" انتشار الدعوة الإسلامية في السودان الأوسط" موقع :www.Alukah.net

[6]- عثمان منادي،*الحياة العلمية في حواضر الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا*،ص91.

[7]- أحمد محمد كاني،*الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا*،ص 17.

[8]- محمد صالح ناصر،*دور الإباضية في نشر الإسلام في غرب إفريقيا*،(د.ط)،بيروت،دار الفكر العربي1992م،ص53.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بلغ درجة التقديس،فكان من يستجير بالمسجد لا يناله شر حتى من السلاطين أنفسهم[1]، و الملاحظ أن المساجد بهذه المناطق لم يبقى منها أثر و ذلك راجع إلى عامل البيئة من جهة و راجع كذلك المواد التي كان يشيد بها[2]

2:الكتاتيب و المسيح

–الكتاتيب: هي من أقدم و أهم الوسائط الثقافية بعد المساجد و الجوامع التي أسهمت في نشر العلوم و المعارف الإسلامية ،و الكتاتيب جمع كتاب و هو لفظ مشتق من التكتيب و تعلم الكتابة[3]، و مهما مهما يكن من أمر فالشيء الثابت أن الكتاب من أقدم المؤسسات التي عرفتها مهنة التعليم،فلم يخل منها شارع و لاحي من أحياء المدن[4].

و من هذا فالكتاتيب أو الكتاب يطلق على المحل الذي يتعلم فيه الصبيان و تقوم محل المدارس الابتدائية في وقتنا الحاضر،حيث يبدأ الطالب بها حياته العلمية[5]، و لقد كان الهدف من ايجاد تلك الكتاتيب هو إنشاء الصبيان تنشئة دينية قويمة عن طريق إقرائهم لكتاب الله و تحفيظهم إياه سواء كان كلا أو جزءا،بالإضافة إلى ضرورة الإلمام بقواعد الكتابة و القراءة و بعض المبادئ الدينية و مبادئ الحساب[6]، و من هنا يتمثل عمل الكتاتيب في تهيئة الطالب للدخول في المرحلة الثانية.

و السن المحددة لدخول الصبي الكتاب من الخامسة أو السابعة غالبا،أما المعلمون يتولون أعمالهم بشكل حر ، و وجدت الكتاتيب على نوعين: كتاتيب ينشئها المعلمون و كتاتيب تنشئها الدولة لغير القادرين من أبناء العامة[7].

---

[1]-السعدي،*تاريخ السودان*،ص7.

[2]– كانت المواد المستعملة من الطين المجفف،الأخشاب،القش،و استعمل في السودان الأوسط الطوب الأحمر،أنظر :عبد القادر زبادية،مملكة سنغاي،ص131.

[3]– و قد يقال المكتب موضع التعليم،و الجمع المكاتب و الظاهر أن كلمة كتاب جمع كاتب،فأطلق المكان على من يعمل به،أنظر : ابن المنظور،*لسان العرب*،ص 193،الفيروز أبادي، *القاموس المحيط*، ج1،ص126.

[4]– يوسف بن أحمد حوالة،*الحياة العلمية في إفريقية*،ص226.

[5]– نعيم قداح،*إفريقيا الإسلامية في ظل* الإسلام،ص145.

[6]– و ليس هناك ازدواجية في هذا بين المساجد و الكتاتيب فالمساجد تعتمد على الحلقة،بينما الكتاتيب مقتصرة على الصبيان عن طريق تقديم محصلة متواضعة،أنظر:يوسف بن أحمد حوالة،المرجع السابق،ص227.

[7]– كريم مناحي الصيرفي،"تطور المدرسة و الفكر التربوي عبر القرون"،ص94.

و الكتاتيب كانت منتشرة بكثرة في جميع المدن و القرى السودانية ، حتى أن المعلمون قد اتخذوا لصبيانهم مجالس في العراء أو تحت ظلال الأشجار إلا أن الغالب أن تكون لهم دور بمحاذاة المساجد[1] و تؤكد المصادر المحلية على انتشارها الواسع في مملكة كانم –برنو،لذا تميزت بكثرة حفاظها حيث كان يتسابق آلاف القراء للحصول على لقب"فوني" التي تعني بلغة الكانوري الشخص الماهر في تلاوة و

حفظ الذكر الحكيم[2].

ـالمسيج:و هو مصطلح تشادي يطلق على الموضع الخاص بتعليم و تحفيظ القرآن ،و اشتقت كلمته من الكلمة العربية"مسجد" ،و ربما اشتقت من السياج الذي يحيط بفضاء من الأرض ثم طرأت على الكلمة التحريف ،و قامت هذه المدارس بدور كبير في تعليم القرآن الكريم و تجويده[3].

3:المدارس[4]:اهتمت بتعليم الطلاب بعد اجتيازهم المرحلة الدراسية الكتابية و قد قام بتأسيس المدارس المدارس أعلام رجال الدين و جعلوا منها مكانا للدراسة و السكن ، و قاموا بتحمل الأعباء المالية و المعاشية للطلاب،ثم عملت الدول على إنشائها و رعايتها و مراقبتها و سن القوانين المنظمة لشؤونها[5].

لشؤونها[5].

و قد عرفت ممالك السودان الأوسط هذا النوع من المدارس و أشرفت على بنائها و أبرز مثال لدينا هو مدرسة "ابن الرشيق" المشهورة[6] و قد أسست في مصر لاستقبال الطلاب الكانميين،كما اشتهرت في برنو بعض المدارس على عهد السلطان "علي جاجي" في القرن9هـــ/15م وهي:مدرسة الشيخ أحمد فاطمي،و مدرسة كالومباردو التي تقه على بعد خمسين ميلا من العاصمة "غسرغمو"[7]،كما تذكر المصادر أيضا العلماء الذين رحلوا إلى هذه المناطق عملوا على إنشاء مدارس

---

1 – نعيم قداح،المرجع السابق،ص145.

2 – أحمد محمد كاني،*الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا*،ص21.

3 – فضل كلود الدكو،*الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم* ،ص125.

4 – يرى المقريزي أن المدارس لم تكن معروفة في عهد الصحابة إلى غاية القرن5هـــ/11م ، و يرى المؤرخون أن نشأة المدرسة في المجتمعات الإسلامية بها الكثير من الغموض و إن اتفقوا على أن أول مدرسة في الإسلام بنها الطوسي وزير الملك شاه السلجوقي أواسط القرن القرن5هـــ/11مأنظر: Sayyed Hosseine Nasre,op cit,p70.

5 – كريم مناحي الصريفي، تطور المدرسة و الفكر التربوي عبر القرون ،ص95.

6 – الزركلي،*الأعلام*، ،ط4،دار المعلمي،بيروت،1980م، ج6،ص216.

7 – عطية مخزوم،*دراسات في تاريخ شرق أفريقيا و جنوب الصحراء*،ص 226.

هناك مثلما فعل العالم الجليل"محمد بن عبد الكريم المغيلي" الذي ابتنى مدرسة بكاتسينا في بلاد الهوسا[1].

ـ**المكتبات**:إن المكتبة برسالتها و هدفها تمثل صورة حية و صادقة للأمم و تقدمها ،كما تعتبر مظهر حضاري لمدى اهتمام الشعوب بالفكر و صيانة آثاره من العبث و الضياع ،فضلا عن الدور الذي تؤديه لحفظ ما خلف السلف من كنوز المعرفة[2]، لذا فلا خفاء أن المكتبات كانت من أهم الوسائط الثقافية التي أسهمت في نشر الثقافة و العلوم في الدول الإسلامية،و قد لقيت على يد المسلمين الحظوة و المكانة و الاهتمام فاق ما كان للشعوب الأخرى في العصور الوسطى[3].

و بلاد السودان عموما لم تقل اهتماما بالكتب و المكتبات عن غيرها من الأمصار و الأقاليم، فكان من أهل السودان النساخ لنسخ المخطوطات ، كمل عرفت تجارة الكتب رواجا كبيرا حتى اشتروا أندر الكتب بأغلى الأثمان[4]، و أشار ليون الإفريقي إلى هذه التجارة و قال أنها تجني أرباحا كبيرة :" و يباع هنا –يقصد تمبكت– الكثير من الكتب المخطوطة التي تأتي من بلاد البربر و يجنى من هذا البيع ربح يفوق كل بقية السلع"[5]،و يدلنا هذا النص أن أهل السودان عرفوا المكتبات العامة و الخاصة[6]، و التي كانت توجد في المساجد و القصور و بيوت الأعيان و العلماء[7].

و في ظل غياب النصوص على وجود المكتبات العامة و أماكنها في ممالك السودان الأوسط إلى أنه يمكن القول أنها عرفت هي الأخرى المكتبات و دخلتها العديد من الكتب على يد العلماء و المهاجرين و السلاطين و من الإشارات على ذلك أن الفقيه" دبلن بن بكر" قرأ مئة و خمسين كتابا من كتب الفقه و الدين مع ابن السلطان سلما في عهد والده المي سلما(590هـ–618هـ/1194م–1221م) و عدد الكتب المذكور هنا يدلنا على امتلاك العلماء و السلاطين لمجموعات قيمة من الكتب و التي يمكن اعتبارها مكتبات خاصة[8].

---

[1]– أحمد إبراهيم دياب،"علماء السودان الغربي في القرنين 16 و 17م"،ندوة العلماء الأفارقة،بغداد،1985م،ص145.

[2]– أبو الفتوح حامد عودة،*المدخل إلى علوم المكتبات*،(د.ط)،لأسكندرية،دار الثقافة العلمية،ا،2001م،ص9.

[3]– يوسف بن أحمد حوالة، *الحياة العلمية في أفريقية*،ص250.

4– و مثالنا في ذلك ملك غاو الأسكيا داوود الذي اشترى قاموسا بمبلغ ثمانين مثقالا ،أنظر:محمدكعت، تاريخ الفتاش،ص،ص 108،109.

[5]- الحسن الوزان،*وصف أفريقيا*،ج2،ص29.

[6]– مسعود خالدي، *الجاليات العربية و البربرية في إفريقيا جنوب الصحراء*،ص446.

[7]– تذكر المصادر أن بمملكة سنغاي مكتبات ضخمة للسلاطين و الخواص و العلماء، و جعل بعض السلاطين المكتبة مؤسسة كبقية المؤسسات لها موظفوها من النساخ،أنظر:محمد كعت، المصدر السابق،ص،ص108،109.

[8]– عبد الفتاح مقلد الغنيمي، *حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*، ص130.

و تذكر بعض المخطوطات أن بلاد الهوسا هاجرت إليها جماعة من علماء الفلانيين في القرن9هــ/15م و قد حملت معها مجموعات من الكتب في المذهب المالكي و اللغة العربية لم تكن معروفة لدى سكان المنطقة، مما يشير على أن هؤلاء العلماء امتلكوا مكتبات خاصة نقلوها معهم إلى بلاد الهوسا.

كما تكشف لنا الرواية مدى اهتمام علماء و طلاب العلم في هذه المناطق بالكتب و الحرص على اقتنائها و نسخها من الوافدين من الشرق و الغرب و يقول أحد المؤرخين المحليين:" و شاع في الناس أن رجلا مشرقيا جاء بكتاب يقال له الخليل و قد أعجب الناس فابتدروا تلك الليلة إلى ذلك الشيخ

أن عالم هذا البلد قادم عليك فشمر على ساعديك...فلما فرغ من القراءة-أي عالم تلك البلاد- قام إلى منزله و قال لطلابه إنه المدونة فانسخوه و اقرءوه علي فنسخوه..."[1].

و ضمت المكتبات مجلدات عن حياة الرسول صلى الله عليه و سلم ،و صحيح البخاري و مسلم، كتب الفقه المالكي و تعليقاته الكثيرة منها:رسالة ابن أبي زيد القيرواني المدونة ...،إضافة إلى كتب الشعر و الأدب الرفيع مثل:مقامات الحريري و الهمداني، كما ظهرت بهذه المكتبات الكتب الجغرافية و العلمية البحتة[2].

_ **قصور الملوك**: لا يختلف تعليم القصور عن تعليم المسجد و المدرسة إلا أنه يتميز بتدخل السلاطين في وضع المواد المدرسة لأبنائهم،حيث يتم تعليم الصبيان نوع من الثقافة و المعرفة تعدهم لما سوف يحملونه من أعباء في المستقبل[3]،و قد شهدت قصور ملوك السودان الأوسط مثل هذا التعليم فالفقيه " " محمد بن ماني" و الفقيه "ذبلن بن بكر" و " عمر بن عثمان مسبغرمة" من العلماء و المؤدبين في قصور مايات كانم- برنو و لهذا فليس بمستغرب أن تكثر مجالس العلم التي كان يحضرها علماء من ذوي المعرفة أو يكون للسلاطين و الأمراء و أبنائهم مجالس لتعلمهم فقط[4].

---

[1]- أحمد محمد كاني، *الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا*،ص 34.

[2]- حسن أحمد محمود،*الإسلام و الثقافة العربية في أفريقيا*،ص 244.

[3]- كريم مناحي الصريفي، "تطور المدرسة و الفكر التربوي عبر القرون "،ص94.

[4]- عز الدين عمر موسى،انتشار الإسلام في غرب أفريقيا،ص 56،أنظر :عبد الفتاح مقلد الغنيمي،*حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*،ص130.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا:الرحلة العلمية

أما عن الرحلة العلمية فقد كانت من أهم سمات أو الخصوصيات الثقافة الإسلامية، و كانت أمرا شائعا في الشرق و الغرب في العصور الوسطى،و كان العلماء يحثون طلبتهم عليها حيث يترك الطالب بلده بعد أن يحصل ما لدى علمائها،فيتوجه إلى مراكز العلم المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي و يكابد مشاق السفر و أخطاره،فحب العلم حمل المسلمين إلى آفاق بعيدة و قلما نجد من العلماء من لم يرحل في طلبه[1].

و قد عد اقتصار الطالب على شيوخ بلدته قدح في قيمة ما يحمل من علم،و أشار ابن خلدون إلى فوائد الرحلة في طلب العلم و ضرورتها عندما قال:" إلا أن حصول الملكات عن المباشرة و التلقين أشد استحكاما و أقوى رسوخا،فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات و رسوخها،و الاصطلاحات أيضا في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم،حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم،...فلقاء أهل العلوم ،و تعدد المشايخ ،يفيد تمييز الاصطلاحات ، بما يراه من اختلاف فيها، فيجرد العلم عنها و يعلم أنها تعليم و طرق توصيل، و تنهض قواه إلى الرسوخ و الاستحكام في المكان...فالرحلة لابد منها في طلب العلم ،لاكتساب الفوائد و الكمال بلقاء المشايخ و مباشرة الرجال"[2]، و يقول الشيخ المغيلي في هذا الصدد أن تحصيل العلم لن يأتي إلا بالأخذ عن شيوخ العلم و شد الرحال إليهم ، و لو كانت الكتب و الشرائح كافية في التفقه لما كان الناس يقرؤون عن الأشياخ و يرتحلون إليهم قديما و حديثا في مشارق الأرض و مغاربها[3].

و علماء و طلبة العلم في الممالك الإسلامية ببلاد السودان الأوسط لم يكونوا بمعزل عن مراكز الثقافة في الأمصار الإسلامية القريبة إليهم، فقد خرج الطلبة يبحثون عن العلم في كل مكان و يتتبعون العلماء و المشايخ و يدرسون عليهم و ينقلون مؤلفاتهم.

و مما لا ريب فيه أن هناك عوامل وراء نجاح الرحلة العلمية من و إلى بلاد السودان الأوسط و هي أنهم- أي أهل السودان- يدركون موقف الإسلام من العلم و الحث عليه و الرحلة في طلبه[4] ، كما أعان على كثرة الرحلات ما كان يلقاه الطلاب و العلماء من رعاية فأينما ذهب الغريب في أنحاء العالم الإسلامي في العصور الوسطى وجد المكان الذي يبيت فيه و الموضع الذي يأويه، و كانت

---

[1]- محمد عادل عبد العزيز،*التربية الإسلامية في المغرب*،ص30.

[2]- ابن خلدون،*المقدمة*،ص ،ص559،560.

[3]- المغيلي، *أحكام أهل الذمة*، ف6،ص34 نقلا عن منير بوغرارة، *محمد بن عبد الكريم المغيلي و مساهمته في الثقافة الإسلامية في غرب أفريقيا*،ص67.

[4]- أنظر :الفصل 2 المبحث الأول .

المساجد و المدارس معدة لإيواء الطلبة و النفقة عليهم[1] ،فجامع الأزهر بمصر خصص رواق لطلبة العلم من أهل السودان و هي سكنات للطلبة[2] و من ذلك أيضا مدرسة ابن الرشيق، السالفة الذكر خصصت هي الأخرى سكنات لطلبة[3].

و من العوامل أيضا التي ساعدت على نجاح هذه الرحلات هي أداء فريضة الحج، فكثيرا ما رافق الشيوخ و الطلبة رحلات الحج أين أتيحت لهم الالتقاء بالعلماء و الأخذ عنهم و هم سائرون في الركب[4]، كما أن قوافل الحجيج كانت تمر بالمراكز العلمية في البلاد الإسلامية على رأسها مصر بالنسبة للغرب حتى تصل الحجاز.

و كان العلماء و الطلبة و حتى العامة من السودان ينتهزون فرصة خروج سلاطينهم للحج[5] للسير في ركابهم ، و سلكت هذه القوافل غالبا في طريقها إلى الحج طريق القوافل التجارية كالطريق الشمالي الذي يمر عبر الصحراء إلى ساحل البحر ثم يتجه شرقا[6]، أو سلكت الطريق المعروف بدرب الأربعين ، كما سلك بعضهم الطريق الشرقي الذي كان يتجه إلى موانئ بحر القلزم(البحر الأحمر) عبر دارفور و بلاد النوبة [7]، وكانت المواكب القادمة عبر الأراضي المصرية الأثر في تمتين العلاقات من جهة، و تعريف أهل السودان من خلال المشاهدة و المخالطة على المسلمين و التشبع بثقافتهم و أفكارهم[8]، حيث كان يتوجب على المواكب القادمة الإقامة في مصر لأشهر انتظارا لموعد رحيل الحجاج المصريين، و من ثم انقطع الكثير من أهل السودان إلى تلقي العلوم و الآداب التي كانت مزدهرة فيها[9].

كما كانت تمر ببلاد السودان الأوسط مواكب الحج القادمة و العائدة من السودان الغربي و التي ضمت الكثير من علماء و المعلمين و القراء مما ترك أثرا كبيرا على الحياة العلمية هناك [10] و يشير

---

[1]- محمد عادل عبد العزيز،*التربية الإسلامية في المغرب*،ص31.

[2]- أحمد شلبي، *موسوعة التاريخ الإسلامي*، ج6،ص 178.

[3]- شوكت عارف الأتروشي،*دولة كانم الإسلامية*،ص104.

[4]- عبد القادر زبادية،*دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر و مؤلفات العرب و المسلمين*،ص43.

[5]- خرج العديد من سلاطين بلاد كانم – برنو إلى الحج ابتداءا من أول سلطان مسلم " الماي هيوم " 478هـ- 491هـ/1085م-1097م، الذي توفي في مصر و هو فيعائد من الحج ثم أعقبه ابنه السلطان دونمة بن هيوم 491هـ-545هـ/1097م-1150م و الذي كانت له أكثر من رحلة حج ،أنظر:.Ency of islam,art :kanem,vollv ,p541

[6] -Adamou Aboubacar,Les relations entre les deux rives du sahara ,Rabat,Publication de l’institut des Etudes Africaines,2005,p20.

[7] -Trimingham,The influence,p64.

[8]- شوكت عارف الأتروشي،المرجع السابق،ص 103.

[9]- نفسه،ص104.

[10]- أحمد محمد كاني، *الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا*،ص 33.

السعدي إلى أن الحاج أحمد بابا التمبكتي عند عودته من الأراضي الحجازية مكث في مدينة كانو وقتا يعلم الناس الفقه و العلوم الإسلامية و التي كان يلقيها عقب صلاة العصر في المسجد الكبير[1].

و الجدير بالملاحظة هنا أن حكام الممالك السودان الأوسط لم يضعوا أما حركة العلماء و الطلبة في دولهم أية عوائق، كما سمحوا للوافدين منهم الإقامة عندهم و التمتع بكل المميزات، و هذا الاهتمام شجع الكثير من علماء من بلاد المغرب و مصر على التوجه للتعليم في هذه المناطق[2]، لذا نجد نجد نوعين من الرحلة كرحلة العلماء و الطلبة السودانيين إلى المراكز الثقافية في الشمال مصر و القيروان و فاس و مراكش و رحلة إلى المراكز الثقافية المحلية في الغرب تمبكتو و غاو و جني، فتدفق على هذه المراكز طلاب العلم من السودان الأوسط و بسبب تزايد عددهم خصص لهم سكنات و رواق في جامع الأزهر كما تطرقنا لذلك و ابتنيت لهم مدرسة ابن الرشيق[3]. و من النماذج المبكرة لرحيل العلماء إلى بلاد المغرب "ابراهيم الكانمي" و حسب الدراسات و تحليل النصوص فإن سند الكانمي في التعليم على مايبدو هو سند مغربي،فكتاب الجمل الذي درس بواسطته النحو كان الكتاب الأول الذي يدرس به المغاربة في هذا العصر و قبله[4]، و من الشخصيات التي قصدت بلاد المشرق "عمر بن عثمان مسبغرمة "من أشهر علماء أسرة مسبغرمة [5] ،رحل إلى الأزهر و منه انتقل إلى مكة و المدينة ثم بغداد و عاد أخيرا إلى كانم و استقر بها ليعلم العلوم الدينية و ذاع صيته أيام الماي"علي بن إدريس" (950هـــ-983هـــ/1548م-1580م) [6]، ومن علماء الهوسا نذكر العالم"عبد الله سك" رحل إلى أغاديس و فزان و درس فيهما وصفه "انفاق الميسور:" الشيخ العلامة الفهامة وحيد عصره عبد الله سك الفلاني الغاوي"[7].

أما النوع الثاني من الرحلة هي رحلة العلماء المشارقة و المغاربة إلى السودان الأوسط(الوافدين) ،فقد قصد المنطقة العديد من العلماء جلسوا يعلمون أهل السودان أمور دينهم و ينشرون العلم و الثقافة العربية الإسلامية و تقلد هؤلاء مناصب عليا كمستشارين و قضاة من أشهرهم:

ــ **السيوطي**: قصد بلاد الهوسا العالم الجليل :جلال الدين السيوطي (849هـــ-911هـــ/1445م

---

[1]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي،*حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*، ص156.

[2]- أحمد محمد كاني، *الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا*،ص35.

[3]- حسن أحمد محمود، *الإسلام و الثقافة العربية في أفريقيا*،ص 177.

[4]- محمد بن شريفة،*إبراهيم الكانمي أنموذج مبكر للتواصل الثقافي بين المغرب و بلاد السودان*،ص 18.

[5]- اشتهرت هذه الأسرة بالعلم و هي تدعي الجذور العربية و حسب ذيوان سلاطين كانم برنو قد وفد جدها الأول على عهد الماي "هيوم"أنظر:.palmer,op cit, p16

[6]- محمد بلو،*انفاق الميسور*،ص 37.

[7]- نفسه،ص50.

-1505م) ،أقام في مدينة كاتسينا فترة من الزمن يلقي الدروس في جامعها الكبير ،كان يتمتع بمكانة عالية عند أهل السودان و يذكر أنه كان صديق شخصي للساركن "إبراهيم"حاكم كاتسينا،عاد إلى بلاده مصر سنة 876هـــ/1468م.

ـ **المغيلي**:محمد بن عبد الكريم المغيلي التواتي التلمساني، من علماء المغرب المشهورين زار مدينة كانو و كاتسينا أواخر القرن9هـــ/15م قام بنشر المعرفة و تأسيس مدرسة و المشاركة في الأمور الإدارية و تقلد منصب قاضي القضاة بكتسينا ، كما عينه سلطان كانو محمد رمفا " مستشارا سياسيا و شرعيا و يرجع إليه في المسائل الفقهية المعقدة[1]، يعتبر من الشخصيات المؤثرة فعلا في هذه المناطق.

ـ **محمد بن أحمد التازختي**(ت936هـــ/1529م) درس على أيدي مجموعة من أشهر العلماء في عصره منهم المغيلي، سافر إلى المشرق،استقر في مدينة كاتسينا وولي القضاء بها ، كما جلس للتدريس بها،من أشهر مؤلفاته شرح لمختصر الخليل[2].

و تشير المصادر أيضا إلى رحلات جماعية للعلماء من مصر و سنغاي و كانت لهم إسهامات في النشاط الفكري[3] ، و يمكن القول أخيرا أن الرحلات العلمية كانت وليدة جو العلمي الذي أحدثته قيام ممالك إسلامية هناك.

---

[1]- أحمد بابا التمبكتي، *نيل الإبتهاج بتطريز الديباج*،ج2،ص 65و أنظر:أبو عبد الله محمدابن مريم،*البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان*،تح:محمد أبي شنب،(د.ط)،الجزائر،المطبعة الثعالبية،1908م،ص245.

[2]- السعدي، *تاريخ السودان*،ص40،أحمد بابا التمبكتي، المصدر السابق،ج2،ص587.

[3]- أحمد محمد كاني،*الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا*،ص 34.

ثالثا:انتشار اللغة العربية و المذاهب الإسلامية

أ_ انتشار اللغة العربية

مما لا شك فيه أن اللغة من أهم وسائل الاتصال بين الأفراد و الشعوب[1] ، و بقدر معرفة الإنسان للغة أخيه كان التفاهم بينهما أيسر و التقارب أكثر و العلاقة أوثق، و أمكن بذلك تبادل و تلقي الآراء و الأفكار في يسر و سهولة[2]، و هذا الترابط عامل عظيم في جعل المتكلمين لغة واحدة يؤلفون أمة واحدة[3]، فاللغة هي عماد الثقافة للأمم[4].

و كانت اللغة العربية في بلاد السودان هي لغة الاتصال و مظهر من مظاهر انتشار الإسلام و العلوم الإسلامية ،و قد هيأت مجموعة من الظروف و ساعدت على انتشار ها في تلك البلاد منها:

ـ أن اللغة العربية عن طريقها يمكن أداء الشعائر الدينية من جهة، و من جهة أخرى لا يمكن فهم التعاليم و التشريعات التي جاء بها القرآن[5] إلا عن طريق تعلم اللغة العربية و فهم قواعدها،لذلك انتشرت جنب إلى جنب مع الإسلام[6].

ـ كما كان لانتشار القبائل العربية و خاصة عرب جذام و الحساونة و جهينة أثر كبير في انتشار اللغة العربية، حيث لم تكتفي هذه القبائل بإدخال الإسلام إلى تلك المناطق بل سعت إلى طبع المنطقة بالطابع العربي الإسلامي و هذا بنشر اللغة العربية[7].

ـ و من العوامل أيضا التي ساعدت على انتشار اللغة العربية هو العامل الحضاري، فعلماء اللغة يقولون بأنه إذا التقت لغة ذات تراث حضاري تفوق مع لغة أخرى حظها من ذلك التراث قليل

---

[1]- محمد عبد الغني سعودي،*قضايا إفريقيا*، (د.ط)،الكويت المجلس الوطني للثقافة و الفنون، ،1980م،ص107.

[2]- مصطفى حجازي السيد حجازي،*الألفاظ العربية في لغة الهوسا* ،لمملكة العربية السعودية،جامعة محمد سعود الإسلامية،ا ، 1426هـ/2005م،ص5.

[3]- إن الأمة الإسلامية كمثال كانت بوتقة ضمتها مركبات مختلفة كانت قبل ذلك غريبة عن بعضها البعض،و حصل تماس و انصهار للتقاليد و اللغات في المناطق التي وصلها الإسلام و حضارته،أنظر:موريس لومبارد،*الجغرافية التاريخية*،ص124.

[4]- محمد عبد الغني سعودي،المرجع السابق،ص 107.

[5]- و قد أجمع أغلب العلماء على عدم جواز ترجمة القرآن و كذلك عدم جواز كتابته بغير اللغة العربية و عدم جواز القراءة في الصل الصلاة بغير العربية،رغم أن الإمام أبا حنيفة قد أجاز بعض حالات القراءة في الصلاة بالفارسية،إلا أن كل الفقهاء نهوا عن ذلك و ربما هذا ما ساعد على انتشار العربية على هذا النحو،أنظر:حسن أحمد محمود،*الإسلام و الثقافة العربية في أفريقيا*،ص50.

[6]- يوسف بن أحمد حوالة،*الحياة العلمية في أفريقية*،ص90.

[7]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي،*حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*،ص 129.

ينتهي الأمر بتغلب اللغة الأولى، و كانت أغلب اللغات الإفريقية[1] قليلة الحظ من الحضارة ، فلم تستطع أن تصمد طويلا أمام لغة العرب و ثقافتهم و دينهم، فخضعت لمؤثراتها.

و أصبحت اللغة العربية بذلك من أوسع اللغات المنتشرة في بلاد السودان الأوسط خاصة و أنها لغة العلوم الإسلامية ، فجميع المعارف تدرس و تستوعب بواسطة اللغة العربية و هي لغة الكتابة أيضا، ولغة المراسلات،غير أن التدريس في المساجد كانت تستخدم فيه اللهجات المحلية[2] بعد طبعا إلقاء الدرس بالعربية و هذا للعامة، أما طلاب العلم الذين انقطعوا للدراسة فكانوا يدرسون باللغة العربية ، و هكذا أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب و لغة الإدارة و المعاملات الرسمية و المعاهدات[3].

و قد بلغت اللغة العربية درجة كبيرة من التقدم في مملكة كانم برنو فكانت هي لغة المحارم و الوصايا التي تصدر من طرف المايات و من ذلك المحرم الذي أصدره "هيوم"أو"أومي جليل" (478هـ-491هـ/1086م-1097م) و الذي يصف فيه مناقب أحد العلماء من أسرة مسبغرمة و يعرف بالأعمال التي قام بها و منح على إثرها هو و أولاده امتيازات عديدة[4] لهذا العالم، كما يورد لنا القلقشندي رسالة بعثها سلطان كانم – برنو "عثمان بن إدريس"(789هـ-794هـ/1387م-1391م) إلى سلطان المماليك "الظاهر برقوق" (738هـ-801هـ/1338م-1398م) و قد دونت هذه الرسالة باللغة العربية، مما يدل على أن أهل كانم قد تعاملوا باللغة العربية [5]، و ظهرت بالمملكة مؤلفات عربية تدل على مدى تقدم اللغة منها: تاريخ إدريس ألومة لصاحبه أحمد بن فرتو – سنأتي على ذكرة- [6]، و على الجانب الآخر فإن اللغة العربية

---

[1]– تعتبر القارة الإفريقية شديدة التعقيد من الناحية اللغوية،حيث فيها ما يزيد عن 800لغة منفصلة ، و أهم هذه اللغات التي تعدت الأهمية المحلية: اللغة الأمهرية تسود أثيوبيا، اللغة السواحلية من لهجات البانتو تنتشر في شرق إفريقيا، لغة الهوسا تنتشر في وسط و غرب إفريقيا، اللغة الأفريكانية في جنوب القارة،أنظر:

Jean Surt canale,Afrique noir occidentale et centrale,3édition,Paris,édition sociales, 1961,p-p64-69.

[2]– ابن بطوطة،تحفة النظار،ص 686.

[3]– عبد الفتاح مقلد الغنيمي،*حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*،ص 117أنظر:أحمد شلبي،*موسوعة التاريخ الإسلامي*،ج6،ص57.

[4] -plmer ,op cit,p16.

[5]– القلقشندي،*صبح الأعشى*،ج8،،ص116،118.

[6]– مسعود خالدي،ال*جاليات العربية و البربرية في أفريقيا جنوب الصحراء*،ص430.

قد أغنت لغة الكانوري بمئات من الألفاظ الدينية و الاقتصادية حيث عثر في كانم على شواهد لقبور مكتوبة باللغة العربية[1].

أما بلاد الهوسا و رغم تأخر حكامها في تبني الدين الإسلامي كدين رسمي لدولهم إلا أن اهتمامهم بتحفيظ القرآن و تعلم علوم الدين أن أكسب اللغة العربية مسحة التقديس عندهم و أينما سارت الدعوة الإسلامية سارت معها اللغة العربية[2]، و قد جاء هذا التأثير من مملكة كانم – برنو حيث رحل من علمائها إلى بلاد الهوسا و حملوا معهم ما استطاعوا من الكتب العربية[3] ، هذا فضلا عن الرسائل التي وجهت للسلاطين من طرف الفقهاء و العلماء و التي جاءت كلها باللغة العربية (ما دونه المغيلي و السيوطي عند زيارتهما) مما يدل على استعمال اللغة العربية خاصة لدى الطبقة المثقفة و طلاب العلم [4]، أما تأثير اللغة العربية في هذه المناطق يظهر حقيقة في تأثر اللغات المحلية و اكتسابها العديد من الألفاظ العربية ، و أبرز مثال يظهر في لغة الهوسا و لغة الفولاني.

و لغة الهوسا و الفولاني من أهم لغات منطقة السودان الأوسط و أكثرها انتشارا و الممتدة من شمال السنغال حتى بحيرة تشاد ،و هما غير متساويتين في الانتشار ذلك لأن عدد المتكلمين باللغة الهوسية أكثر من المتكلمين باللغة الفولانية و السبب حسب الدارسين أن شعب الهوسا أرقى حضارة نتيجة السكن في المدن في حين الشعب الفولاني لازال إلى اليوم يسكن القرى و ينتقل من مكان لآخر مع الماشية للرعي في الأراضي الخصبة، أما عن أصول هاتين اللغتين فلا يزال موقف الباحثين متضاربا و يسوده الكثير من الغموض و عدم الدقة[5] .

و قد اكتسبت هاتين اللغتين العديد من الألفاظ العربية و يسمى هذا في الدراسات اللغوية ب:" الاقتراض اللغوي" [6]و هو ليس نقلا مباشرا من لغة إلى أخرى فالوحدات الصوتية تختلف من لغة لأخرى و هناك أصوات توجد في لغة و لا توجد في أخرى ،كما يختلف النظام المقطعي و نظام بناء

---

[1]– عبد الفتاح مقلد الغنيمي،*حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*،ص 132.

[2]– ابراهيم علي طرخان،*دولة مالي الإسلامية*،ص 153.

[3]– عبد الفتاح مقلد الغنيمي،*حركة المد الإسلامي في غربي السودان*،ص152.

[4]– بدري محمد فهد،*الصلات بين العرب و أفريقيا*،ص121.

[5]– عبد الفتاح مقلد الغنيمي،المرجع السابق،ص،ص75،76.

[6]– يجمع الدارسون في اللغة على حدوث الاقتراض الغوي خاصة من حيث الألفاظ قديما و حديثا،و تسميتهم هذا بالاقتراض من قبيل التجوز و هو نوع من التقليد ، و يكون الاقتراض وليد الحاجة أو الإعجاب ، وبعدها يصبح اللفظ المقترض ملكا للبيئة الجديدة و من حقها ـــن تشكله حسب أصواتها و قواعد نبرها ،أما حديثا فيتم الحفاظ على صورة اللفظ خاصة المصطلحات العلمية ،و عليه فظاهرة الاقتراض بين اللغات أمر مألوف خلال كل العصور التي شهدتها الحضارة الإنسانية و ينظر إليه على أنه نوع من التبادل الثقافي،أنظر: إبراهيم أنيس،"اللغات يقترض بعضها من بعض"،مجلة العربي،عدد130(1969م)،وزارة الإرشاد و الأنباء،الكويت،ص-ص66-68.

الكلمة على نحو يجعل انتقال الكلمة من لغة إلى أخرى مؤديا إلى حدوث تغيرات في بنية اللغة التي دخلتها الكلمة[1].

و حدث هذا الاقتراض نتيجة الاستعمال المزدوج لكل من اللغة العربية و اللغات المحلية،فاستعملت الأولى في علاقاتهم الثقافية و شعائرهم و معاملاتهم التجارية في حين الثانية استعملت في أمورهم الخاصة مما نتج عنه اعتماد هما ألفاظ اللغة العربية حتى وصلت نسبتها حوالي العشرين في المائة من مجموع ألفاظهم [2] و قد قدرت بعض الدراسات اللغوية أن الألفاظ العربية وصلت حوالي1400 إلى 1547كلمة تحمل نفس النطق و المعنى من العربية إلى الهوسية و الفولانية ، و الجدير بالذكر هنا أن هذا الاقتراض من اللغة العربية أحدث تقارب بين اللغة الهوسية و الفولانية مع العلم أنهما لغتين مختلفتين و لاتمت إحداهما للأخرى بصلة إلا في المفردات المستعارة من العربية كما أوضحنا[3] .

و نجد اللغة العربية أكثر وضوحا في اللغة الهوسية حيث استعارت هذه الأخيرة أكثر من مئتين كلمة عربية[4]،كما يوجد الكثير من المفردات نستطيع أن نميز أصلها العربي مثل:العادة Alada، العدل العدل Adali، الخميس Alhamis، علامة Alama، التاجر Altajiri ، الله Alla، البشير Albashiri، أربعين Arbain [5]، أما اللغة الفولانية فقد وجدت أشعار بلغتها مكتوبة بالحرف العربي خلال القرن 7هـــ/13م ،كما وجدت حوالي77لوحة في العاصمة كومبي صالح عليها آيات قرآنية وهذا يدل على استعمال الحرف العربي في هذه اللغات منذ وقت مبكر[6].

و يتطرق الدكتور حسن أحمد محمود إلى قضية انتشار اللغة العربية في القارة الإفريقية مبينا اتخاذها عدة مظاهر يمكن إجمالها فيما يلي :

ــ أن يتكلم الشعب اللغة العربية و أن يحتفظ بها إلى جانب لغته الأصلية مثل اللغة الفولانية و النوبية و البربرية[7].

---

[1]– مصطفى حجازي السيد حجازي،*معجم الألفاظ العربية في لغة الهوسا*،ص8.

[2]– محمد فاضل علي باري،*المسلمون في غرب أفريقيا*،ص 53.

[3]– محمد عبد الغني سعودي،*قضايا أفريقيا*،ص 122،أنظر :علي أيوب ناجي، *لمحات عن الإسلام في نيجيريا*،ص 41.

[4]– عبد الفتاح مقلد الغنيمي،*حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*،ص 78.أنظر ملحق رقم جدول يوضح الأصل العربي لبعض المفردات الهوسية و الفولانية.

[5]– نلاحظ هنا الأصل العربي للكلمات رغم استعمال الحرف اللاتيني في كتابتها،أنظر :محمد عبد الغني سعودي،المرجع السابق،ص 122.

[6]– نورالدين شعباني، *علاقات ممالك السودان الغربي بدول المغرب الإسلامي و آثارها الحضارية*،رسالة ماجستير، إشراف:موسى لقبال جامعة الجزائر، 2006م،ص169.

[7]– حسن أحمد محمود،*الإسلام و الثقافة العربية في أفريقيا*،ص 52.

ــ أن تكتسب اللغة نسبة من الألفاظ العربية تتوقف على مقدار التأثير الذي خضعت له مثل اللغة التيداوية شمال كانم –برنو[1]، اللغة الهوسية و الفولانية عشرين بالمائة[2] من ألفاظها عربية، أما اللغة السواحيلية وصلت الألفاظ العربية فيها إلى حوالي الستين في المائة من كلماتها حسب الدراسات [3].

ــ أن تتأثر اللغة العربية بلهجات البلاد التي سادتها و يرجع ذلك إما تغيير الحروف مثل إحلال الهمزة محل العين ،تغيير الحركات ، حذف بعض الأصوات مثل اللام في كلمة ولد، تغيير مدلول الكلمة .

ــ كتابة اللغات المحلية بحروف عربية مثل السواحيلية و الهوسا و الفولانية[4].

في الأخير بقي أن نشير أن أهل السودان استعملوا عدة أنواع من الخط العربي لكن الذي اختص به أهل السودان الأوسط هو الخط المغربي و يظهر ذلك في النقوش التي وجدت بالمساجد ووصف القلقشندي ذلك بقوله:" ...و كتاباتهم بالخط العربي على طريقة المغاربة"[5]

و الخلاصة التي يمكن الوصول إليها هو انتشار اللغة العربية قد ساعد على نمو الحركة العلمية كما أن الحركة العلمية رسخت اللغة العربية لدى أهل السودان و أثرت بشكل واضح على لغاتها المحلية.

ب_انتشار المذاهب الإسلامية

كان من الطبيعي أن يتأثر المناخ الثقافي ببلاد السودان الأوسط بالطابع المغربي و يصبغ بصبغته و هذا نتيجة الدور الكبير و الأساسي لأهل المغرب في نشر الإسلام و الثقافة الإسلامية هناك[6]

و يعتبر المذهب المالكي أهم مظهر من مظاهر التأثير المغربي في الحياة الإسلامية السودانية ،و قد انتقلت سيادة المذهب المالكي إلى هذه المناطق منذ القرن 5هــ/11م بعد أن انتصب بصفة نهائية في

1– نفسه،ص52.

2– محمد فاضل علي باري،المرجع السابق،ص53.

3– عبد القادر زبادية،دراسة عن أفريقيا جنوب الصحراء في مآثر و مؤلفات العرب المسلمين،ص25.

4– حسن أحمد محمود، *الإسلام و الثقافة العربية في أفريقيا*،ص52.

5– القلقشندي،*صبح الأعشى*،ج5،ص286،أنظر:ياقوت الحموي،*معجم البلدان*،ج4،ص490،السلاوي،*الإستقصا*،ج5،ص 103.

6– هناك جوانب ثقافية و حضارية أخذها أهل السودان عن المغاربة منها انتقالهم من الثقافة الشفاهية إلى الثقافة الكتابية،و اعتمادهم الخط المغربي،و تمثلهم بلباس المغاربة و استعمالهم المكاييل و المقاييس المغربية،هذا فضلا اقتدائهم بنموذج العمارة المغربية،أنظر:عبد القادر زبادية،مملكة سنغاي،الفصل 3 و4.

بلاد المغرب (قبل هذه الفترة كان حضوره مزاحما بقوة المذاهب الأخرى)[1] .

و الشهادات المصدرية المتعلقة بتاريخ السودان خلال العصر الوسيط لا تتحدث عن اعتناق أهل السودان في فترة ما لمعتقد أو مذهب غير المذهب المالكي ،رغم أن الخوارج و الشيعة كانت لهم تقلبات في بلاد السودان للتجارة خلال القرنين3و4هـــ/9و10م[2].

و الإشارة الوحيدة على وجود المذهب الإباضي في بلاد السودان تتمثل في شهادة ابن بطوطة فقد لاحظ أثناء رحلته إلى مملكة مالي و مروره بقرية تسمى "زاغرى" أن من بين المقيمين فيها فئة من الخوارج الاباضية يطلق عليهم اسم "صغنغو" و مما قال:" و بعد مسيرة عشرة أيام من ايولاتن ،وصلنا إلى قرية زاغرى و هي قرية يسكنها تجار سودان يسمون ونجراتة و يسكن معهم من البيضان يتمذهبون مذهب الإباضية من الخوارج و يسمون صغنغو و السنيون المالكيون من البيض يسمون عندهم توري"[3].

و يتضح لنا من كتب التراجم الإباضية[4] أن التجار الإباضيين كانت لهم مساهمة جادة في نشر الدعوة الإسلامية بين أهل السودان[5] و تؤكد على ذلك المصادر غير الإباضية منها شهادة اليعقوبي (ت284هـــ) الذي يقول أن الإباضيين الذين ينتمون بأغلبيتهم إلى البربر كانوا يقطنون حوالي القرن3هـــ/9م في واحة كوار،[6] و يذكر الإدريسي أن تجار ورجلان يتجولون إلى غاية غانة و نقارة و هم وهبية إباضية [7].

أما المستعرب البولوني ت.ليفيتسكي فقد عثر في إطار بحثه في مخطوطات الإباضيين على العديد من الشهادات عن رحلات الخوارج إلى غرب السودان و وسطها ففي كتاب المؤرخ الإباضي أبو ربيع الوسياني (عاش ق 6هـــ/12م) ثمة خبر عن عالم إباضي يسمى الشيخ عبد الحميد الفزاني عاش

1- مسعود خالدي،*الجاليات العربية و البربرية في أفريقيا جنوب الصحراء*،ص433.

2- أحمد شكري،*الإسلام و المجتمع في امبراطورية مالي*،ص226.

3- ابن بطوطة،*تحفة النظار*،ص 680.

4-أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني،طبقات المشايخ بالمغرب،تح:إبراهيم طلاي،(د.ط)،قسنطينة،مطبعة البعث،1975م،ص-ص 517-518.، أحمد بن سعيد الشماخي،كتاب السير،(د.ط)،القاهرة،طبعة حجرية،1883م،ص_ص273-312،ابن الصغير،أخبار الأئمة الرستميين،تح:محمد ناصر و إبراهيم بحاز،(د.ط)،بيروت،دار الغرب الإسلامي، ص-ص36-71.

5- عبد الكريم جودت يوسف،العلاقات الخارجية للدولة الرستمية،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1984،ص-ص280-285. أنظر:محمد صالح ناصر،دور الإباضية في نشر الإسلام بغرب أفريقيا،ص-ص5-13.

6- اليعقوبي،*البلدان*،ص 345.

7- الإدريسي،*نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*،ص 296.

في بلاد السودان الواقعة على مسافة شهر واحد سيرا إلى الجنوب من جبل نفوسة و يرى ليفيسكي أنه عاش في كوار [1]

إذن المصادر على اختلاف أنواعها لا تحدثنا عن اعتناق أهل السودان أو فئة منهم المذهب الخارجي أو الشيعي و ربما يرجع السبب حسب تحليل أحمد شكري في كتابه" الإسلام والمجتمع السوداني في إمبراطورية مالي" هو أن أهل السودان خلال القرون الأولى لانتشار الإسلام في مناطقهم و بداية الاحتكاك بالمسلمين ،كان إسلامهم ضعيف و سطحي ، بحيث لم تأخذ التعاليم الإسلامية في التأثير بعمق في حياتهم إلا في القرن6هـ/12م و في هذه الحالة لم يكن بإمكان الدعاة من الخوارج أو الشيعة أن يعرضوا على أهل السودان معتقداتهم و هم لم يستوعبوا بعد الأركان الخمسة للإسلام و لا يتكلمون اللغة العربية ، و لعله و لهذا السبب اكتفت المصادر المعنية بالإشارة إلى دور الخوارج في نشر الإسلام و لم تحاول إقناعنا بأي دور لهم في نشر مذهبهم ببلاد السودان[2]

و منه يمكن استنتاج بعض العوامل التي ساعدت على سيادة المذهب المالكي في بلاد السودان في الفترة التي نخصها بالدراسة من القرن5هـ/11م إلى القرن10هـ/16م:

_قلة انتشار المذاهب الأخرى جعلت الكثير من العامة و الخاصة يجهلون كليا وجود مذاهب أخرى و هذا ما زاد في ترسيخ المذهب المالكي و تقدمه على المذاهب الأخرى[3].

_ سيادة المذهب المالكي ببلاد المغرب[4] و مع التطور الملحوظ للعلاقات المغربية السودانية مع نهاية القرن4هـ/10م و ما بعده انتقلت سيادته إلى بلاد السودان .

_ أن المرابطين الذين حملوا لواء الإسلام إلى بلاد السودان انتصروا للمذهب المالكي،حيث أصبح المذهب الرسمي لها و اتبعهم أهل السودان في ذلك[5].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1]– فهمي سعد،*انتشار الإسلام في أفريقيا في العصور الوسطى*،ص 80.

[2]– أحمد شكري،*الإسلام و المجتمع في إمبراطورية مالي*،ص ،ص226،227.

[3]– عصمت عبد اللطيف دندش،*دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا*،بيروت،دار الغرب الإسلامي،1988م،ص 65.

[4]– يرجع ابن خلدون هذا الإنتصار للمذهب المالكي للسبب البيئي "...فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب و الأندلس و لم يكونو =يعانون الحضارة التي كانت لأهل العراق ،فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة و لهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم..."و قد ناقش بعض الباحثين رأي ابن خلدون و رفضوا معالجة القضية من مفهوم البداوة،و قالوا أن المذهب المالكي مذهب المجتمعات الراقية ،و هناك عوامل أخرى أدت لسيادة هذا المذهب ببلاد المغرب منها الرحلة العلمية إلى الحجاز،طبيعة المذهب إضافة للعامل السياسي،للمزيد أنظر:ابن خلدون،*المقدمة*،ص431،شارل أندري جوليان،*تاريخ أفريقيا الشمالية*،ج2،ص10.

[5]– قامت دولة المرابطين على أساس نشر الإسلام على المذهب المالكي،فعبد الله بن ياسين مؤسس الدعوة من تلاميذ أكبر علماء

كما وردت إشارة في إحدى الدراسات تقول أن الذي ساهم أيضا في انتشار المذهب المالكي بكانم برنو فريق من فقهاء المالكية طردوا من مصر بعد قدوم الفاطميين إليها من بلاد المغرب،و عمل هؤلاء الفقهاء على نشره بين أهلها لكن للأسف هذه الدراسة لا تعطينا تفاصيل كافية و لا المصدر الذي استقت منه المعلومة[1].

و قد أشارت المصادر على تبني أهل السودان الأوسط المذهب المالكي و من ذلك ما ورد عند القلقشندي أن المذهب الغالب في كانم برنو هو المذهب المالكي حيث يقول:" و العدل قائم في بلادهم و يتمذهبون بمذهب الإمام مالك-رضي الله عنه- و هم يابسون في الدين"[2].

و كان اهتمام أهل كانم برنو بالمذهب المالكي أن مدرسة "ابن الرشيق" التي بنيت لهم بمصر اختصت بتدريس الفقه المالكي حيث يؤكد ذلك المقريزي أثناء سرده للمعلومات عنها[3].

و مما سبق نجد أن عوامل عديدة ساهمت على دخول المذهب المالكي و انتشاره في بلاد السودان الأوسط لكن الذي زاد من ترسيخه و استمرارية وجوده هو تبني الطبقة المثقفة هذا المذهب من علماء و فقهاء و طلبة فدرسوا الفقه المالكي في مدارسهم و استقدموا أشهر العلماء المالكية إلى بلادهم(الشيخ البكري،الفقيه أبو بكر الباركوم، محمد بن أحمد،العالم الجليل المغيلي...) كما أدخول مؤلفات المالكية و أصبحت هي الكتب الأكثر تداولا بين علمائها و طلابها منها:المدونة الكبرى و الصغرى،رسالة ابن أبي زيد القيرواني،كتب القاضي عياض :الشفا و الكتاب المدارك،إضافة إلى كتاب الموطأ للإمام مالك[4]، و بذلك أصبح المذهب المالكي يميز الحياة العلمية بالمنطقة.

و قبل أن نختتم الحديث عن المذاهب بالسودان الأوسط لابد من الإشارة أنه انتشر بين البعض من أهل كانم برنو المذهب الشافعي و هذا ما أورده العمري بقوله:" صاحب كانم من بيت قديم في

المالكية في القيروان و بفضل المرابطين دخل الإسلام مملكة غانة بعد أن سيطروا على عاصمتها سنة469هـ/1070م فاعتنق سكانها الإسلام على المذهب المالكي،كما قصد المنطقة أيضا علماء و فقهاء مالكية ساهموا في ترسيخ هذا المذهب مثل:إبراهيم الساحلي،عبد الله الكومي،كما أن الممالك الإسلامية مالي و السنغاي تبنى حكامها المذب المالكي،أنظر:مجهول،*الحلل الموشية*،ص7،ابن أبي زرع،الأنيس المطرب في روض القرطاس،(د.ط)،الرباط،صور للطباعة و الوراقة،1972م،ص87،السعدي،تاريخ السودان،ص-ص29-33،عصمت عبد اللطيف دندش،المرجع السابق،ص65،حسن أحمد محمود،*الإسلام و الثقافة العربية في أفريقيا*،ص249،ابراهيم علي طرخان،*دولة مالي الإسلامية*،ص147.

[1]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي،*حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*،ص125.

[2]- القلقشندي،*صبح الأعشى*،ج5،ص181.

[3]- أحمد محمد كاني،*الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا*،ص 15.

[4]- أورد السعدي العديد من المؤلفات التي شاع استخدامها في بلاد السودان،أنظر :*تاريخ السودان*،ص،ص 29،30،38،43،44،45،46،55،64.

الإسلام، و جاء منهم من ادعى النسب العلوي من بني حسن، و يتمذهب بمذهب الشافعي –رضي الله عن–"[1] و يبدوا من المؤكد أن تأثيرات المذهب الشافعي جاءت من بلاد مصر خاصة و أن الغالب على مذهب أهل المغرب كلهم ...مذهب مالك بن أنس ،اختصوا به و تعصبوا له[2].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]- القلقشندي،صبح الأعشى،ج5،ص281.

[2]- المقدسي،*أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*،ص339.

رابعا:الإنتاج الفكري و المراكز الثقافية المحلية

أ_ الإنتاج الفكري

المجتمع البشري لا يبلغ بصفة عامة درجة من الثقافة الفكرية إلا عندما يمتلك الكتابة ، و الشعوب الإفريقية حسب دولافوس مهما كان التطور البارز للملكات العقلية عند الكثير من أفرادها،فإن هذا التطور نادرا ما تجسد في ثقافة جماعية محل تقدير، لأن القليل من تجمعاتها امتلكت وسائل لكتابة أفكارها و لقراءة أفكار الآخرين.

و أبرز مثالين حول الأنظمة البيانية الأصيلة التي ابتكرها الزنوج لتسجيل أصوات لغاتهم تعود الأولى منها للقرن الثامن عشر حسب ما يبدوا و الثانية تم توقعها في بداية القرن العشرين من طرف أمير في الكامرون، من جهة أخرى فإن الحروف الأبجدية العربية الثرية أحيانا بعلامات إضافية قد تبنتها الشعوب في كتابة كلمات لغاتها و هذا منذ انتشار الإسلام في هذه المناطق ،فاللغة العربية رغم أنه يتحدث بها عدد محدود من السودانيين إلى أنها منتشرة كثيرا كلغة مكتوبة .

و قبل معرفة الشعوب الإفريقية بالإسلام و اللغة العربية لم يكن لهم إنتاج فكري مكتوب، حيث عرفوا بالأدب الشعبي الشفوي الجد ثري و متنوع ، هذا الأدب يتكون من الأساطير الدينية و تقاليد متعلقة بنشأة الكون و تقاليد تاريخية و حكايات عجيبة و شخصيات حيوانية و ألغاز و حكم و أمثال و أغاني و روايات هزلية، و الكثير من مواضيع هذا الأدب الشفوي أصلها بعيد و غير معروف[1]، و بعضها مصدره الخارج لكنه تكيف مع الواقع المحلي و كان ينتقل من جيل إلى جيل و من بلد إلى بلد و يتغير باستمرار[2].

و نحن نشاطر رأي دولافوس حول الإنتاج الفكري للشعوب الإفريقية ، فالقبائل التي دخلت الإسلام قد أخذت العربية كلغة دينية و إدارية و ثقافية و من ثم أنتجت بها منذ العصور الوسطى[3].

و قد بدأت الكتابة بالعربية و التأليف بها منذ دخول المرابطين لمنطقة السودان الغربي سنة471هـ-475هـ/1078م-1082م و هذا من خلال ظهورها في الوثائق و الرسائل ، أما

---

[1] Mouric Delaffousse ,Les civilisation Négro-Africanes,Libraire Stock Français,Paris ,p128.

[2]- خضعت شعوب السودان الأوسط للعديد من الهجرات فرضتها عليها ظروف معينة كالنزاع القبلي و الظروف الاقتصادية و السياسية ، فكانت عدة قبائل تغير أماكنها بين فترة و أخرى مثل قبال الفولانيين الذين انتشروا في سهول الهوسا و القبائل العربية و البربرية الذين انتشروا حول بحيرة تشاد ، و كانت كل قبيلة تأخذ للمكان الجديد تقاليد و معارف معينة و تأخذ في نفس الوقت تقاليد القبائل الموجودة و هذا نتيجة الجوار و المصاهرة مما أدى لتغيير الكثير من الروايات الشفوية و اختلاطها ،أنظر:دونيس بولم،*الحضارات الإفريقية*،ص19.

[3]- عبد القادر زبادية ، *مملكة سنغاي*،ص152.

المؤلفات فتظهر في فترة موالية و بخاصة القرن 10هـ/16م[1] ، و قد طغت الصبغة الإسلامية على هذه المؤلفات و ذلك لأن الذين كانوا يؤلفون من الطبقة المثقفة التي تمكنت من العلوم الإسلامية و اللغة العربية، لذا نلاحظ أن تطور الحركة الفكرية كان ضيقا و محدودا[2].

و الحركة الفكرية في بلاد السودان الأوسط و حسب ما تبينه الوثائق الموجودة ظهرت منذ القرن 6هـ/12م و هذا من خلال ما تركه " إبراهيم الكانمي" من أشعار وتعليقات أدبية، و هذه الشخصية تعتبر من الثمرات المبكرة لتسرب الثقافة العربية إلى هذه المناطق و من الثمرات المبكرة للإنتاج الفكري الأدبي بوجه خاص[3].

أما الكانمي حسب المصادر التي ترجمت له هو:أبو إسحاق إبراهيم بن محمد ابن فارس ابن شكلة ابن عمرو ابن عبد الله السلمي الذكواني من أهل كانم و هناك من أورد اسمه مختصرا :أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي الأسود النحوي الشاعر.

و لا يعرف عن مولده شيء و إن قدره بعضهم حوالي 550هـ أما أين ولد و نشأ تحديدا فيقول ابن الآبار:" من قرية من قرى السودان بكانم تسمى بلمة" و بلمة ما تزال معروفة بهذا الاسم إلى اليوم في بلاد تشاد، أما دراسته يقول ابن حمويه:" و ذكر لي أنه اشتغل[4] في بلد غانة و تخرج بها مع أنها بلد كفر و جهل" ،و هنا يرجح الباحثون أن غانة يقصد بها كانم فهي أقدم بلاد السودان دخولا في الإسلام و من أقدمها إقبالا على التعليم ،حيث يقول العمري:"و ربما كان فيهم من أخذ في التعليم و نظر من الأدب نظرة النجوم فقال إني سقيم، فمازال يداوي علل فهمه و يداري جامح علمه حتى تشرق عليه أشعتها"[5].

و لا يعرف كذلك عمن درس و كل ما يعرف عنه أنه كان نحويا ماهرا يحفظ الجمل و أنه يحفظ كثيرا من أشعار العرب و أنه كان عالما بالآداب حيث يذكر لنا ابن الآبار أنه أقرأ الآداب بمدينة مراكش التي رحل إليها أواخر القرن 6هـ/ 12م و منها ذاع صيته في بلاد المغرب و دون المؤرخون حياته ، و حفظت لنا بذلك الأشعار التي نظمها و التعليقات الأدبية التي تركها على مقامات الحريري.

و مما حفظ لنا من شعره:

---

[1]- بدري محمد فهد،*الصلات بين العرب و إفريقيا*،ص120.

[2]- عبد القادر زبادية،*مملكة سنغاي*،ص153.

[3]- محمد ابن شريفة،*إبراهيم الكانمي أنموذج مبكر للتواصل الثقافي بين المغرب و بلاد السودان*،ص،ص13،18.

[4]- اشتغل معناها اشتغل بطلب العلم و اجتهد في تحصيله

[5]- محمد ابن شريفة، *إبراهيم الكانمي أنموذج مبكر للتواصل الثقافي بين المغرب و بلاد السودان* ،ص17.

أزال حجابه عني و عيني تراه من المهابة في حجابه

و قربني تفضله ولكن بعدت مهابة عند اقترابي[1]

و قد أنشد الكانمي هذه الأبيات عندما استقبل بحفاوة من طرف الخليفة الموحدي "أبي إسحاق إبراهيم ابن يعقوب المنصور" و السادة الموحدين و هي حفاوة استحقها بشعره،و هي –أي الأبيات– جاءت في غرض المدح فقد عرف الكانمي بمدحه لكبار الدولة الموحدية حيث استرزق و انتفع منهم ولازمهم حتى حسده على هذه المكانة قوم من أصحاب الأمير[2]،و في ذلك يقول:

ما بعد بابه أبي إسحاق منزلة يسمو إليها فتى مثلي و لا شرف

أبعد ما بركت عنسي سباحة و صرت من بحره اللجي أغترف

سموا بصرفي و قد أصبحت معرفة فكيف ذلك و اسمي ليس ينصرف

كما عرف الكانمي بالدفاع عن سواد اللون ، و من هذا كتب أبيات في غرض الافتخار نورد منها:

إني و إن ألبسني العجم حلتها فقد نماني إلى ذكوانها مضر

فلا يسوؤك من الأعماد حالكها إن كان باطنها لصمصا من الذكر

و مما حفظ لنا من شعره في هذا الباب قوله:

لا تسعدن لغربيب و لا يقق حتى تشاهد فضلا غير مردود

بكل لون ينال الحر سؤدده مهما تجرد من أخلاقه السود

و الناس لفظ كلفظ العود مشترك لكن يرجع بين العود و العود

أما ترى المسك حق العاج يخبأه و الجص مطرح فوق القرميد

و لو يبال ابن عمران بأدمته حين اصطفاه كليما خير معبود[3]

و الملاحظ على هذه الأبيات أن معانيها مستمدة من القرآن الكريم و هذا يشير إلى ثقافته الدينية في علمي الأصول و المنطق،كما أن التعصب للون الأسود في هذه الحالة فهو تعصب أملته الأريحية الأدبية و لا علاقة لها بالعنصرية.

---

[1]– وردت هذه الأبيات في :وفيات الأعيان،و نفح الطيب و الإستقصا

[2]– محمد ابن شريفة،*إبراهيم الكانمي أنموذج مبكر للتواصل الثقافي بين المغرب و بلاد السودان* ،ص20.

[3]– ابن الآبار،تحفة القادم،ص،ص157،158.

و كان للكانمي شعر كثير من المدح و أغراض أخرى ، و كما كانت ألفاظه و معانيه و نظمه جيد باعتراف من ترجموا له فابن الآبار يصفه :" كان شاعرا محسنا"،أما ابن حمويه فيقول :"يعرب عن شعر فصيح و لفظ صحيح و وزن مستقيم و معنى قويم" ، و الصفدي يقول:" جيد النظم"[1].

أما جزالة أسلوب الكانمي فتتمثل أمامنا في تمكنه من الألفاظ التي يستعملها و في المفردات التي تتركب منها الجمل ، فهي كلها متناسقة شأن المتمكن من اللغة،أما متانة الأسلوب نلمسها في أن الشاعر ألفاظه بقدر معانيه أما عباراته فهي شديدة الدلالة على ما يقصد مما يدل على محفوظ شعري غزير و محصول لغوي كبير[2].

و يمثل الكانمي بشعره الرفيع و أدبه المتين حالة نادرة و فريدة في التاريخ الثقافي في بلاد السودان ، و إن كانت بلاد السودان عموما لم تعرف علماء و فقهاء في العصور التالية لعصر الكانمي ،كما لم تعرف مثل الكانمي في ثقافته الأدبية و هنا يقول الصفدي:" لم يعرف من أرضه سواه"[3]

عاش الكانمي آخر أيامه في مدينة مراكش و قضاها مشتغلا بالإقراء و مسهما في نشر العلم،و كانت وفاته سنة ثمان أو تسع و ستمائة[4] .

أما الأنموذج الثاني عن النشاط الفكري و التأليف باللغة العربية في السودان الأوسط فيمثلها الشيخ:" أحمد بن فرتو" في ميدان التاريخ[5]، و الشيخ أحمد بن فرتو هو مؤرخ البلاط في دولة كانم برنو في زمن سلطانها "إدريس ألوما الذي حكم أواخر القرن العاشر هجري السادس عشر الميلادي و كتب هذا المؤرخ تاريخ الإثني عشر الأولى من حكم إدريس ألوما و وضع هذا الكتاب في جزئين حوالي 77صفحة في الجزء الأول و حوالي 140 صفحة في الجزء الثاني و هو يتناول أحداث الفترة الممتدة من 986هـ-991هـ/1571م-1585م، طبع هذا الكتاب مترجما إلى الإنجليزية في لندن1962م[6] .

و من السجلات و الوثائق المحلية التي دونت بالعربية و أوردت أخبار عن تاريخ مملكة كانم برنو هي ما تسمى:ديوان سلاطين كانم – برنو (أو قوائم سلاطين كانم برنو) و مؤلفه هو الشيخ "عمر

---

[1]- تحفة القادم،تح:إحسان عباس،(د.ط)،بيروت،دار الغرب الإسلامي،1986م،ص157،و أنظر:الوافي بالوفيات،تح:أحمد الأرناؤوط،(د.ط)،بيروت،دار الأحياء،200م،ج6،ص170.

[2]- محمد ابن شريفة،*إبراهيم الكانمي أنموذج مبكر للتواصل الثقافي بين المغرب و بلاد السودان*،ص 32.

[3]- الوافي بالوفيات،ص170.

[4]- محمد ابن شريفة،*إبراهيم الكانمي أنموذج مبكر للتواصل الثقافي بين المغرب و بلاد السودان* ،ص32.

[5]- بدري محمد فهد،*الصلات بين العرب و أفريقيا*،ص153.

[6]- نفسه،ص154.

بن عثمان مسبغرمة" و هو من أشهر علماء مملكة كانم برنو ملم بالفقه و التوحيد و اللغة وكان ذلك في بداية القرن 10هـ/16م[1] .

هذا الديوان عبارة عن مخطوط كتب باللغة العربية و هو من الوثائق المحلية المهمة يحتوي على قائمة بأسماء سلاطين كانم – برنو (ذكرت تسعة سلاطين لا يحملون أسماء عربية) و تعرض هذه الوثائق النسب السيفي و أن الأسرة المالكة حكمت أولا في كوار حوالي 236هـ/850م ثم تحالفت مع قبائل التبو(التيدا) و فتحوا الجزء الجنوبي للصحراء و توسعت حتى وداي شرقا و إلى نهر النيجر غربا[2].

و كان الرحالة الألماني " بارث" هو من عثر على هذه السجلات في منتصف القرن13هـ/19م و قام بتحقيقها "دريك لانغ" و نشرها في كتابه "ديوان سلاطين كانم" و ترجمت بعدها إلى الفرنسية[3]

أما بلاد الهوسا فعرفت بالكثير من المخطوطات لكن تم القضاء على الكثير منها في القرن التاسع عشر ، و أهم ما بقي من تلك الكتابات هي:مخطوطات أو محفوظات ولاية كانو"فانو" و قد كتبت باللغة العربية لتغطي تاريخ دولة كانو منذ القرن9هـ/15م و هو القرن الذي زار فيه المنطقة العالم الجليل:عبد الكريم المغيلي و أدخل ما يسمى في ذلك الوقت باستعمال اللغة العربية في الأدب الإفريقي ، نشر هذه المخطوطات بالمر في المجموعة المسماة " ذكريات سودانية" عام 1928م[4].

و النتيجة التي يمكن أن ننتهي إليها في موضوع الإنتاج الفكري في السودان الأوسط هي أن معظم الكتابات التي وصلت إلينا من ذلك الوقت هي كتابات قليلة من حيث الكمية و ربما يعود السبب في إتلاف الكثير منها في القرون اللاحقة هذا من جهة و من جهة أخرى أن مؤلفات الأفارقة المسلمين ماتزال مخطوطة و هي بعيدة عن متناول أيدينا [5].

ب_ المراكز الثقافية المحلية

كان التسرب السلمي للإسلام عبر الدروب و المسالك الصحراوية ومن ثم ظهور حركة فكرية علمية بمنطقة السودان الأوسط أن أوجدت مراكز إسلامية ثقافية قوية ، حيث لم يأت القرن 9هـ/15م إلا و كانت هذه المراكز تلعب دورا كبيرا في إثراء الحياة الإسلامية في تلك المنطقة و لم

---

[1]– شوكت عارف الأتروشي،*دولة كانم الإسلامية*،ص102. أنظر كذلك ملحق رقم5 قوائم ملوك كانم.

[2]– مسعود خالدي،*الجاليات العربية و البربرية في أفريقيا جنوب الصحراء*،ص323.

[3]– شوكت عارف الأتروشي،المرجع السابق،،ص103.

[4]– عطية مخزوم الفيتوري،*دراسات في تاريخ شرق أفريقيا و جنوب الصحراء*،ص212.

[5]– بدري محمد فهد،*الصلات بين العرب وإفريقيا*،ص120.

تقل شأنا عن الدور الذي قامت بها المراكز الثقافية في السودان الغربي (تمبكتو،جني،غاو...) و أهم هذه المراكز:

1:**كانو**: بدأت تظهر بوجهها الإسلامي المشع منذ القرن التاسع هجري الخامس عشر ميلادي لأن شعب هذه الإمارة و هو أحد فصائل قبائل الهوسا كان قد أصبح يعيش حياة إسلامية بحتة في هذا القرن ،و استطاع أن يسهم إسهاما كبيرا في مجال الثقافة العربية الإسلامية[1].

تقع إمارة كانو في الوسط بين نهر النيجر غربا و بحيرة تشاد شرقا و قد تحدث عنها الوزان قائلا:" إقليم كبير نحو خمسمائة ميل شرقي النيجر، يضم عدة شعوب يسكنون القرى ...و فيه جبال خالية من السكان مكسوة بالغابات مليئة بالعيون...و في وسط الإقليم مدينة استمد الإقليم منها اسمه"[2].

أما عن تاريخ ظهور هذه الإمارة يرجح الباحثون أنها موغلة في القدم تعود إلى ما قبل المسيح عليه السلام،و منهم من يرجع ظهورها إلى فترة عقبة بن نافع ،و أول سلاطينها المعروفين يعود إلى مابين 208هـ-330هـ/8 و 9م ، أما سكانها إضافة إلى قبائل الهوسا هم من صنهاجة قدموا من الشمال ،و امتهن هؤلاء السكان الزراعة و الحدادة و التجارة،مما أكسب المنطقة رخاء اقتصاديا[3].

و شهدت هذه الإمارة الاستقرار و الأمن عندما اعتلى العرش السلطان" بغودا بن ياو بن يازيد" و تعاقبت أسرته على الحكم و بلغ عدد سلاطينها 18عشر سلطانا خلال أربعمائة سنة، و انتهت سنة 828هـ/1424م ثم جاءت الأسرة االزنفاوية التي حكمت حوالي مائة و أربعين سنة تعاقب على حكمها تسعة سلاطين أولهم "محمد زنفا"و هو أشهر السلاطين ، خلفه مجموعة من السلاطين أبرزهم "محمد كزولي" الذي حاول أن يصد زحف السلطان " محمد الكبير" سلطان سنغاي سنة 1513م و رغم محاولات التنسيق مع حكام الدويلات المجاورة إلا أنه فشل ،وانتهى حكم هذه الأسرة في بداية 1020هـ/1611م[4].

اتخذت هذه الإمارة مظهرا إسلاميا واضح المعالم منذ أن أعلن ملوكها إسلامهم[5] بعد أن كان قد انتشر منذ فترة طويلة بين العديد من سكانها ،و قد ساعدت بعض الظروف على ظهور كانو بهذه

---

[1]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي،*حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*،ص 154.

[2]- الحسن الوزان، *وصف إفريقيا*، ج2،ص174.

[3]- الهادي مبروك الدالي،*قبائل الهوسا*،ص45.

[4]- نفسه،ص46.

[5]- و أول ذكر للإسلام جاء في مخطوط كانو كان في عهد الملك "ياجي" 1349م-1385م حيث روي أن بعض العناصر من الماندي من مالي أقنوا الملك بالعقيدة الجديدة، و أول مسجد بني كان1381م،أنظى:عطية مخزوم الفيتوري،*دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء*،ص215.

الصورة العلمية منها:الهجرات العربية والبربرية من الشمال و الشمال الشرقي [1]،إضافة إلى ما قام به سلاطينها المسلمين من تشجيع الحركة العلمية مثل:بناء و توسيع المساجد فمسجد كانو الكبير مثلا أشرف على توسيعه و تجديده السلطان محمد زنفا" حتى أصبح يتسع لأكثر من خمسة آلاف مصلي[2] ، كما عملوا على إيفاد الطلبة إلى مراكز العلم المختلفة في البلاد الإسلامية كالقاهرة و القيروان،و فاس و تمبكتو.

كما حظيت إمارة كانو باهتمام عدد من العلماء حيث يذكر السعدي في كتابه أن هناك علماء من تنبكتو و جني قد وصلوا إلى هذه المنطقة في ظل النفوذ الذي بسطته سنغاي عليها و أنهم قاموا هناك بدور كبير في شرح المسائل الدينية للسكان ،كما يذكر أن العالم الجليل :أحمد بابا التمبكتي قد جلس للتعليم فيها فترة من الزمن و هذا عند عودته من الأراضي الحجازية [3]، كما تقول المصادر أن كانو حظيت بزيارة أخرى لفريق من العلماء من دولة سنغاي يزيد عددهم عن الأربعين و قد أنشأوا مسجدا في أحد أحيائها هو حي " جيني بسيربي والا" الذي يقع في الجزء الغربي من المدينة و أقاموا يعلمون الناس، كما شاركهم في إثراء الحركة العلمية هناك علماء آخرون وفدوا تباعا منهم: مخلوف بن علي البلبالي، محمد بن عبد الكريم المغيلي [4] . و قبل هذا و في عهد الساركن "ياجي بن تسامبا" 750هـ- 787هـ/1439م-1485م و تقول المصادر أنه عدد كبير من العلماء قدموا من أجل الدعوة و تزعم هذا الفريق عالم جليل اسمه" عبد الرحمن زيت" و شاركه نفس الرحلة عالم اسمه" فاموري بلقاسم " و غيرهم ، و أقاموا إقامة دائمة يعلمون الناس الفقه المالكي[5].

و قد ازدادت كانو تألقا و سعة في التفوق بعد سقوط مملكة سنغاي على يد المراكشيين 1591م و اضطر الكثير من العلماء للهجرة من تمبكتو و جني إلى الشرق التماسا للأمن ، و استفادت كانو من هذا الوضع حيث ساهم هؤلاء العلماء في تطويرها و رقيها، و منه نخلص إلى أن هذه المدينة استطاعت أن تحتل مكانة بارزة في ميدان الحضارة الإسلامية بعد أن شد إليها العلماء الرحال و لم تقل من حيث السمعة العلمية و المكانة الفكرية عن مدينة تمبكتو[6].

2:كاتسينا: و قد شاركت مدينة كاتسينا(كشنة في بعض المراجع) مدينة كانو في مجال الثقافة

---

[1]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي،*حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*،ص 155.

[2]- الهادي مبروك الدالي،*قبائل الهوسا*،ص 46.

[3]- السعدي، *تاريخ السودان*،ص 64.

[4]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المرجع السابق،ص 1156.

[5]- عطية مخزوم الفيتوري،*دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء*،ص 216،أنظر :أحمد محمد كاني، *الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا*،ص 17.

[6]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي،المرجع السابق،ص 156.

العربية الإسلامية و كان لها دور لا يقل شأنا و لا أهمية من الدور الذي قامت به سابقتها[1].

و إقليم كاتسينا يتوسط بلاد الهوسا ، بنيت المدينة على يد رجل يسمى " جلدما" و كان متزوجا من امرأة اسمها "كشنة" فسميت المدينة باسم زوجته احتراما و تقديرا لها و هذا حسب الروايات المتداولة، و يسكن هذه الإمارة بالإضافة إلى قبائل الهوسا العرب و البربر من صنهاجة و بعض من قبائل السنغاي و الفولاني و الطوارق و غيرهم[2]. و يصف لنا الوزان هذا الإقليم بقوله:" جميع الأماكن المسكونة في هذه البلاد قرى...و كان لهم في القديم ملك يحكمهم"[3] .

حكمها السلطان " كمايو" و يعتبر أول سلاطينها و هو من أحفاد " بايزيد" و قد توارث أهله الحكم أكثر من مائة عام ، و عرفت هذه الدولة بحروبها مع دولة كانو و التي دامت لأعوام من أجل الزعامة[4].

أما عن الإسلام فقد وصلها في نفس الوقت الذي وصل إلى كانو و أول الحكام الذين أسلموا " محمد كورا" الذي حكم حتى عام 1430م[5] ، و تدخل كاتسينا عهدا جديدا بإسلام هذا الملك فاستقر فيها العديد من العلماء و رجال الدين و ساهموا في إثراء الحركة العلمية بها[6] ، أشهرهم العالم "جلال الدين السيوطي" السابق الذكر، حيث أقام يعلم الناس أمور دينهم[7] إضافة إلى زيارة العالم الكبير "محمد بن عبد الكريم المغيلي، الذي أنشأ مدرسة لتعليم الناس ، كما قام حكام هذه الإمارة بتقريب العلماء و الإغداق عليهم و تشجيعهم[8] .

و بهذا يمكن القول أن كاتسينا قد برزت هي الأخرى في ميدان الثقافة و الحضارة و أصبحت مركزا ثقافيا يهتدي إليه الطلاب و العلماء.

3: مراكز ثقافية أخرى: و قد ظهرت بمنطقة السودان الأوسط مراكز ثقافية لم تصل العالمية مثل كانو و كاتسينا بل يمكن القول عنها أنها مراكز محلية الطابع و التأثير حيث كانت لها مساهمة في نشر الثقافة العربية الإسلامية في تلك الأنحاء نذكر منها:

---

[1]– عبد الفتاح مقلد الغنيمي، *حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*،ص157.

[2]– الهادي مبروك الدالي،*قبائل الهوسا*،ص 47.

[3]– الحسن الوزان،*وصف إفريقيا*،ج2،ص ،ص 173،174.

[4]– الهادي مبروك الدالي،المرجع السابق،ص ،ص 47،48.

[5]– عطية مخزوم الفيتوري،*دراسات في تاريخ شرق أفريقيا و جنوب الصحراء*،ص 217.

[6]– عبد الفتاح مقلد الغنيمي،المرجع السابق،ص 159.

[7]– أحمد شلبي، *موسوعة التاريخ الإسلامي*،ج6،ص 235.

[8]– فهمي سعد، *انتشار الإسلام في أفريقيا في العصور الوسطى*،ص 117.

– انجيمي: أو جيمي في بعض المصادر كانت عاصمة لمملكة كانم – برنو في مرحلتها الأولى ، و قد تحولت إلى مركز إسلامي مهم بفضل جهود الملوك المتعلمين، و قربها و اتصالها بمراكز الثقافة الإسلامية في مصر و بلاد المغرب، و تمكنت هذه المدينة من هضم كثير من أسباب الحضارة نتيجة اندماج المهاجرين من القبائل العربية مع الحضارة المحلية لأهل البلاد الأصليين[1].

– غسرغمو أو كما تسمى " انغزرغا" أو " وانغزرغمو" : تقع غرب بحيرة تشاد [2]، قام بتأسيسها السلطان "علي جاجي" سنة 1488م كعاصمة جديدة لإمبراطورية كانم – برنو بعد أن رحلت العائلة المالكة من العاصمة القديمة " انجيمي " و التي سيطرت عليها قبائل البولالا و هذا إثر حروبها المتكررة معها .

و أصبحت هذه المدينة قاعدة البلاد لمدة طويلة، كما أصبحت مع الوقت مركزا علميا كبير بالمنطقة يفد إليها الطلاب ليتخصصوا في كافة الفنون من فقه و تفسير و غيرها، و قد ساعد ها على أن تحتل هذه المكانة : الاهتمام الكبير من السلاطين على إحياء الشعائر الدينية ، النسبة العالية للسكان مما أوجد حركية دائمة بها (حوالي 200 ألف نسمة و هو عدد أوردته بعض المراجع دون أن تذكر لنا المصدر الذي اعتمدت عليه) ، انتشار المساجد بها و قد بلغ عدد المساجد الجامعة أربعة مما يدل على كبر هذه المدينة و أهميتها في المنطقة، و اشتهر فيها عدد من العلماء منهم الشيخ الطاهر بن ابراهيم الفلاتي، الشيخ اليماني، الشيخ الدوسي و وصلت هذه المدينة قمة ازدهارها في القرن 10هـ/16م[3].

و خلاصة القول أن مثل هذه المراكز سواء وصلت العالمية أو بقيت محلية الطابع إلى أنها تشير و تؤكد على أن المنطقة عرفت نشاطا فكريا و حركة علمية و إن لم تصل ما وصلته البلاد الإسلامية المجاورة لها .

[1]– عبد الفتاح مقلد الغنيمي،*حركة المد الإسلامي في غرب أفريقيا*،ص129.

[2]– عثمان برايما باري، *جذور الحضارة الإسلامية*،ص 81.

[3]– أحمد محمد كاني، *الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا*،ص 17.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الرابع
أثر الحركة العلمية في الحياة الاجتماعية

أولا: أثر الحركة العلمية في طبقات المجتمع

ثانيا :أثر الحركة العلمية في المعتقدات و العادات و التقاليد

ثالثا: أثر الحركة العلمية في النظام القبلي

رابعا: أثر الحركة العلمية في الفن المعماري.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا:أثر الحركة العلمية في طبقات المجتمع

إن المعلومات التي أوردتها المصادر عن تاريخ المجتمع في بلاد السودان الأوسط- خاصة – لا تدلنا على أبعاد المجتمع المختلفة و إنما تدلنا فقط على بعض العادات و التقاليد و المعتقدات ، و هذا ما دفع بأحد الدارسين للقول أن المجتمع السوداني مجتمع بدون زمن ، أي لم يعرف تطورات خلال العصور التاريخية[1]، و السبب في هذا ربما يعود في جزء كبير منه إلى وضع المنطقة من الناحية الجغرافية حيث الشروط الطبيعية فرضت على السكان نمط واحد من الحياة[2].

لكن هذا لا يمنع من القول أن باعتناق هذه الشعوب للإسلام حدث تحول كبير في جوانب المجتمع السوداني حيث انعكس ذلك على نظام الأسرة و القبيلة و العلاقات الاجتماعية، لذا تعد الحياة الاجتماعية إحدى الصور المثلى للتفاعلات التي حدثت بالمنطقة بين الظروف السياسية و الاقتصادية و الثقافية.

و انطلاقا من أن المجتمع في بلاد السودان الأوسط كان يتكون من طبقات قبل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر ميلادي فقد استمر هذا التقسيم مع الواقع السياسي الجديد (قيام الممالك الإسلامية) لكن مع تغيرات سنحاول تبيينها ،حيث كان المجتمع ينقسم إلى طبقتين رئيسيتين متميزتين تضم الأولى الطبقة المالكة و حاشيتها، أما الثانية تتألف من عامة الشعب بمختلف فئاته[3].

و عادة الطبقة الأولى تعتلي الهرم الاجتماعي تضم العائلة المالكة و الحاشية من النبلاء و قادة الجيش و ولاة الأقاليم، و تتمتع هذه الطبقة بامتيازات و تمتلك ثروات و الأراضي، فهي أقل عددا و أكثر ثروة[4].

و قد تميز سلاطين في ممالك السودان الأوسط بعد اعتناقهم الإسلام بتقواهم و حرصهم على إحياء الشعائر الدينية و أدائهم الفرائض و حرصهم على التعلم خاصة فيما يخص العلوم الإسلامية، و تؤكد المصادر العربية و المحلية على أن ملوك كانم برنو مثلا عرفوا بسياسة الجهاد لإزالة الوثنية من بلادهم أشهرهم الماي " دونمة بن سلمة" ، كما عرف أيضا ملوك دويلات الهوسا بحرصهم على إثراء

[1]- أحمد شكري، *الإسلام و المجتمع في امبراطورية مالي*،ص ،ص 76،77.

[2]- دونيس بولم،*الحضارات الإفريقية*،ص71.

[3]- نعيم قداح،*إفريقيا الغربية في ظل الإسلام*،ص100.

[4]- عبد القادر زبادية، *مملكة سنغاي*، ص113.

الحركة العلمية باهتمامهم بالمساجد و استقدام العلماء و تشجيعهم و الحرص على تقريبهم للإفادة منهم في تسيير شؤون ممالكهم وفق الشريعة الإسلامية[1].

رغم هذا تشير المصادر إلى بعض بقايا الوثنية عند هؤلاء السلاطين منها أن ملوك كانم لا يظهرون للرعية فهم يخاطبونهم من وراء حجاب، فإبراهيم الكانمي السابق الذكر قد دهش لرؤية الخليفة الموحدي من دون حجاب و قد ترك في ذلك شعرا يعبر عن دهشته، و أكد لنا ابن بطوطة و العمري هذه المعلومة عنهم[2].

و تمتعت هذه الطبقة بالكثير من الامتيازات حتى أن القوانين لم تكن تطبق على أفرادها كما تطبق على بقية أفراد المجتمع ، و كانت تقف في بعض الأحيان حاجزا دون تنفيذ الأحكام الصادرة ضدهم، و أمام هذا الوضع جاء في رسالة للإمام السيوطي إلى ملوك الهوسا تنهاهم عن ذلك :" ...و قد بلغني من أحدكم أنه يذكر له الحكم الشرعي في واقعة المحكوم عليه و يضمه إليه و يحضنه و يحول بينه و بين صاحب الحق و يحضنه و يقول هذا داخل في ملكي أو جعل في سلطاني و يرد ما حكم به الشارع اغترارا بالأماني،أفلا يخشى أحدكم من مالك الملوك أن يحل به العذاب الأكبر و ينزل عليه سخطه في الدنيا قبل أن يقبر،إن بطش ربك لشديد، و ما ربك بظلام للعبيد..."[3].

و ربما التحول الذي يلاحظ حول الطبقية في المجتمع السوداني هو أنها لم تعد ذات حدود مغلقة بحيث لا يستطيع الفرد فيها أن يرقى من طبقة لأخرى،بل على العكس فقد انتسب إلى الطبقة الأولى المسيطرة على السلطة و الثروة بعض أبناء الطبقة الثانية حيث ساعدتهم بعض التطورات الاجتماعية و الاقتصادية التي رافقت دخول الإسلام أن يصبحوا من زمرة الطبقة المرموقة ومن ذلك كبار التجار و أصحاب الحرف و منهم خاصة من اكتسبوا من الثقافة و التعليم قدرا معينا، حيث قربهم السلاطين -كبار العلماء - و أغدقوا عليهم بالأموال كما جعلوهم مستشارين و قضاة و كتاب [4].

أما الطبقة الثانية يأتي على رأسها الجيش ثم الفلاحون و الصناع و صغار التجار و أخيرا أسفل السلم الاجتماعي نجد الأسرى و الرقيق (العبيد) [5] ، لذا فقد كانت في عددها تفوق الطبقة الأولى.

---

[1]- شوكت عارف الأتروشي،*دولة كانم الإسلامية*،ص87.

[2]- ابن بطوطة، *تحفة النظار*،ص 687،محمد ابن شريفة،*إبراهيم الكانمي أنموذج مبكر للتواصل الثقافي بين المغرب و بلاد السودان*،ص20.

[3]- آدم عبد الله الألوري،موجز تاريخ نيجيريا،(د.ط)،بيروت،دار الحياة،1962م،ص137.

[4]- نعيم قداح،*إفريقيا الغربية في ظل الإسلام*،ص،ص100،101.

[5]-و قد شكل الأسرى شطرا كبيرا من طبقة العبيد، أنظر:إبراهيم حركات،"تجارة الرقيق بإفريقيا من خلال الموقفين العربي و الأوروبي"،ندوة مسألة الرق في إفريقيا،المنظمة العربية للتربية و الثقافة،1989م، ص73.

فبالنسبة للجيش امتلكت بلاد السودان الأوسط لقوة حربية كبيرة بلغت في فترات معينة و حسب ما قدرتها المصادر المحلية بنحو 41ألف فارس و هذا في كانم برنو وحدها[1]، حيث شكلت قبائل الكانمبو قوة كبيرة داخل هذا الجيش لامتلاكهم الخيول[2]،أما الفلاحون فكان عددهم كبير و هذا راجع لعدم وجود عوامل مساعدة لظهور نوع متقدم من الصناعة، لذا تعد الزراعة الأساس الذي قامت عليه المدنيات الإفريقية خاصة مع توفر الأراضي الخصبة :السهول الخصبة ببلاد الهوسا و الشواطئ الغربية و الشرقية لبحيرة تشاد،إضافة إلى توفر المياة[3] و أبرز المجموعات التي مارست الزراعة الهوسا و الكانمبو ، كما مارست الرعي القبائل العربية وقبائل الفولاني حيث انتشروا في الصحاري بإبلهم و انتشروا في الأراضي الفسيحة ببلاد الهوسا[4].

و في فترات لاحقة و نتيجة التقدم في الصناعة و التجارة ظهرت فئات جديدة انتمت لهذه الطبقة منها "الديولا " و هم من التجار و طبقة الحدادين و الدباغين و الصيادين ،غير أن أهم فئة ميزت المجتمع بعد التوسع في انتشار الإسلام هي الفئة" المتعلمة و المثقفة" التي كان لها حظ في تلقي العلوم سواء في المراكز العلمية المحلية أو رحلت إلى المراكز الشمالية و الشرقية ، نذكر من بينهم القضاة و الأئمة و المدرسون ، و كان هؤلاء يتناولون أجورا من خزينة الدولة،و في الغالب لم تكن لديهم الملكيات الواسعة التي اختصت بها الطبقة الأولى، و احتلت هذه الفئة مكانة محترمة عند العامة و الخاصة على السواء، و هذا لطبيعة الأعمال التي يزاولونها[5]،و من هنا كانت لهم وضعيتهم الخاصة ضمن أفراد الطبقة الثانية[6]،كانت هذه الفئة ملجأ للعامة في كثير من التعديات التي قد تلحقها حيث كان الاعتصام ببيت القاضي أو الخطيب كنوع من الحماية التي لا يجوز للسلطة تعديها[7]و ازداد عدد عدد أفراد هذه الفئة نتيجة نمو الحركة العلمية و إقبال أهل السودان على التعليم فمملكة كانم مثلا كان يتنافس فيها الآلاف من الطلبة للحصول على لقب الفوني"المعلم" كما ارتحل العديد منهم للبلاد

---

[1]– شوكت عارف الأتروشي، *دولة كانم الإسلامية*،ص 47.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية،مادة برنو،ج6،ص579.

[3]– نعيم قداح،*حضارة الإسلام و حضارة أوروبا في أفريقيا الغربية*،ط2،الجزائر،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،(د.ت)،ص13.

[4] -Kouahi Bollo-Bi, « La situation sociale à la fin de l'époque byzantine jusqu'à la veille de la conquete arabe »,Libya aniqua,documents de travail et comte rendu des débats du colloque organisé par l'unisco,Paris,1984,p253.

[5] -Kouahi Bollo-Bi,op-cit,p254.

[6]– محمد كعت،تاريخ الفتاش،ص178. السعدي،تاريخ السودان،ص،ص76،91.

[7]- السعدي،المصدر السابق،ص28.

الإسلامية و بازدياد عددهم خصص لهم رواق في الأزهر و بنيت لهم مدرسة خاصة لهم مما يدل على التطور الذي شهده المجتمع السوداني[1] .

أما فئة الرقيق تأتي في أسفل السلم الاجتماعي و في بعض المناطق في بلاد السودان (بلاد الهوسا) يأتون بعد المحكوم عليهم قضائيا (فهي أكثر الفئات عددا و أقلها اعتبارا)،و وجود هذه الفئة في المجتمعات الإفريقية يدل على أن السكان المحليين كانوا يسترقون بعضهم بعضا[2] و لم تكن القضية كما صورها الغربيون قضية العرب و الأفارقة[3]،حتى أن أعدادا كبيرة من المسلمين أنفسهم قد استرقوا نتيجة الاضطرابات و الحروب الداخلية في بلاد السودان[4] ، و كان الاسترقاق مجرد وسيلة تهدف إلى استخدام أسرى الحروب أو غيرهم في أغراض الإنتاج ، أو التجارة مع العرب، لكن حين دخلت أوروبا الغربية هذا الميدان تطورت عمليات الاسترقاق و وسائلها و أساليبها فأصبحت تجارة تمارس على مدى واسع و استنزفت بذلك الثروة البشرية للقارة ما يقرب الخمسة قرون[5].

و لم يكن للمجتمعات الإفريقية بالذات فكرة التنكر للمبادئ الإنسانية و الحقوق الشخصية للعبد ، حيث كان بالإمكان أن يسترد العبد حريته ، سواء بالسلوك الحسن أو بالشراء، حتى أن بعض أنواع الرقيق كانوا يتمتعون بنوع من الحرية و يظهر هذا في عدد من القبائل التي كانت ملكا للسلاطين، حيث كانت تقيم في أراضيها و تمارس الفلاحة وفق نظام المقاسمة مع السلطان، و تنتقل ملكية تلك القبيلة من حوزة ملك لآخر[6]، كما امتلك السلاطين أيضا جيوشا من الرقيق، و كانوا يتوارثون من ملك لآخر، و بمجيء الإسلام و تعاليمه أوجد نظاما لتحرير الرقيق بطريقة تدريجية (نظرا لتجدر هذه الفئة في المجتمعات منذ العصور القديمة حيث أصبحت جزءا من النظم الاقتصادية و الاجتماعية و استئصالها يتطلب التدرج) فقد يشتغل بعض الأفراد عند السيد مدة من الزمن و بعدها يصبحون أحرار بسلوكهم أو لكفارة أو صدقة [7]...

---

[1]- نعيم قداح،*إفريقيا في ظل الإسلام*،ص101.

[2]- إبراهيم حركات،"تجارة الرق بإفريقيا من خلال الموقفين العربي و الأوروبي"،ص72.

[3]- يجب التأكيد هنا أن الرق – و هي حيازة الإنسان للإنسان كمتاع شخصي- لم يقتصر على إفريقيا وحدها و إنما وجد في جهات كثيرة من العالم في العصور الوسطى و كان مرتبطا بالبنية الاقتصادية و الاجتماعية في كثير من الحضارات الإنسانية القديمة في كل من الصين و مصر و بلاد الرافدين و اليونان و الرومان،أنظر:جمال زكرياء قاسم،" العرب و الرق في إفريقيا"،ندوة مسألة الرق في إفريقيا، المنظمة العربية للتربية و الثقافة،1989م،ص20.

[4]- نفسه،ص22.

[5]- شوقي عطا الله الجمل،"دور المجتمع الغربي في تطور تجارة الرقيق"،ندوة مسألة الرق في إفريقيا،المنظمة العربية للتربية و الثقافة، تونس،1989م،،ص 36،37.

[6]- نعيم قداح،*إفريقيا في ظل الإسلام*،ص101.

[7]- نفسه،ص102.

و منطقة السودان الأوسط عرفت منذ عهود تاريخية مبكرة بتجارة الرقيق و استمر ذلك في العصور الوسطى الإسلامية بشهرتها على عكس السودان الغربي الذي اشتهر أكثر بتجارة الذهب،فابتداء من القرن الثاني هجري /الثامن ميلادي بدأ نوع من التعاون التجاري بين التجار المسلمين من الإباضية الذين تحكموا في المراكز و المدن الصحراوية لاشمالية: كغدامس و أوجلة و زويلة و غيرها، و كان اليعقوبي في القرن الثالث للهجرة/التاسع الميلادي قد تحدث عن نشاط الإباضية في تجارة الرقيق في كل من زويلة و كوار[1] و بقيت بلاد كانم برنو محتفظة بأهميتها التجارية في القرون اللاحقة رغم ما أصاب الطرق من كساد و تعطل نسبي بسبب عدم الاستقرار الذي أعقب الهجرة الهلالية[2] و قد أشار ابن بطوطة (ت779هـ/1377م) بعد ذلك إلى برنو بأنها التي يؤتى منها بالجواري الحسان و الفتيان [3]و كانت أهم مراكزها حسب ما أوردته المصادر مدينة كوار أين كان سلاطين كانم برنو يجمعون أسراهم من القبائل الوثنية لبيعها للعرب و البربر، و اشتهرت كذلك مدينة مير أو ميريا الواقعة في شمال غربي تشاد[4].

و في الأخير و قبل أن ننهي الكلام عن الطبقية في المجتمع السوداني لابد من الإشارة أنها – أي الطبقية- كانت تستمد جذورها من الواقع القبلي القديم، أي القبيلة المشكلة للمجتمع تقوم على نظام طبقي موروث[5]، و مثالنا في ذلك قبائل الفولاني التي عرفت بأنها قبائل بدوية تعيش على الرعي و الترحال ّ، و يقسم المجتمع الفولاني إلى:

ــ طبقة الأحرار: و تسمى "ريمي " بلغة الفولاني "ديمو للمفرد": تضم شيوخ القبائل و يليهم العلماء و الفقهاء[6] ، و أحيانا يكون الملك هو نفسه الإمام و القاضي إذا كان من أهل العلم، يتولى أصحاب هذه الطبقة قيادة مجتمعاتهم القبلية في أوقات الحرب و السلم، امتلكوا أكبر المساحات من الأراضي في أوطانهم،يتسمون بالثراء في الماشية، يحتكم الناس إليهم في حالة وقوع التراعات.

ــ طبقة جاومبي للجمع و جاوندو للمفرد:هي التي تلي ريمبي في السلم الطبقي، و ذلك لن انتماءهم من ناحية الأم فقط دون الأب لهذه القبيلة.

---

[1]- اليعقوبي، *البلدان*،ص104.

2- Trimingham,A history ,p17

[3]- تحفة النظار،ص679.

[4]- شوكت عارف الأتروشي،*دولة كانم الإسلامية*،ص 83.أنظر ملحق رقم 6 جدول لشرائح طبقات المجتمع السوداني

[5]- عبد القادر زبادية،*مملكة سنغاي*،ص114.

[6]- يطلق عليهم اسم :توروجو لأنهم يقومون بالدعوة، و تطلق كلمة توروبي للدعاة بغض النظر عن القبيلة التي ينتمون إليها،أنظر::عثمان برايماباري،*جذور الحضارة الإسلامية*،ص – ص 333-335.

ــ طبقة سبي للجمع تشطو للمفرد: يمثلون الدرجة الثالثة في النظام الطبقي للمجتمع الفولاني، معظمهم يحترفون الصيد أو التجارة.

ــ طبقة نياني للجمع و نينيو المفرد و تنقسم إلى فئتين التاليتين:أ- أصحاب الحرف و المهن التقليدية الموروثة ،ب- المغنين و المداحين و العازفين.

و في أسفل السلم الطبقي لهذه القبيلة هم العبيد[1]

و الخلاصة التي يمكن أن نصل إليها أن المجتمع الطبقي في بلاد السودان الأوسط استمد جذوره من النظام الطبقي الموروث في القبائل، و قد عمل الإسلام على تخليص هذه المجتمعات من الطبقية السائدة كما ظهرت مع الإسلام فئة احتلت مكانة مرموقة و كان تأثيرها واضح وهي فئة العلماء و المتعلمين.

[1]- عثمان برايماباري،*جذور الحضارة الإسلامية* ص-ص 333-343.

ثانيا:أثر الحركة العلمية في المعتقدات و العادات و التقاليد

أ_ المعتقدات

يعتبر الدين العنصر الفعال في المجتمع السوداني و في هذا يقول دولافوس:" ما من نظام يشاهد في إفريقيا السوداء سواء كان نظاما اجتماعيا أو سياسيا أو اقتصاديا إلا و هو يرتكز على فكرة دينية أو أن الدين هو حجر الزاوية فيه"[1]، لكن الفكرة الدينية في المجتمع السوداني اتخذت أشكالا متعددة كما أن بعضها يختبئ تحت قناع الإسلام أو المسيحية مما جعل من الصعب دراستها حتى أننا نجد منهم من هو مسلم و وثني في وقت واحد[2].

و وصول الإسلام إلى بلاد السودان و تسربه السلمي عبر قرون أدى إلى تغير الكثير من المعتقدات الوثنية لكن هذا لا ينفي أن مظاهرها بقيت تشوب المجتمعات السودانية المسلمة رغم تصدي السلاطين و رجال العلم و الدين لها ، و يمكن تلخيص هذه المظاهر فيمايلي:

ــ تقديس الملوك و قد عرفت بلاد كانم – برنو بذلك، فالماي عندهم بمثابة الملك و الإله الذي تنتسب إليه القوة و يقول المهلبي في هذا الصدد:" و ديانتهم عبادة ملوكهم ، يعتقدون أنهم يحيون و يميتون و يمرضون و يصحون...و يده–يقصد هنا ملك الزغاوة– مطلقة في رعاياه و يسترق من شاء منهم...و هم يعظمونه و يعبدونه من دون الله تعالى"[3]، و في غياب التنصيص الكافي عن هذا المعتقد لكنه غير مستبعد عبادتهم لملوكهم في ظل الوثنية المنتشرة و المتنوعة ، كما يؤكد البكري هذا لكنه يصفهم هنا بالمشركين فيقول:" و بين زويلة و بلد كانم أربعون مرحلة و هم وراء صحراء زويلة لا يكاد يصل إليهم أحد و هم سودان مشركون"[4] ، و اعتناق الملوك للإسلام على يد الدعاة و العلماء أثر في هذا المعتقد لديهم و يظهر ذلك من خلال اهتمام الملوك أنفسهم بإحياء الشعائر الدينية و أدائهم الفرائض و حرصهم على التعلم لكن هذا لم يمنع من بقاء بعض الشوائب منها أن الملك لا يكلم أحد إلا من وراء حجاب و في هذا يقول فضل الله العمري منتقدا هذه الظاهرة:" و ملكهم على حقارة سلطانه و سوء بقعة مكانه لا ندرك من الكبرياء يمسح برأسه عنان السماء،مع ضعف

---

[1]- Mourice delaffousse , les civilisation négro-africane,op cit,p135.

[2]- نعيم قداح،*حضارة الإسلام و حضارة أوروبا في إفريقيا الغربية*،ص29.

[3]- ياقوت الحموي،*معجم البلدان*،ج3،ص142.،و انظر :جوان جوزيف،*الإسلام في ممالك و إمبراطوريات إفريقيا السوداء*،ص 95.

[4]- البكري،*المالك و المسالك*،ص11.

أجناد و قلة متحصل بلاد،محجوب لا يراه أحد إلا في يومي العيدين،يرى بكرة و عند العصر و في سائر السنة لا يكلمه أحد و لو كان أميرا من وراء حجاب"[1].

ــ تقديس مظاهر الطبيعة: منها:

1:عبادة الحيوانات:حيث يعتبر في عرف بعض القبائل أن الحيوان غير منفصل عن حياة الإنسان، و مثالنا في ذلك منطقة بحيرة تشاد التي شهدت حضارات قدست الحيوانات و يظهر هذا في التماثيل التي وجدت بالمنطقة التي لها جسم إنسان و رأس حيوان المتمثل في الخروف حيث كان له مكانة مقدسة عند قبائل الصو[2]، كما استمرت هذه المظاهر بعد انتشار الإسلام في إقليم برنو في هذا يذكر محمد بيلو :" حدثونا أن لسلاطينهم و أمرائهم اليوم موطن يركبون إليها،و يذبحون لها و يرشون بالدماء على أبواب قريتهم،و لهم بيوت معظمة فيها حيات، و أشياء يذبحون لها"[3] .

2:تقديس النبات و المعادن:لبعض النباتات مركز هام عند القبائل لاعتقادهم أن لها تأثيرها على النسل ،كما قدست بعض الأحجار و الصخور و الأواني و بخاصة إذا كانت ترمز للأسلاف مثل قبائل الكوتوكو في جنوب بحيرة تشاد التي قدست بعض الأحجار[4].

3:تقديس الأرض و المياه:فالأرض موضع تقديس عند القبائل الزراعية حيث تمثل الإله الأعظم عند بعض القبائل الهوسية (قبائل الايبو) ،كما تعطى أهمية بالغة للمياه خاصة المناطق الجافة، كما وجد عند بعضهم تقديس الهضاب و الكهوف و الرياح و النجوم[5]

ــ إضافة إلى ما سبق كانت عبادة السلف أمرا شائعا لدى المجتمعات السودانية و أن أرواح الأجداد هي المسؤولة عنهم و أنها تراقبهم و تنظم أمور جماعتهم، و حسبهم لهذه الأرواح القدرة على تحقيق الخير و الشر ، و كانت تقدم لها القرابين في المناسبات المختلفة[6].

ــ التنجيم و السحر : كان من الطبيعي في بيئة تتحكم فيها و تحركها القوى الظاهرة و الخفية أن ينشأ السحر ليستعين به الأفراد لاكتساب تلك القوى أو التصدي للقوى الشريرة التي تهدد حياتهم[7] و

[1]- العمري،*مسالك الإبصار*،ص،ص53،54،أنظر:ابن بطوطة،*تحفة النظار*،ص679.
[2]- نعيم قداح،*حضارة الإسلام و حضارة أوروبا في أفريقيا الغربية*،ص35.
[3]- محمد بلو:*إنفاق الميسور*،ص 9.
[4]-نعيم قداح، *حضارة الإسلام و حضارة أوروبا في أفريقيا الغربية* ،ص 35.
[5]- شوكت عارف الأتروشي،*دولة كانم الإسلامية*،ص 53.
[6]- أمين أسبر،إفريقيا سياسيا و اقتصاديا و اجتماعيا،ص175.
[7]- ننعيم قداح، *حضارة الإسلام و حضارة أوروبا في أفريقيا الغربية* ،ص 40.

و عليه نشأ السحر ليخدم الأفراد ، و يلقب الساحر عنهم بالكاهن الطبيب ،يبيع للناس التمائم للشفاء من الأمراض و استنزال المطر و اجتلاب الحب و طرد الجن...[1]

و اعتناق الإسلام سيتبعه تدريجيا اختفاء مثل هذه العادات و المعتقدات التي كان مصدرها الجهل و مبناها الوهم ، و يظهر ذلك في العرف القبلي حيث جعل من السحر جريمة يعاقب فاعلها عقابا كبير سواء أن يحرق أو يغرق في النهر أو يضرب عنقه بالسيف أو يضرب بالعصي حتى الموت،و زال بذلك سبب من أسباب ظلم الإنسان لأخيه الإنسان[2].

بـ_ العادات و التقاليد

العادات و التقاليد في بلاد السودان الأوسط شكلت جزءا لا يتجزأ من الموروث الحضاري لبلاد السودان عموما،و الذي غالبا ما تميز بالنظام القبلي البدائي[3] ، و قد حارب الإسلام و رجال العلم الكثير من العادات التي تجدرت في تلك المجتمعات.

ـــ و من أبرز العادات التي حاربها الإسلام هي ظاهرة العري و التعري ، و يقول الدارسون أن للمناخ و البيئة أثر كبير في وجودها، و يذكر الوزان عنهم:" يسير أهل البلاد عراة في الصيف بمأزر من الجلد و يتدثرون في الشتاء بجلود الغنم و يفترشوها كذلك"[4]، و تذكر المصادر كذلك عن مملكة كانم أن العامة يعيشون عراة ، أما الطبقة الخاصة فكان لهم زيهم الخاص حيث يقول المهلبي عند حديثه عن ملك الزغاوة :" و زيه لبس سراويلات من صوف رقيق و الاتشاح عليها بالثياب الرفيعة من الصوف الأسماط و الخزرو السوسي و الديباج الرفيع...و أكثر رعاياه مؤتزرون بالجلود"[5]، أما الإدريسي فيخبرنا عن الزغاوة :" هم عراة يسترون عوراهم فقط بالجلود المدبوغة من الإبل و المعز"[6].

و بقيت ظاهرة العري في المجتمعات السودانية حتى بعد الإسلام و ربما يعود السبب هنا أولا لتأثير المناخ و ثانيا لتجدر هذه العادة منذ القديم و لم يكن من السهولة استئصالها .

---

[1]– أمين أسبر،المرجع السابق،ص 175.

[2]– محمود سلام الزناتي،"رسالة الإسلام في أفريقيا"،ص،ص53،54.

[3]– اعتبر كير من المؤرخين و الرحالة العرب أن حياة أهل السودان كانت من حياة البهائم لسذاجتها و بساطتها و غياب لكثير من القواعد و القوانين و القيم و الأخلاق أنظر:الأنصاري،*نخبة الدهر*،ص،ص 15،17،241،أبو الفداء،*تقويم البلدان*،ص57،ابن خلدون،*العبر*،ج1،ص70، الحسن الوزان،*وصف إفريقيا*،ج1،ص71،شهاب الدين محمد عبد الوهاب النويري،*نهاية الأرب*،(د.ط)،القاهرة،مطبعة و دار الكتب المصرية،1923م،ج1،ص210.

[4]– الحسن الوزان،المصدر السابق،ج2،ص176.

[5]– ياقوت الحموي،*معجم البلدان*،ج3،ص 142.

[6]– الإدريسي، زهة المشتاق،ص49

ـــ أما الظاهرة الثانية التي ميزت المجتمعات السودانية هي انتشار الفواحش نتيجة الترخص الجنسي ، حيث أن التقاليد تجيز للشباب و الفتيات الاتصال جنسيا قبل الزواج بل أن قيمهم لا تنكر أن تلد الفتاة طفلا أو طفلين من رجل أو رجلين قبل الزواج[1]، فقد جاء عن الإدريسي :" و هم أكثر الناس فسادا، و نكاحا و أغزرهم أبناء و بناتا...و هم في ذواتهم كالبهائم لا يبالون بشيء من أمور الدنيا إلا بما كان من لقمة و نكحة"[2].و يضيف الوزان عن إقليم برنو قبل إسلامهم:" كانوا كالبهائم يشتركون في النساء و الأولاد"[3].

و عالج الإسلام مثل هذه الظاهرة أن أباح تعدد الزوجات حيث يسمح للمجتمعات السودانية التي اعتادت المبالغة في عدد الزوجات و الترخص الجنسي (فمن الملوك و رؤساء القبائل من حاز العشرات بل المئات من النسوة)،أن تحقق تطورها دون التعرض لهزات عنيفة تهد كيانها الموروث منذ قرون[4].

ـــ أما المرأة في مجتمعاتهم رغم ظاهرة الفواحش تمتعت بدور هام إلى جانب الرجل، و قد مارست حريتها قبل الإسلام و بعده، و كانت لها استقلاليتها مثل احتفاظها بثروتها وفق قواعد قبيلتها[5]، كما تدخلت النساء في شؤون الحكم و لا سيما أم السلطان أو زوجته الأولى ، كما انتسب الحكام إلى أمهاتهم (يرجع لنظام الأمومة القديم)، على أن ذلك تغير بعد رسوخ الإسلام و أصبح الملوك ينتسبون إلى آبائهم[6]، كما تعززت مكانة المرأة عندهم عكس ما يدعيه الغربيون عن انحطاطها نتيجة التأثير الإسلامي[7] .

و هذا العرض الموجز عن المعتقدات و العادات التي ميزت المجتمعات السودانية لا بد قابلتها بعد تغلغل الشريعة الإسلامية عادات و تقاليد إسلامية خاصة بعد القرن 5هـــ/11م، حيث انتشرت الاحتفالات الدينية و ازداد السودانين معرفة بأعياد دينهم و قدروها و قدسوها رغم كما قلنا بقاء

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1]- محمود سلام الزناتي،"رسالة الإسلام إلى إفريقيا"، *مجلة العربي*،عدد114(1968م)، الكويت ،وزارة الإرشاد و الأنباء، ص54.

[2]- الإدريسي،*نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*،ص 33.

[3]- الحسن الوزان،*وصف أفريقيا*، ج2،ص176،أنظر :محمد بلو،*إنفاق الميسور*،ص11.

[4]- محمود سلام الزناتي،" رسالة الإسلام إلى إفريقيا"،ص 55.

[5]- نعيم قداح،*إفريقيا في ظل الإسلام*،ص95.

[6]- شوكت عارف الأتروشي،*دولة كانم الإسلامية*،ص58.

[7]- يقول الكثير من المؤرخين الغربيين أن تأثير الإسلام في وضع المرأة من الأمور التي تحسب عليه لا له،فمثلا ترمنحهام يتكلم عن وضع المرأة في إفريقيا و يقول كلما اشتدت قبضة الإسلام ازداد وضع النساء انحطاطا،و هي دعوة ظالمة ما لها أساس،أنظر:محمود سلام الزناتي،"رسالة الإسلام إلى إفريقيا"،ص55.

شوائب الوثنية نتيجة الفهم البسيط أو الغير صحيح لتعاليم الإسلام إضافة إلى حفاظ بعض القبائل على وثنيتها حتى قرابة نهاية العصور الوسطى و من هذه العادات و الاحتفالات الإسلامية:

ــ الزواج:فكما بينا أن الزواج قبل الإسلام تميز بعدم الانتظام (حتى يمكن أن يجتمع على المرأة حوالي 12 رجلا في كوخ واحد)[1]،أصبح هذا الزواج يتم وفق التقاليد الإسلامية ،أي يشرف عليها القاضي أو الإمام أو الشيخ و مثالنا في ذلك قبائل الهوسا التي حافظت على التقاليد الإسلامية حيث تتم الخطوبة تحت إشراف الأهل ، و العريس لا يرى عروسه إلا ليلة دخلتها، و تقوم الاحتفالات لمدة أسبوع بهذا العرس لينتهي يوم الأربعاء أو الخميس أين يتم عقد الزواج في المسجد ، و يزف الزوج من قبل أصدقائه بالدعاء و الأذكار و الصلاة على الرسول صل الله عليه و سلم،مما يدل علة ترسخ التقاليد الإسلامية عندهم[2]. أما الصداق (قبل الإسلام كانوا يتناكحون بدون صداق) فلم يحدده الإسلام لذا اختلف بين الطبقات ، فمثلا النبلاء و الخاصة وصل المهر عندهم من 6إلى 9إبل مع أشياء أخرى متمثلة في سلاسل و حلي ،أما المهر عند العامة رأسان من الماعز و نحوه[3].

ــ من العادات الإسلامية أيضا تسمية المولود و ختانه ، يتم الاحتفال في المسجد حيث يقوم الشيخ بقراءة آيات قرآنية من الذكر الحكيم ثم يعلن عن اسم المولود من طرف أبيه أو جده ثم يتم ختانه،يدعوا له الشيخ ، كما يتم أيضا تلاوة القرآن في بيت الوالد[4].

ــ الاحتفال بالمولد النبوي الشريف: كان سكان بلاد السودان الأوسط يحتفلون بالمولد النبوي، فعند قبائل الهوسا مثلا يبدأ الاحتفال من اليوم السابع و العشرين من شهر صفر في المساجد و المدارس،حيث يتم قراءة قصائد المدح المصطفى للشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، إضافة إلى ختم القرآن، أما ليلة المولد يخرج الأهالي إلى شوارع المدن و هم يقرؤون القصائد و المديح إلى أن يصلوا المسجد حيث يمكثون هناك إلى طلوع الفجر ، و يختم الاحتفال بتوزيع الصدقات و الهبات و الدعوات بالخير و العفو و التسامح[5].

[1]- الحسن الوزان،*وصف إفريقيا*،ص،ص159،160 ،أنظر:مارمولكربخال، إفريقيا،تر:محمد حجي و آخرون،(د.ط)، الرباط،دار المعرفة،1989م، ج3،ص196.

[2]- الهادي مبروك الدالي،*قبائل الهوسا*،ص-ص206،209.

[3]- أحمد بابير الأرواني،جواهر الحسان في أخبار السودان،مخطوطة،ورقة15.

[4]- الهادي مبروك الدالي،*قبائل الهوسا*،ص 213.

[5]- نفسه،ص- ص 215-217.

ـ الاحتفال بالعيد : ذكر لنا ابن بطوطة عن احتفال أهل السودان بعيد الفطر و الأضحى في مملكة مالي[1] و أكيد أنه لا يختلف في باقي المناطق التي ترسخ فيها الإسلام فملوك كانم مثلا رغم الكبرياء الذي وصفهم به العمري بسبب احتجابهم عن الناس إلا أنهم يوم العيدين كانوا يظهرون للناس في البكر و بعد العصر مما يظهر قداسة الأعياد الدينية عندهم مع احتفاظهم ببعض مظاهر الوثنية[2].

و كما أوضحنا في بداية هذا المبحث أن أهل السودان كانت لهم معارف عن الكون و العالم أنتج عندهم معتقدات و طقوس و احتفالات و عادات و تقاليد بقيت منتشرة حتى بعد توسع انتشار الإسلام و قيام ممالك إسلامية ، إلا أنه لابد من أن نؤكد أن هذه المعارف قد تغيرت و صححت تدريجيا من خلال التقليل من المفاهيم السحرية التي كانت تسيطر على عقول الناس ، و كان ذلك على يد السلاطين المسلمين المتعلمين الذين كانوا يشنون الحروب الدائمة على القبائل الوثنية و قد اشتهر بذلك ملوك كانم برنو هذا من جهة ، من جهة أخرى توصل أهل السودان لتصحيح معارفهم عن طريق الكتب التي كانت ترد أسواقهم، و عن طريق الطلاب السودانيين الذين برحلاتهم باتجاه الشمال للدراسة و كانوا يعودون فيشيعون ما تلقوه من معارف في مدنهم و قراهم، كما لا ننسى الدور الكبير و المهم للعلماء سواء الوافدين من الشمال و الشرق أو علماء المنطقة عن طريق نشر بناء المدارس و الكتاتيب و نشر التعليم بين السكان حتى أنهم كانوا يترجمون الخطب و دروس الوعظ في المساجد باللغات المحلية حتى يفهموها[3] .

و هكذا بدأ أهل السودان يعيشوا مع عصرهم في مجال المعرفة بواسطة نشر الإسلام و ما تبعه من نشر العلوم و المعرفة على يد السلاطين و العلماء و الطلاب ، و رغم بقاء رواسب الوثنية إلا أن أهل السودان الأوسط استوعبوا الكثير من التعاليم الإسلامية و منها تغير ت سمات مجتمعاتهم.

[1] – ابن بطوطة،*تحفة النظار*،ص-ص 686-691.

[2] – العمري،*مسالك الأبصار*،ج4،53،أنظر: القلقشندي،*صبح الأعشى*،ج5،ص271.

[3] – عبد القادر زبادية،*مملكة سنغاي*،ص-ص133-139.

ثالثا: أثر الحركة العلمية في النظام القبلي

_ النظام القبلي[1]

كان النظام القبلي و مازال الطابع المميز للحياة الاجتماعية في إفريقيا عموما و هو في تلك المرحلة من تاريخها – العصور الوسطى- يبدوا شكلا طبيعيا احتوى حياة الإنسان السياسية و الاجتماعية[2]، و منطقة السودان الأوسط على غرار المناطق الأخرى في إفريقيا انتشرت بها مجموعات قبلية كثيرة منها القبائل المحلية و منها القبائل المهاجرة ، و أدى اختلاط هؤلاء إلى ظهور مجموعات سكانية جديدة.

- القبائل السودانية (الزنجية) :

1: قبائل الصو[3]: هم السكان الأصليون للمنطقة يسكنون حول بحيرة تشاد في الجنوب، قد ترجع أصولهم إلى سلالة الهكسوس الذين هاجروا إلى المنطقة خلال القرن الرابع ميلادي، أقاموا بالمنطقة حضارة قديمة[4] لكن الغموض مازال يكتنف الكثير من تاريخها المبكر[5].

2: قبائل الكانمبو (الكانوري)[6] يعتقد أنها خليط من قبائل بربرية و قبائل الصو ، استقروا شرق البحيرة و عرفوا بنشاطهم الزراعي ، اختلطوا في فترات بقبائل العربية و البربرية المهاجرة إلى المنطقة لذا يعتبروا خليط من الأجناس ، ظهرت هذه القبائل على مسرح الأحداث في القرن 3هــ/9م بمساهمتهم في تأسيس دولة كانم ، إليهم يرجع الفضل في استخدام الخيول بالمنطقة و عرفوا بالعناية بها حتى صاروا أمهر الفرسان و شكلوا القوة الرئيسية لسلاطين كانم فيما بعد[7].

---

[1]- القبيلة:تتكزن من مجموعة من العشائر تجمعهم شجرة نسب واحدة، فهم ينحدرون جميعا من جد معروف الاسم، و تحديد النسب لدى القبائل السودانية ليس تبيان لتاريخ الماضي بقدر ما هو ضرب من الميثاق للساوك الاجتماعي بين الأحياء من أبناء الجماعة و أرواح الأسلاف،أنظر:د.س لويد،*إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي*،تر:شوقي جلال،المجلس الوطني للثقافة،الكويت،1980م،ص

[2]- محمود سلام زناتي،" رسالة الإسلام في إفريقيا"،ص52.

[3]- فسر بالمر كلمة الصو بالعماليق الذين قدموا من فزان و من خلفاء الصو الحاليين قبائل الكوتوكو،المسجر،البيلو،أنظر:
Trimingham,A History of west Africa,p105,106.

[4]- تؤكد الدراسات أن قبائل الصو قد تركت على أرض برنو آثار واضحة ،فقد أثبت علماء الآثار أنه كان للصو حضارة عظيمة و أجادو بناء المدن باستعمال الطوب الأحمر،أنظر:جوان جوزيف،*الإسلام في ممالك و إمبراطوريات إفريقيا السوداء*،ص 90.

[5]- شوكت عارف الأتروشي،*دولة كانم الإسلامية*،ص33.

[6]- اشتق اسمهم من مكان إقامتهم كانم فنقول رجل من كانم أو رجل كانمي و الجمع الكانميون أو الكانم – بو أما كانوري كلمة مشتقة من الكلمة العربية نور مع إضافة الكاف إلى أولها و بهذا يصبح معناها حامل النور اشارة إلى الإسلام الذي اعتنقه الكانوري،أنظر:دائرة المعارف الإسلامية،مادة برنو،ج6،ص579.

[7]- شوكت عارف الأتروشي،*دولة كانم الإسلامة*،ص،ص 39،40.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

3:قبائل الهوسا: و قد سبقت الإشارة إليهم يتمركزون في السهول الفسيحة بين نهر النيجر و بحيرة تشاد،اختلطوا بالكانوري و الفولانيين ، يتكلمون لغة واحدة هي اللغة الهوسية التي تعتبر من أهم اللغات الإفريقية، دخلت هذه القبائل الإسلام منذ القرن 8هـــ/14م[1].

4: قبائل البولالا[2]: أصلهم من الكانمبو مع تأثرهم الواضح بالدماء العربية، تنتشر في المناطق الشرقية من بحيرة تشاد[3]، و أخبار هؤلاء البولالا لم تتضح إلا بعد بروزهم كأعداء للأسرة الحاكمة في كانم — — برنو ابتداء من القرن6هـــ/12م، و قد استمر ضغطهم على كانم خلال القرون التالية إلى أن سيطروا على الحكم و دفعوا بالعائلة السيفية إلى إقليم برنو في القرن 8هـــ/14م.

5: قبائل الفولاني: ينتشرون في مناطق واسعة من السودان الأوسط ، تضاربت الآراء حول أصولهم ، اشتهروا بنشرهم للإسلام في بلاد الهوسا .

- القبائل العربية و البربرية

انتشرت في المنطقة أيضا قبائل مهاجرة من العرب و البربر و كانت هجرتها في فترات زمنية مختلفة و لأسباب عدة، و شكلت مع القبائل السودانية المحلية المجتمع القبلي في السودان الأوسط و نكتفي هنا بذكرها:

1: القبائل العربية و هي جذام، الحساونة،جهينة،فروع من بني هلال .

2:القبائل البربرية و هي التبو الزغاوة،الطوارق[4].

و عرفت هذه القبائل المنتشرة في السودان الأوسط تغيرات ملحوظة على نمط حياتها منذ انتشار الإسلام و ما تبعه من قيام ممالك إسلامية و التي أسست لحضارة أكثر رقيا ، و انقسم المجتمع تدريجيا بتوسع العمران إلى سكان الحضر و سكان البدو :

- سكان الحضر: هم المعروفون بالاستقرار في المراكز العمرانية يزاولون الزراعة و صيد الأسماك و الصناعة و التجارة و يخضعون لسلطة مركزية[5] و من أبرز المراكز العمرانية التي استقروا

---

[1]- للتفاصيل أنظر :الفصل الأول مبحث 3.

[2]- كلمة بولالا معناها أحرار الطوارق، حيث يعتقد أنهم من الأسرة الماغومية التي حكمت كانم،أنظر:عبد الفتاح مقلد الغنيمي، *حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*،ص33.

[3]- وصف الوزان بلادهم أنها تمتد إلى حدود مملكة نوبيا شرقا و تنتهي جنوبا بصحراء تتاخم أيضا منعرجا للنيل، و شمالا إلى صحراء سرت و تخوم مصر،أنظر:الوزان،*وصف إفريقيا*، ج2،ص،ص177،178.

[4]- تنازلنا هذه القبائل في الفصل الثاني ضمن مبحث الهجرات المختلفة إلى المنطقة

[5]- منير بوغرارة،*محمد بن عبد الكريم المغيلي و مساهمته في الثقافة الإسلامية في غرب أفريقيا*،ص25.

فيها:انجيمي،غسرغمو[1]،كانو،كاتسينا،زاريا، و من أهم القبائل التي عرفت باستقرارها في المدن قبائل الكانمبو[2]

– سكان البدو:حافظوا أكثر على النظام القبلي و لا يعرفون الاستقرار في أغلب الأحيان ،فهم يجوبون بإبلهم و أغنامهم السهول و الصحاري طلبا للرزق و المراعي و الصيد ، و منهم من مارس الإغارة على غيرعم من القبائل أو الإغارة على القوافل التجارية ، كما عملوا قواد و أدلاء للقوافل مقابل الإتاوات و من هذه القبائل:التبو ،الطوارق،و أشهر الرعاة هم الفولانيين الذين انتشروا في السهول الفسيحة للهوسا،قبائل الشوا العربية[3].

و من الملاحظ أن فروقا اجتماعية بدأت تظهر نتيجة عن حياة كل منهما – أي البدو و حضر – و لقد حدد ليو الإفريقي الفرق بمايلي:" لا يختلفون إلا بوضعيتهم الاجتماعية، فالعيش تحت خيام الوبر رمز الحرية و الشرف بينما حياة الحضر هي رمز الذل و العبودية..." [4]، غير أنه يمكن أن نلاحظ فرق أخر غير الذي ذكره الوزان و المتعلق بالحرية و العبودية و هو الإقبال على التعليم و رفع المستوى الفكري، فسكان المراكز العمرانية كان حظهم أكبر لتوفر المساجد و الكتاتيب و المدارس و المعلمين و قربهم من السلطة التي أولتهم عنايتها و لهذا يمكن القول أنه عندما يدخل المجتمع مرحلة أكثر تطور يصبح النظام القبلي عنصر اضطراب و أذى ، و من ذلك الذي حدث لدولة كانم إثر القلاقل التي كانت تسببها القبائل العربية(جذام) و قبائل البولالا منذ القرن 6هـــ/12م وهنا تظهر أهمية الإسلام بوصفه عاملا هاما من عوامل إضعاف العصبية القبلية و بالتالي سببا هاما إلى تحقيق التوافق و الانسجام بين أعداد كبيرة من البشر مختلفة العروق و الأنساب.

فاعتناق الإسلام و تغلغله حرر الفرد في بلاد السودان من إطار القبلية و يدمجه في مجتمع أوسع يضم قبيلته كما يضم أفراد من قبائل أخرى، و الإسلام يعجل بتفكك النظام القبلي إلى أنه لا يترك الفرد فريسة الشعور بالضياع و إنما يمنحه مجتمعا أرحب تسوده قيم أرقى:الإخلاص،الوفاء، كما أن الإسلام يسوي بينه و بين غيره من المسلمين أيا كان جنسهم و لونهم و ألسنتهم و أوطانهم، و هذه الحقيقة جعلت الغربيين يقولون:" إن الإسلام يأخذ بيد الزنجي و يمنحه المساواة مع الناس جميعا ...و

[1]– أحمد محمد كاني،*الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا*،ص 17.

[2]– شوكت عارف الأتروشي،*دولة كانم الإسلامية*،ص 39.

[3]– عبد الفتاح مقلد الغنيمي،*حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا*،ص- ص 22-36.

[4] – الوزان،*وصف إفريقيا*، ج2،ص180.

الإسلام بالنسبة للزنجي سلم نحو مفهوم أسمى للوجود" [1]، و يؤكد ابن بطوطة أنه لاحظ بداية تفكك النظام القبلي على الرغم من وجود بعض الرواسب خاصة عند القبائل الوثنية [2].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]– محمود سلام الزناتي،" رسالة الإسلام إلى إفريقيا"،ص،ص52،53.

[2]– نعيم قداح،*إفريقيا الغربية في ظل الإسلام*،ص95.

رابعا:أثر الحركة العلمية في الفن المعماري

كان تقدم الإسلام و انتشار العلوم في بلاد السودان منذ القرن الخامس هجري الحادي عشر ميلادي أن تأثر الأسلوب المعماري بالطابع الإسلامي المغربي، و قبل ذلك عرف السودانيين بأسلوب معين بالعمارة و هو البناء المستدير و هو خاضع لعوامل البيئة و المناخ.

فالمتأمل لفن العمارة السوداني الأصيل يجد فيه البساطة التي تعبر عن تأثير الوسط الذي يعيش فيه أهل السودان[1]،حيث نميز أن البناء عندهم يكون على الشكل المستدير و المغطى بسطوح هرمية،أما المواد التي استعملوها هي:الطين (الغضار)،الحطب،القش(التبن)،أما الحجارة[2] فنادرا ما وجدت في بناياتهم،كما استعملوا أيضا الطوب المشوي(الآجر).

أما الحيطان فتبنى بالطوب و نادرا ما تتخللها الحجارة (خاصة عند العامة)، و بالنسبة لبيوت الأغنياء و الأعيان و الطبقة المالكة فتبنى حيطانها عادة بالطوب المشوي[3]، في حين بيوت الفقراء و متوسطي الحال فتبنى بالطوب المجفف و يخلط بالتبن أحيانا حتى يزداد صلابة[4]، كان يلحق بالمترل عادة حوش أو زريبة و هذا لإيواء الحيوانات[5]، و يصفها لنا القلقشندي :" مبانيها متفرقة ،و تبنى بالبالستا، وهي أن يبتنى بالطين بقدر ثلثي ذراع ثم يترك حتى يجفف ،ثم يبتنى عليه مثله و كذلك حتى ينتهي ،و سقوفها بالخشب و القصب و غالبها قباب أو جلمونات كالأقباء ، و أرضها تراب مرمل".

و مثل هذه البناءات التي أقامها أهل السودان ،لم يبقى لها أثر نتيجة التخريب الذي طالها في فترات الحروب من جهة و من جهة أخرى لم تتماسك أمام توالي العصور ذلك لأن مواد البناء المستعملة كانت من الطين أو الخشب سهلة الإتلاف[6].

و يعتبر المؤرخون أن القرن 8هـــ/14م مولد الأسلوب السوداني في العمارة المتأثر بشكل كبير بالفن المعماري في بلاد المغرب، و يرجع الفضل في ذلك للمهندس الأندلسي " إبراهيم الساحلي" و

---

[1]- نعيم قداح،*إفريقيا الغربية في ظل الإسلام*،ص 153.

[2]- تؤكد بعض الدراسات عن وجود مساكن بنيت بالحجر تعود لفترات قديمة و يجهل الشعوب التي بنتها ،لكن يؤكد الباحثون أنه غير مستبعد أن تكون من عمل إنسان من جنس أسود و هذه الآثار عبارة عن جدران حجرية و أسوار موجودة جنوب نهر النيجر ، كما وجدت أعمدة أحادية شكلها أسطواني في حزام النيجر (عند قبائل سكنت جنوب نيجيريا) و هذه الأعمدة ليس لها ميزة فنية،أنظر:. Mourice Delaffousse , les civilisation ,op cit,p130

[3]- تؤكد البحوث أن أول من استعمل الطوب المشوي هم قبائل الصو القاطنين جنوب بحيرة تشاد و هذا في حضاراتهم القديمة،أنظر:جوزاف جوان،*الإسلام في ممالك و إمبراطوريات إفريقيا السوداء*،ص90. نعيم قداح،*حضارة الإسلام*،ص 47.

[4]- عبد القادر زبادية،*مملكة سنغاي*،ص 165.

[5] -Mourice Delaffousse,op cit,p135.

[6]- نعيم قداح، *إفريقيا الغربية في ظل الإسلام*،ص153.

الذي قدم مع السلطان منسى موسى – سلطان مالي- من الأرض الحجازية أين التقيا هناك ، و يذكر ابن خلدون :" و رجعنا معه إلى حضرة ملكه فأراد أن يتخذ بيتا في قاعدة سلطانه محكم البناء مجللا بالكلس لغرابته بأرضهم أطرفه أبو إسحاق الطويجن ببناء قبة مربعة الشكل استفرغ فيها إجادته و كان صناع اليدين و أضفى عليها من الكلس و والى عليها بالأصباغ المشبعة فجاءت من أتقن المباني و وقعت من السلطان موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم" [1]

كما أشرف هذا المهندس على بناء عدد من المساجد منها مسجد" جانكوبر" في تمبكتو و آخر في غاو،و مسجد آخر في العاصمة المالية"نياني" ، و قد أشار الوزان الذي زار تمبكتو بعد قرنين تقريبا إلى المسجد و القصر الذين بناهما المهندس الأندلسي[2].

و قد تتبع السلاطين الاهتمام بالعمران مستعينين بمهندسين عرب و إفريقيين درسوا فن العمارة و تمرسوا عليها في فاس و مراكش[3]،و منذ تلك الفترة تولد شكل آخر من الأشكال المعمارية في بلاد السودان عامة و التي تعتبر مثلا عظيما عن تمازج الفن العربي و الإفريقي[4].

و ما يهمنا من العمارة في بلاد السودان هي المساجد باعتبارها أهم مؤسسة تعليمية إلى جانب دورها و قداستها الدينية، و اتخذت المساجد الشكل الهرمي ،حيث يبنى المسجد في هيئة مربعة ثم ترفع حيطانه و تتخللها الأعمدة ، و بعد أن يسقف تبنى الصومعة على شكل هرمي في الغالب و قد يكون مربعا أحيانا ،أما نهايتها فهي حادة دائما[5] .

و في خضم حديثنا عن المساجد تجدر الإشارة أن الدراسات التي كانت حول المساجد في بلاد السودان الأوسط (عند الكانوري و الهوسا و الفولاني) تؤكد تأثرها بالنمط الإباضي و أثبت هذا التشابه من خلال دلائل ثلاثة:

ــ غياب المنبر في المسجد عند الفولانيين ، رغم اعتناقهم المذهب المالكي الذي يتمسك بوجود المنبر في المسجد، مما يفسر التأثير الخارجي عن مذهبهم، و يعلل الدارسون تأثر شعب الفولاني بطراز بناء المساجد عند الإباضيين و الذي يمكن أن يكون وصلهم من الجنوب التونسي و ميزاب عن طريق ورجلان أيضا.

[1]- ابن خلدون،*العبر*،ج6،ص 416.

[2]- الحسن الوزان،*وصف إفريقيا*،ج2،165.

[3]- نعيم قداح،*إفريقيا الغربية في ظل الإسلام*،ص160.

[4]- عبد القادر زبادية،*مملكة سنغاي*،ص 166.

[5] -Mourice Delaffousse,les civilisation,p135.

ـ الخاصية الثانية هي المحراب ذو الشكل المستطيل عند شعب الفولاني و تؤكد الدراسات المقارنة للمساجد في وادي ميزاب و عند الفولانيين بالسودان الأوسط تأثرهم بهذا الطراز الإباضي.

ـ و أهم خاصية هي المئذنة ذات الشكل الهرمي التي تعد طابعا يميز مساجد الإباضية عن غيرها من مساجد العالم الإسلامي ، هذه المئذنة بهندستها الجميلة المتميزة موجودة في مساجد شعب الفولاني و الهوسا و الكانوري، مما يدعم فكرة التأثر بالطراز المعماري الإباضي الذي انتقل مع الحضارة الإسلامية إلى هذه المناطق[1].

و مما ذكر يتضح لنا أن بلاد السودان عموما و الأوسط خاصة قد تأثر بالفن المعماري المغربي – الإباضي- و أوجد لنا هذا التأثر فن معماري سوداني بارز عرف بمميزاته الخاصة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]- محمد صالح ناصر، *دور الإباضية في نشر الإسلام بغرب إفريقيا*،ص- ص 57-59.

الـــخاتمـــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الـخاتمـة

لعله من أوجب الأمور و نحن نشرع في الانتهاء من الحديث عن الحركة العلمية في بلاد السودان الأوسط و أثرها الاجتماعي و التي اخترنا لها إطارا زمنيا امتد من ق5هـ/11م إلى ق10هـ/16م أن نشير في عجالة مركزة إلى أهم النتائج التي استخلصنها من متابعتنا لمسيرة الحركة العلمية تلك.

و في البدا لابد من التأكيد على أن منطقة السودان الأوسط بحكم موقعها الجغرافي شكلت حلقة وصل بين شرق أفريقيا و غربها ، و بين شمال القارة و جنوبها، فكانت بذلك مستقرا لثقافات و تجمعات عرقية عديدة، و لم تعرف هذه المنطقة المدنية و الدولة و نظامها إلا ضمن الإطار القبلي الضيق و بقيت محدودة التأثير و التأثر حتى مجيء الإسلام الذي استطاع بما أوتي من قوة ذاتية و كونه دينا حضاريا و عالميا من نقل الإنسان الإفريقي من عصر الانعزال و التخلف إلى عصر الانفتاح و التطور فاستطاع تنظيم علاقة الفرد الإفريقي بمجتمعه و العالم الذي حوله.

و من ثم يمكن التأكيد أيضا على اقتران تاريخ منطقة السودان الأوسط بالإسلام ، فعلى الرغم من امتداد التاريخ السياسي للممالك السودان الأوسط- كانم برنو و دويلات الهوسا- إلى فترات سابقة للإسلام إلى أنها بقيت شبه معزولة عن العالم الخارجي حتى دخول الإسلام إليها و توسعه منذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي،فكان ذلك بداية لدخولها مرحلة جديدة بعد أن أصبحت جزءا من العالم الإسلامي.

و الحركة العلمية قد تدرجت في شيء من البطء نتيجة ظروف المنطقة المتمثلة في البدائية و البداوة التي كانت تعيشها و استمرت عليها لقرون رغم انتشار الإسلام ، فالعلوم كما يقول ابن خلدون تكثر حيث يكثر العمران و تعظم الحضارة، ، إضافة إلى الظروف السياسية و الاضطرابات القبلية التي عرفتها المنطقة خاصة القرن الرابع عشر الميلادي.

كما يتسنى لنا استخلاص حقيقة أخرى و هي أن النمو الذي عرفته الحركة العلمية ساهمت فيه العديد من العوامل لعل أهمها الخاصية التعليمية و الثقافية للدين الإسلامي فهو دين العلم و المعرفة و الثقافة و أينما انتشر الإسلام انتشر معه العلم فأول آيات القرآن الكريم كانت و مازالت تحث على القراءة و العلم و قد تجاوب أفراد المجتمع السوداني مع هذه الخاصية .

و كان لقيام المملك الإسلامية بمنطقة السودان الأوسط – مملكة كانم برنو و ممالك الهوسا- الأثر الواضح في إعطاء حركة العلوم و المعارف دفعة قوية و هذا لتشجيع حكامها للعلم و العلماء في سعيها لاحتلال مكانة مرموقة بين الدول الإسلامية المجاورة لها.

هذا إضافة إلى عوامل دفعت هي الأخرى بعجلة الحركة العلمية نحو التقدم و لو كان بطيء كما أسلفنا الذكر منها هجرات العديد من القبائل العربية و البربرية إلى منطقة السودان الأوسط و التي ساهمت من جهتها في إثراء الحركة العلمية عن طريق المساهمة في نشر لغة العلم و هي اللغة العربية ، فبعد أن استقرت القبائل خاصة العربية في المنطقة و احتكاكها و مجاورتها و مصاهرتها و تعاملاتها مع القبائل السودانية المحلية أصبحت اللغة العربية مع مرور الوقت لغة لها مكانتها بالمنطقة .

و من أهم العوامل كذلك هو الصلات مع المراكز الثقافية في الشمال و الشرق و الغرب:القاهرة ،فاس ،القيروان، تلمسان، تمبكتو،غاو،جني و التي ساهمت من جهتها في تغذية الحركة العلمية من خلال استقبال الطلبة الوافدين للتعلم و إيفاد علماء أجلاء إلى ممالك و دويلات السودان الأوسط.

و مما يندرج ضمن النتائج المستخلصة أن الحركة العلمية يظهر نشاطها من خلال العديد من المظاهر لعل أهمها التعليم الذي يعتبر بحق مقياس لنشاط الحركة العلمية لدولة ما و قد عرفت الممالك السودانية التعليم السائد في أقطار الدول الإسلامية في العصر الوسيط و خصصت له أماكن معينة ليزاول فيها و تمثلت في المسجد الذي يميز الحضارة الإسلامية عن بقية الحضارات و إلى جانب دوره الديني لعب دورا أساسيا في التعليم للكبار و الصغار و اعتبرت المساجد الكبرى جامعات أنتج علمائها مئات الكتب، دون أن نغفل الدور الذي لعبته الكتاتيب في تهيئة الصغار و تحضيرهم للمراحل التالية من التعليم إذا ثبت تفوقهم، فقد عرف التعليم مراحل يتدرج فيها الطالب من مرحلة لأخرى حتى ينال الإجازة التي تعتبر إقرار رسمي من الأساتذة الكبار بالمنطقة بأهليته للجلوس للتعليم

أما المظهر الثاني و هو الرحلة العلمية التي تعود عليها طلبة ذلك الزمان و التي ميزت الحضارة الإسلامية و قد أكد ابن خلدون فائدة الرحلة العلمية لطالب العلم و العالم و عدم الارتحال يعد انتقاص في قيمة العلم الذي يحمله هذا الطالب،أما المظهر الآخر هو انتشار اللغة العربية لغة العلم و كانت لها تأثيرات كبيرة على أبرز لغتين محليتين في المنطقة و هي لغة الهوسا و لغة الفولاني و أصبحت نسبة من ألفاظها ذات أصول و اشتقاقات عربية مع طبعا تحريفات كانت في تبديل الأحرف أو الأصوات أو الحركات أو حتى مدلول الكلمات في حد ذاتها ، لكن الحقيقة التي تفرض نفسها أن اللغة العربية خرجت منتصرة من الصراع مع اللغات المحلية و هذا ليس غريبا على اللغة العربية التي خرجت منتصرة حتى مع اللغات الحية و المكتوبة فما بالك اللغات المحلية الإفريقية التي ليس لها

نصيب كبير من الحضارة و الرقي، أما انتشار المذهب المالكي فقد ساد المنطقة كما أسلفنا الذكر و كان لانتشاره عوامل ساهمت في ترسيخه أبرزها العلاقات الوثيقة مع دول المغرب الإسلامي ، أما فيما يخص المراكز الثقافية المحلية فكان لظهورها دروا كبيرا في إثراء الحضارة الإسلامية بالمنطقة و ترسيخها و هي :كانو و كاتسينا التي اعتبرتا مراكز للإشعاع الحضاري خاصة القرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي و ما بعده بعد أفول نجم تنبكتو التي ظلت منذ تأسيسها مركزا ثقافيا ضاهى المراكز الموجودة في المغرب و المشرق .

كما يتسنى لنا استخلاص الكثير من النتائج فيما يخص المجتمع السوداني و مدى استيعابه للدين الإسلامي كعقيدة و ثقافة و هذا يتجلى خصوصا في مساهمتهم في الحركة العلمية التي كانت سائدة في المجتمعات الإسلامية في العصر الوسيط ورغم التطور البطيء الذي عرفته الحركة العلمية في بلاد السودان الأوسط مقارنة بالسودان الغربي إلا أن نخبة العلماء التي وفدت على المنطقة و حتى العلماء المحليين ساهموا في نشر الإسلام و التعليم بممالك السودان الأوسط و احتلوا بذلك مكانة اجتماعية عالية عند السلاطين و الناس على السواء ، كما ساهموا مساهمة فعالة في محاربة العادات و التقاليد الوثنية التي بقيت منتشرة حتى بمجيء الإسلام .

و أخيرا فإننا بإمكاننا أن نقرر بأن منطقة السودان الأوسط عرفت في الفترة الزمنية موضوع الدراسة حركة علمية أثبتت بأن السودانيين لم يكونوا بمعزل عن الاشتغال بالعلوم التي كان المشرق و المغرب تسيدها، و بمعنى آخر أنهم كانوا يتفاعلون مع التيارات الثقافية رغم حضورهم المتواضع.

الملاحق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملحق رقم 4

محرم الماي أوم جلمي Umme Jilmi(479هـ/1068م- 491هـ/1097م)

حول دخول الإسلام إلى كانم – برنو

بسم الله الرحمن الرحيم

الصلاة و السلام على سيدنا محمد و آله و صحبه . سلام من الملك أوم إبنيه اللذين سيخلفانه،و العاملين في الجيش ،و الموظفين ،و الزعماء ،و بقية الرعية ،اسمعوا و عوا إليكم البشرة.

أن أول بلد دخله الإسلام في السودان هو أرض برنو ،جاء ذلك على يد الفقيه محمد بن ماني الذي عاش في برنو ،و عاصر الملك بولو–Bulu خمس سنوات ،و الملك أركي–Arki ست سنوات ،و الملك كادي–Kadi أربع سنوات و الملك أوم أربع عشر سنة.

كان الإسلام يلقى انتشارا قبل ذلك بسنين و على يد محمد بن ماني ،أصبح دين الغالبية.ثم تم اقراره خمسين سنة من قبل الملك محمد،و من بعده مدة ست و عشرون سنة في زمن الملك عثمان.و خمس عشرة سنةفي عهد الملك عبد اللاه–Abdullahi– و مدة ثمان و عشرين سنة في عهد الملك عبد الجليل.و مدة تسع و ثلاثين سنة في عهد الملك محمد بن محمد،و عشرين سنة في عهد الملك عثمان.

كانت هذه السنوات ،هي سنوات الإسلام ، و عاش محمد بن ماني مائة و عشرون سنة.اقرأ خلالها الملك بولو من قوله تعالي"تبارك الذي بيده الملك"إلى "من الجنة و الناس"،فكافأه الملك بولو بمنحة خمسين بعيرا،كما أقرأ الملك أركي من سورة "يس" إلى " الناس" فمنحه ستين بعيرا،اقرأ الملك عبد الجليل من سورة "الأعراف" و ما بعدها،فمنحه ثمانين بعيرا،و أخيرا أقرأ الملك أوم كما حفظه من سورة البقرة إلى "الناس" ثم أقرأ سيرة الرسول صلى الله عليه و سلم مرتين،فكان أن كافأه بمنحة مائة بعير،و مائة قطعة ذهبية،و مائة قطعة من الفضة،و مائة عبد.

يقول الماي أوم اسمعوا و ، أن عدة قبائل حرام علي :أولا :المعلم محمد بن ماني الذي تعلمت منه القرآن و السيرة ،ثانيا:توراتوزار–Tura Tuzar – ،ثالثا:جماي امبارا– Gamayambara – ،رابعا: Kyi – Malakayi ،خامسا:dihiluri – ،سادسا: diriK – سابعا:– Ajama Bulumi – .

و على يد الماي أوم و محمد بن ماني انتشر الإسلام إلى يوم القيامة،و أن الماي أوم سيحرم أموال معلمه محمد بن ماني على نفسه و بنيه،و حاشيته،و من لا يطع أمر الملك و يحاول انتهاكه فسيحرمه الله من الجنة و يلقيه في نار جهنم،و من يطع أمره فسيترل الله عليه نعمته في الدنيا و الآخرة.

يقول السلطان أوم النبيل :« أن أموالهم و دماءهم هي تحت حراسة بني أوم ، و أنه سيحرمهم كلحم الخنزير و لحم الكلب ، و القردة و الحمير،يقول السلطان أوم : من يأكل مالهم فسيملأ الله بطنه بنار جهنم،و ليس هناك ضير في ترك أملاكهم لهم،و من ارتكب خطأ منهم فلتترك المسألة لزعيمهم و ليس من سبيل آخر غير هذا،هذا أمر السلطان لا تغيروه و لا تبدلوه، و لا تضطهدوا أبناء محمد بن ماني أبدا.

لا تبدلوا هذا الأمر ، و من يبدله بعد سماعه فإن عقابه سيكون كعقاب من ابتدع ،لأن الله سيرى عمله،انشروا الإسلام في أرض برنو،و جاهدوا في الحفاظ على ذرية محمد بن ماني.يوصي الملك أوم ابنائه :أنه جاعل أبناء محمد بن ماني في ذمتكم ، و قد أعفيتهم من واجب الضيافة رجالكم في الموسم الجاف أو دفع الدية،و كل أشكال الضرائب إلى زمن أحفادي،و إلى يوم القيامة،و كل من يمد يده ضدهم،فسيحرمه الله من بركاته،لأنه ينتهك أمري.

لقد شرف الملك أوم بني ماني بشرف الرسالة،أن أموالهم حرام مثل لحم الخنزير أو القردة و الحيوانات الميتة أو الدم المراق و الحمير إلى زمن أحفاده و هو يقول: Tura Tuzan ، هي ركن مملكتي ، و لذلك فإنه سيحرم أموالهم على نفسه و على أبنائه يجب أن لا يلحق بهم أي أذى،و في ذلك أجر عظيم لذلك حافظوا على أموالهم إلى يوم القيامة،اسمعوا وعوا ما حدث على طريق مكة عند دخول الإسلام.

يقول الملك :لا تغيروا كلمتي ،لا تبعدوهم و لا تعزلوهم، و لا تقيدوهم في أمور الدنيا من أجل رضا الله و رسوله،و من أجل رضاي، لا تنسوا أمري،و لا تفعلوا خلاف ذلك،لأن من ينتهك أمري فإن الله لن يهديه في هذه الدنيا و الآخرة.إن من يعطي صديقه هدية ينبوع واحد في الحكمة فهو أخوه ،لكن من يعلمه مرتين فهو سيده، و الحق أن حكمتنا في القرآن و السيرة جاءتنا من محمد بن ماني،إخواني و أبنائي ممن سيخلفونني ليباركم الله.

لا تنتهكوا أمري ،لأن من ينتهكه ،فسيحرمه الله من بركاته و لا يستجيب دعاءه،السلام على أبنائي و ممن سيأتي من بعدي و الحمد الله رب العالمين، و سيلقى من يعبث بهذا الأمر عقاب العابثين،ليرسخ الله وصيتي هذه في الدنيا و الآخرة.اتقوا الله و لا تنتهكوا أمري و لا تعموا بما يناقض ذلك،بل ايدوه ليعزكم الله و يقيكم من جميع أنواع الشر و الفتن.

السلام عليكم و على شعبي،و ليغفر الله لي و لوالدي و جميع المسلمين من الرجال و النساء الأحياء و الأموات،السلام علينا و عليكم.

المرجع: شوكت عارف الأتروشي،دولة كانم الإسلامية،ص-ص206-208.

ملحق رقم 5

ترجمة الكانمي في تحفة القادم لابن الأبار

أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن شكلة الذكواني الكانمي، و زادني أبو عبد الله الصفار أنه سلمي ذكواني من قرية من قرى السودان بكانم تسمى بلمة – و كانم بلد مما يلي صعيد مصر- و كان لونه غربيبا، و أمره غريبا، قدم على المغرب قبل الستمائة، و سكن ملراكش و أقرأ بها اللآداب، و بلغني أنه دخل الأندلس ، و كان شاعرا محسنا ، قرأ المقامات، و توفي سنة ثمان أو تسع و ستمائة بمراكش و من قوله:

كم سائل لم لا تهجو فقلت له لأنني لا أرى من خاف من هاج

لا يكره الذم إلا كل أنف و ليس لوم لئام الخلق منهاجي.

و أنشدني أبو القاسم ابن عليم قال أنشدني أبو زيد الفازاري (كان الفزاري صديقا حميما للكانمي، و قد جمع بينهما صدق التأله و كنا معا من خاصة السيد أبي إسحاق ولد المنصور.(تحفة القادم97،98).

ترجمة الكانمي في الوافي للصفدي

إبراهيم بن يعقوب أبو إسحاق الكانمي الأسود النحويالشاعر- و كانم بليدة بنواحي غانة إقليم السودان- قدم إلى مراكش و مدح أكابر الدولة، و كانت العجمة في لسلنه، غير أنه جيد النظم، و كان يحفظ " الجمل" في النحو، و لم يعرف من أرضه شاعر سواه، توفي رحمه الله في حدود الست مائة تقريبا، و أظنه ابن شاكله، قال ابن الأبار في تحفة القادم إبراهيم ابن محمد بن شاكله أبو إسحاق السلمي الذكواني الصعيدي الأسود،سكن مراكش و دخل الأندلس و كان شاعرا محسنا قرأ " المقامات و توفي سنة ثمان و ست و مائة بمراكش، و من شعره:

أفي الموت شك يا أخي و هو برهان ففيم هجوع الخلق و الموت يقظان

أتسلو سلو الطير تلقط حبها و في الأرض أشراك و في الجو عقبان .

قال ابن الأبار : كان أبو زيد الفازازي يفضله على شعراء عصره بهذين البيتين:

إني و إن ألبستني العجم حلتها فقد نماني إلى ذكوانها مضر

فلا يسوك من الأغماد حالكها إن كان باطنها الصمصامة الذكر الوافي6: 170-171

ملحق رقم:6

قوائم سلاطين دولة كانم – برنو

- سيف بن ذي يزن (؟)
- إبراهيم بن سيف بن ذي يزن (؟)
- دوجو بن إبراهيم (؟)
- فون بن دوجو (؟)
- ارجو بنفون (كان يحكم حوالي عام 236هـ/850م)
- كاتوري بن ارجو (كان يحكم حوالي عام 287هـ/900م)
- بيوما بن كاتوري (كان يحكم حوالي 391هـ/1000م)
- بولو بن بيوما (كان يحكم حوالي عام 416هـ/1025م)
- اركي بن بولو(كان يحكم حوالي عام 427هـ/1035م)
- شو بن اركي (كان يحكم حوالي عام 468هـ/1075م)
- جيل بن شو (كان يحكم عام 473هـ/1080م)
- اوم أو هيوم بن جيل (479هـ/1086م- 491هـ/1097م)
- دونما بن هيوم (492هـ/1098م- 546هـ/1151م)
- دالا بيري ابن دونما (546هـ/1151م- 573هـ/1177م)
- دالا بيكور بن بيري (و يعرف كذلك باسم عبد الله بكر 573هـ/1177م- 590هـ/1194م)
- تسايم بن بيكوري (و يعرف كذلك باسم عبد الجليل 590هـ/1194م-0618هـ/1121م)
- دونما بن تسليم (و يعرف كذلك باسم دونمة دابالا نسبة إلى أمه 618هـ/1221م-656هـ/1259م)
- كادي بن متالا (نسبة إلى أمه، و يعرف كذلك باسم عبد القديم 656هـ/1259م-675هـ/1278م)
- عثمان (و يعرف باسم عثمان بن زينب 676هـ/1279م-700هـ/1300م)
- الحاج إبراهيم بن نيكال بن كاجودي (700هـ/1300م-721هـ/1321م)
- سالما أو تسليم بن عبد الله (و يعرف كذلك باسم سالما بن حوا نسبة إلى أمه 744هـ/1343م-749هـ/1348م)
- كورجانا أو كور الصغير (0749هـ/1348م-750هـ/1349م)
- كور الكبير (750هـ/1349م-751هـ/1350م)
- كور محمد (و يعرف كذلك باسم محمد بن عبد الله 725هـ/1315م-756هـ/1355م)
- إدريس بن إبراهيم (و يعرف كذلك باسم إدريس بن حفصة نسبة إلى أمه 754هـ/1353م-778هـ/1376م)
- داؤد بن إبراهيم (و يعرف كذلك داؤد بن فاطمة 778هـ/1386م)

- عثمان بن داؤد و منافسه على العرش عثمان بن إدريس (788هـ/1386م)
- أبو بكر بن داؤد (778هـ/1386م)

كما ندرج هنا أيضا قائمة بأسماء الأسرة الحاكمة بعد انتقالها إلى برنو

- عمر بن إدريس (779هـ/1387م-794هـ/1391م)
- سعيد بن مازا أوماجا (794هـ/1391م)
- كادي أفونو بن إدريس (794هـ/1391م- 795هـ/1392م)
- عثمان (بيري) بن إدريس(795هـ/1392م-828هـ/1425م)
- عثمان كالينوما بن داوود (828هـ/1425م)
- دونمه بن عمر(828هـ/1425م-830هـ/1427م)
- عبد الله أوجا بن عمر(830هـ/1427م-839هـ/1436م)
- إبراهيم بن عثمان (839هـ/1436هـ/846هـ/1443م)
- كادي بن عثمان (846هـ/1443م-847هـ/1444م)
- دونمه بن بيري (أو دونمه بن عثمان 847هـ/1444م-850هـ/1448م)
- محمد بن متالا (متالا اسم أمه 850هـ/1448م853هـ/1450م)
- أوم بن عائشة بنت عثمان (853هـ/1450م-855هـ/1452م)
- محمد بن كادي(855هـ/1452م- 858هـ/1455م)
- جاجي بن إيمالا(858هـ/1455م-864هـ/1461م)
- عثمان بن كادي (864هـ/1461م-869هـ/1466م)
- عمر بن عبد الله أوجا(869هـ/1466م-870هـ/1467م)
- محمد بن محمد كادي(870هـ/1467م-875هـ/1472م)
- علي جاجي بن دونمه بن زينب (أبوه دونمه و أمه زينب 875هـ/1472م-909هـ/1503م)
- إدريس كاتاجار مابي بن علي بن عائشة (909هـ/1503م-932هـ/1526م)
- محمد بن إدريس 932هـ/1526م-951هـ/1545م)
- علي بن إدريس (951هـ/1545م-952هـ/1546م)
- دونمه محمد بن فانامي بن محمد (952هـ/1546م-961هـ/1555م)
- عبد الله بن دونمه (961هـ/1555م-969هـ/1563م)
- وصاية الماجيرا عائشة على ابنها إدريس ألوما (969هـ/ 1563م-977هـ/1570م)
- إدريس بن علي ألوما أو إدريس عائشة ألوما(977هـ/1570م-1010هـ/1603م).

المرجع:محمد ظاهر جاسم،تاريخ أفريقيا ما وراء الصحراء،ص-ص55-58.

ملحق رقم 7

جدول بعض الألفاظ الهوسية ذات الأصل العربي

اللفظ في اللغة الهوسية	الأصل في اللغة العربية
kasafi	كسب
hukunta	حكم
Azzalumi	الظالم
Haziki	حاذق
Tamani	ثمن
Misali	مثال
Alkali	القاضي
Tabi’a	طبيعة
Hatsari	خطر
Asali	أصل
Mahaluki	مخلوق
Taga	طاقة
Ganima	غنيمة
Tarihi	تاريخ
Jama’a	جماعة
Hakimi	حاكم
lisha	العشاء
ladabi	الأدب
lahira	الآخرة
Aradu	الرعد

المرجع:مصطفى حجازي السيد مصطفى،معجم الألفاظ العربية في لغة الهوسا،ص،ص9،10.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملحق رقم 8

جدول طبقات المجتمع في بلاد السودان الأوسط

الطبقة	الفئات المنتمية إليها	وضعها في المجتمع
الطبقة الأولى	_الملوك و أفراد العائلة المالكة. _ الأمراء و ولاة الأقاليم. _قادة الجيوش. _كبار العلماء و القضاة _كبار الموظفين _كبار التجار و الأغنياء	_تعتلي الهرم الاجتماعي _عددها قليل _تمتلك الثروة _لديها السلطة المطلقة _تتمتع بالعديد من الامتيازات
الطبقة الثانية	_ الجيش _طبقة المتعلمين _الصناع و الحرفيين و الصيادين _التجار (محليين و وافدين) _ الفلاحين ا_العبيد	_عددها كبير حيث تشكل جل أفراد المجتمع _لا تمتلك الثروات و الأراضي _مسخرة لخدمة الطبقة الأولى _ يمكن لبعض من أفرادها أن ينتسب للطبقة الأولى مثل التجار و الفئة المتعلمة المثقفة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمة المصادر و المراجع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمة المصادر و المراجع

- القرآن الكريم ، برواية ورش عن نافع.

قائمة المصادر

أ- المصادر السودانية

1-أحمد بابا التمبكتي (أبو العباس سيدي أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت)ت1032هـ/1622م.

- نيل الإبتهاج بتطريز الديباج ،تحقيق:علي عمر ، مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة،1423هـ/1964م.

2-التونسي (محمد بن عمر) ت 1273هـ/1957م

- تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد المعرب و السودان،تح:خليل محمد عساكر،مصطفى محمد مسعد،(د.ط)الدار المصرية للتأليف و الترجمة،القاهرة،1960م.

3-السعدي(عبد الرحمن بن عبد الله)، ت 1063هـ/1653م

- تاريخ السودان،وقف على طبع هوداس، باريس، مكتبة أمريكا و المشرق، 1908م.

4_ بلو(محمد بن عثمان بن فودي)ت1253هـ/1837م

- إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ،(د.ط)، إدارة الوثائق و المكتبات لوزارة الأوقاف،القاهرة،1964م.

5- محمد كعت(بن الحاج المتوكل كعت الكرتي التنبكتي الوعكري)ت 1002هـ/1593م

- تاريخ الفتاش في أخبارالبلدان و الجيوش و أكابر الناس،باريس، طبع هوداس و دولافوس،1964م.

ب_المصادر العربية

6- ابن الآبار (محمد بن عبد الله القضاعي) ت658هـ/1259م

- التكملة لكتاب الصلة،تحقيق:عبد السلام الهراس، بيروت ،دار الفكر، 1415هـ/1995م(ج1).

7-أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ابن شاهنشاه) ت 732هـ/1331م

- تقويم البلدان، (د.ط)،باريس،1850م.

8-ابن أبي دينار(أبو عبد الله) ت القرن 7هـ/1698م

- المؤنس في أخبار إفريقية و تونس ،1968م

9-ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن) ت630هـ/1232م

- الكامل في التاريخ،ط3، دار صار،بيروت،1422هـ/2001م.

10-الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) ت560هـ/ 1166م

- **القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس (مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختيار الآفاق)**، تح: إسماعيل العربي،الجزائر،ديوان المطبوعات الجامعية،1983م.

11-الأصطخري (أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي)ت346هـ/956م،

- **المسالك و الممالك**،تح:عبد الغاني الحيني،(د.ط)،القاهرة،1381هـ/1961م.

12-الأنصاري (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب)ت 727هـ/1327م

- نخبة الدهر في عجائب البر و البحر،(د.ط)طربورغ،مطبعة الأكاديمية،1281هـ

13-ابن بطوطة(أبوعبد الله محمد ابن إبراهيم اللواتي) ت 779هـ/1377م

- **تحفة النظار في عجائب الأبصار عجائب الأسفار**، بيروت،علق عليه،محمد السعيد محمد الزيني،(د.ط)،القاهرة،المكتبة التوفيقية،(د.ت).

14- البكري(أبو عبيد الله ابن عبد العزيز)، ت 487ه/1094م،

- **المغرب في ذكر إفريقيا و المغرب جزء من المسالك و الممالك**، تح:جمال طلبة،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،2003م.

15-الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله ياقوت)ت626هـ/1228م،

- **معجم البلدان**،بيروت،1975،ج3

16-الحميري (محمد بن عبد المنعم الصنهاجي)ت القرن8هـ/14م

- الروض المعطار في خبر الأقطار،تحقيق:إحسان عباس،ط2،بيروت،مكتبةلبنان،1984م.

17-ابن حوقل (أبو القاسم محمد) ت 367هـ/977م،

- **صورة الأرض**،(د.ط)،منشورات دار مكتبة الحياة،بيروت،لبنان،(د.ت)،ج1،ج2.

18- ابن خلدون(عبد الرحمن)، ت 808هـ/1406م،

- **تاريخ ابن خلدون المعروف: بديوان المبتدأ و الخبر و تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر** ، دار الفكر للطباعة و النشر، 2001م.

19-مقدمة،تح:لونان،دارالفكروالطباعةو النشر التوزيع،بيروت،لبنان،1424هـ/2004م.

20-ابن خلكان (أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر)ت681هـ/

- وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان الزمان،تحقيق:إحسان عباس، بيروت، دار صادر،ج7.

21الدرجيني (أبو العباس أحمد بن سعيد)ت671هـ/1271م

- طبقات المشايخ بالمغرب، تح:إبراهيم طلاي،(د.ط)،قسنطينة،مطبعة البعث،1975م.

22-ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى المغربي) ت 685هـ/1286م

- كتاب الجغرافيا ،تح:إسماعيل العربي،(د.ط)، الجزائر،1980م.

23-الشماخي (أحمد بن سعيد) ت 928هـ/1511م

- كتاب السير،(د.ط)، ،القاهرة، طبعة حجرية ،1883م.

24-الصفدي(صلاح الدين خليل بن أبيك)ت القرن8هـ/14م

- الوافي بالوفيات،تحقيق:أحمد الأرناؤوط،(د.ط)،دار إحياء التراث العربي،(د.ت)،

25-ابن الصغير المالكي ت(ق3هـ/9م)

- أخبار الأئمة الرستميين،تحقيق:محمد ناصر و إبراهيم بحاز،(د.ط)، ،بيروت ،دار الغرب الإسلامي ،1986م.

26-ابن عبد الحكم (أبو عبد الله)، ت 257هـ/870م.

- فتوح مصر و المغرب ، تحقيق: عبد المنعم عامر،(د.ط)،القاهرة،1927م.

27-ابن عذارى المراكشي، ت 712هـ/1312م.

- البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب،(د.ط)،دار الفكر الإسلامي،1980م.

28-العمري(أبو الفضل الله شهاب الدين)، ت 749هـ/1348م

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار،تح:عبد القادر خويسات و عصام مصطفى هزايمة،يوسف بن زيدان،العين، الإمارات العربية المتحدة، مركز زيدان للتراث التاريخي،ج4 ،2001م.

29-القزويني (زكريا محمد بم محمود) ت 682هـ/1283م.

- آثار البلاد و أخبار العباد،(د.ط)،دار الصناعة و النشر،بيروت،1969م.

30-القلقشندي(أبو العباس أحمد بن علي) ت 821هـ/ 1418م ،

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق خالد الخطيب،بيروت،لبنان،دار الكتب العلمية،1987م.

31-مجهول (مؤلف مجهول من أهل القرن 18م)

- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية،حققه:سهيل زكار و عبد القادر زمامة،دار الرشاد الحديثة،الدار البيضاء،1399هـ/1979م.

32-ابن مريم(أبو عبد الله محمد بن محمد) من علماء القرن11هـ/17م.

- البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان،تحقيق:محمد أبي شنب،(د.ط)،المطبعة الثعالبية،الجزائر،1326هـ/1908م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

33-المسعودي(أبي الحسن علي بن حسن بن علي) ت 346هـ/957م،

- مروج الذهب و معادن الجوهر ،ط4،بيروت،دار الأندلس،1981م .

34_أخبار الزمان و من أبادة الحدثان و عجائب البلدان و الغامر بالماء و العمران،ط4،بيروت،دار الأندلس للطباعة و النشر،1980م.

35_الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء و الملوك،القاهرة،1955م

36_المقدسي (محمد بن محمد) ت 360هـ/1000م

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،ط2،مطبعة بريل،طبع ليدن،1906م.

37_ المقري (أحمد بن أحمد)ت1041هـ/1633م

- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب،تحقيق:احسان عباس،(د.ط)،بيروت،دار صادر،1968م.

38-النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)ت733هـ/1355م

- نهاية الأرب في فنون الأدب،(د.ط)،القاهرة،مطبعة دار الكتب،1923م،ج1.

39-الوزان(حسن بن حسن المعروف بليو الإفريقي) ت أواخر 10هـ/ 16م

- وصف إفريقيا ،تح:محمد حجي، عمار زبير، محمد الأخضر،(د.ط)،بيروت،دار الغرب الإسلامي،1983م.

40-الوسياني (أبو الربيع)، عاش بين 500هـ و 600هـ/11م و12م

- سير مشايخ المغرب،تحقيق:اسماعيل العربي،(د.ط)،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1985م.

41-اليعقوبي(أحمد بن يعقوب بن جعفر) ت 284هـ/ 896م،

- تاريخ اليعقوبي،(د.ط)،بيروت،دار صادر،(د.ت).

42_ البلدان،(د.ط)،ليدن،مطبع بريل، 1891م.

قائمة المراجع

1ـالمراجع العربية

1-الأتروشي شوكت عارف، دولة كانم الإسلامية الجوانب السياسية و الاقتصادية،المملكة الأردنية الهاشمية،دار دجلة،2007م.

2-أسبر أمين ،إفريقيا سياسيا و اقتصاديا و اجتماعيا،(د.ط)،دمشق،دار دمشق،1985م.

3-الألوري آدم عبد الإلله،موجز تاريخ نيجيريا،(د.ط)،بيروت،دار الحياة،1962م.

4- باري محمد فاضل علي ،المسلمون في غرب إفريقيا، لبنان،دار الكتب العلمية،1971م.

5-بوعزيز يحي ،إفريقيا الغربية الإسلامية من ق16ـ20م،الجزائر،دار هومة للطباعة،(د.ت)

6-برايماباري عثمان، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، القاهرة ،دار الأمين ،200م.

7- الجمل شوقي عطا الله،الأزهر و دوره السياسي و الحضاري في أفريقيا،(د.ط)،القاهرة،الهيئة المصرية للكتاب،1988م.

8- جودة حسنين جودة، جغرافية إفريقيا الإقليمية،(د.ط)، الإسكندرية،المكتب الجامعي، ،1998م.

9- حجازي مصطفى حجازي السيد ،الألفاظ العربية في لغة الهوسا، المملكة العربية السعودية جامعة محمد سعود الإسلامية، ،1426هـ/2005م.

10- حوالة يوسف بن أحمد ، الحياة العلمية في إفريقية،المملكة العربية السعودي، جامعة أم القرى، ة، 1421هـ/2000م. ج1.

11- الدالي الهادي مبروك ، قبائل الهوسا دراسة وثائقية،ط3،طرابلس،ليبيا،أكاديمية الفكر الجماهيري،1998م.

12- التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى الثامن عشر،القاهرة،الدر المصرية اللبنانية،1999م.

13- الدكو فضل كلود ،الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم،منشورات كلية الدعوة،1998م.

14- دندش عصمت عبد اللطيف ،دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا 430هـ-515هـ/1038هـ/1121م،(د.ط)،بيروت،دار الغرب الإسلامي،(د.ت).

15- رسلان صلاح الدين بيوني ، العلم في منظوره الإسلامي،القاهرة، دار الثقافة و النشر و التوزيع، 1989م.

16-زبادية عبد القادر ،الحضارة العربية و التأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية،(د.ط)،الجزائر، المؤسسة الوطنية، (د.ت).

17- مملكة سنغاي في عهد الأسقيين،(د.ط)،الجزائر ،المؤسسة الوطنية للكتاب،(د.ت).

18-دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر و مؤلفات العرب المسلمين،(د.ط)،الجزائر،ديوان المطبوعات الجامعية،2010م.

19-الزركلي(خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس)ت1396هـ/1976م ،الأعلام،القاهرة،1959م،ج3.

20- سالم عبد العزيز، المغرب الكبير،(د.ط)، الأسكندرية،1966م.

21-سعودي محمد عبد الغني ،قضايا إفريقيا،(د.ط)،الكويت،المجلس الوطني للثقافة و الفنون،1980م.

22-سعد فهمي ، انتشار الإسلام في إفريقيا في العصور الوسطى،بيروت،عالم الكتب،2001م.

23- سعدالله أبوالقاسم ،تاريخ الجزائر الثقافي ، بيروت،دار الغرب الإسلامي،ج1.

24-السلاوي (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري)ت1315هـ/1897م

الاستقصا لأخبار الدول المغرب الأقصى،تحقيق:محمد عثمان،لبنان،دار الكتب العلمية،2007م، ج5.

25- شكري أحمد ،الإسلام و المجتمع في إمبراطورية مالي1230م-1430م،أبو ظبي،المجمع الثقافي،1999م.

26- ابن شريفة محمد ، إبراهيم الكانمي أنموذج مبكر للتواصل الثقافي بين المغرب و بلاد السودان،(د.ط)،الدار البيضاء،مطبعة النجاح الجديدة،1991م.

27- إبراهيم الساحلي و دوره الثقافي في مملكة مالي،(د.ط)،الدار البيضاء،مطبعة النجاح الجديدة،1992م.

28- طرخان إبراهيم علي ، دولة مالي الإسلامية ،(د.ط)،القاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب،1973م.

29- عبد الظاهر حسن عيسى ، الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا و قيام دولة الفولاني،القاهرة،مطابع الزهراء للإعلام العربي،1991م.

30- عبد اللطيف علي محمد ،تمبكتو أسطورة التاريخ،(د.ط)، ليبيا جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ،1369هـ/2001م.

31- عقلة محمد أحمد ،عبد العلي الخفاف، جغرافية القارات ،(د.ط)،دار طارق للنشر،1998م.

32- العقاد أنور عبد العلي ،الوجيز في القارة الإفريقية،،(د.ط)،الرياض،دار المريخ،(د.ت).

33- عليان محمد بكر ،التربية و التعليم في الدول الإسلامية خلال القرن الربع عشر ميلادي من التبعية إلى الأصالة،(د.ط)،القاهرة، دار الأنصار،(د.ت).

34- عودة أبو الفتوح حامد ،المدخل إلى علوم المكتبات،(د.ط)،الأسكندرية،دار الثقافة العلمية،2001م.

35- الغنيمي عبد الفتاح مقلد ،حركة المد الإسلامي في غرب إفريقيا،(د.ط)،القاهرة،مكتبة النهضة،(د.ت).

36- الفلاتي الطيب عبد الرحيم ، الفلاتة في أفريقيا و مساهمتهم الإسلامية و التنموية في السودان،الكويت،دار الكتاب الحديث،1994م.

37-الفيتوري عطية مخزوم،دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء،(د.ط)،ليبيا،منشورات بنغازي،1998م.

38- فهد بدري محمد ،الصلات بين العرب و إفريقيا،الأردن،دار المناهج،2002م.

39- قداح نعيم ، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام،(د.ط)،دمشق،مكتبة أطلس،1960م.

40- حضارة الإسلام و حضارة أوروبا في أفريقيا الغربي،ط2،الجزائر،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،1974م.
41- كاني أحمد محمد ،الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا،القاهرة،الزهراء للإعلام العربي،1987م.
42- مؤنس حسين ،أطلس التاريخ الإسلامي،القاهرة،الزهراء للإعلام العربي،1987م.
43- الإسلام الفاتح،(د.ط)،القاهرة،مطبوعات رابطة العالم الإسلامية،1980م.
45- فتح العرب للمغرب،(د.ط)،القاهرة،مكتبة الثقافة الدينية،(د.ت).
46- محمد نبيلة حسن ،افريقية الإسلامية،(د.ط)،دار المعرفة الجامعية،2007م.
47- محمود حسن أحمد ، الإسلام و الثقافة العربية في أفريقيا،(د.ط)،القاهرة،دار الفكر العربي،1986م.
48- محمد ظاهر جاسم،إفريقيا ما وراء الصحراء من الاستعمار إلى الاستقلال،(د.ط)،القاهرة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات،2003م.
49- ناجي علي أيوب ،لمحات عن الإسلام في نيجيريا بين الأمس و اليوم،(د.ط)،الكويت،دار الكتاب الحديث،(د.ت).
50- ناصر محمد صالح ،دور الإباضية في نشر الإسلام في غرب إفريقيا،(د.ط)،بيروت،دار الفكر العربي،1992م.
51- عبد الكريم جودت يوسف،العلاقات الخارجية للدولة الرستمية،(د.ط)،الجزائر،المؤسسة الوطنية للكتاب،1984م.

2ـالمراجع المعربة

52- أرلوند توماس ، الدعوة إلى الإسلام،ترجمة:حسن إبراهيم حسن و آخرون،(د.ط)،القاهرة،مكتبة النهضة المصرية،1981م.
53- بوفيل، تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير، ترجمة : الهادي أبو لقمة و محمد عزيز،ط2، بنغازي، منشورات جامعة قار يونس، 1988م.
54- بولم دونيس ،الحاضرات الأفريقية،ترجمة:علي شاهين،(د.ط)،بيروت،منشورات مكتبة الحياة،1974م.

55- جوزيف جوان ،الإسلام في ممالك و إمبراطوريات إفريقيا السوداء،ترجمة: مختار السويفي، دار الكتاب ، القاهرة،1984م.

56- روسيل و وين هاو،تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا،ترجمة:عبد الوهاب الزنتاني ،القاهرة،دار غريب،2009م.

57- موريس لومبارد، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، دمشق دار الفكر، ، 1419هـ/ 1998م.

58- س لويد،افريقيا في عصر التحول الاجتماعي،ترجمة:شوقي جلال، الكويت، المجلس الوطني للثقافة، ،1980م.

59-ويدنز دونالد ،تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء،ترجمة:راشد البراوي،مكتبة الوعي العربي،2001م.

3-المراجع باللغة الأجنبية

1- Aboubacar Adamou,Les relations entre les deux rives du sahara ,Rabat,Publication de l'institut des Etudes Africaines,2005

2- Aroua Ahmed : L'islam et la science, entreprise national du livre, alger ;1984,2edition

3- Bammate Haidar, visage de l' islam,2edition, Société Français du ivre,Plaris,1958.

4- canale Jean Surt,Afrique noir accidentale et centrale,3édition,Paris,édition sociales,1961

5- Cuoq Joseph.M., recuil des sources arabes concernant l'afrique occidentale du vIII au XVI siécle(Bilad Al-Sudan),Paris,édition du centre national de la recherche sciontifique,1975.

6-,Les Musulmans en Afrique,Pris,Maison neuve,1975.

7- Delaffousse Mouric,Les civilisation Négro-Africanes,Libraire Stock Français,Paris .

8- Fag, j.d :History of west Africa,cambridge,Cambridge university press,1972.

9- R,Maunu,Tableau Géographique de l'oust african au moyen age,Paris,1961.
Basil,Davidson,,l'afrique Ancienne,Paris,t1

10- Palmer,sudaneses MemorisLondon,1967,vol3,

11,The Bornonu,Sahara and Sudan,london ;1936

12- Trimingham j Spencer, A History of Islam in West Africa,Oxford university press,1968.

13- , the infuluence islam upon Africa,2 edition,london,Britech Library,1980.

4-الرسائل الجامعية

1-بوعتروس أحمد،الحركات الإصلاحية في إفريقيا جنوب الصحراء إبان القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر ميلادي،رسالة ماجستير،المشرف:عبد الكريم بوصفصاف،جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،2001م.

2- بوغرارة منير،محمد بن عبد الكريم المغيلي و مساهمته في الثقافة الإسلامية في غرب أفريقيا 823هـ-909هـ/1417م-1503م،رسالة ماجستير،إشراف:أحمد صاري،جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،2003م.

3- خالدي مسعود،الجاليات العربية و البربرية في إفريقيا جنوب الصحراء (السودان الأوسط و الغربي) بين القرنين الخامس و العاشر الهجريين/الحادي عشر و السادس عشر الميلادي،رسالة دكتوراه،إشراف:مسعود مزهودي،جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،2009م.

4-وسائل انتشار الإسلام في السودان الأوسط من القرن الأول إلى الخامس هجري/السابع إلى الحادي عشر ميلادي،رسالة ماجستير،إشراف:بوبة مجاني،جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،2000م.

5- شعباني نور الدين،علاقات ممالك السودان الغربي بدول المغرب الإسلامي و آثارها الحضارية بين القرنين الرابع و التاسع هجري،العاشر و الخامس عشر ميلادي،رسالة ماجستير،إشراف:موسى لقبال،جامعة الجزائر،2006م.

6-منادي عثمان،الحياة العلمية في حواضر الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا بين القرنين الثامن و العاشر هجري/الرابع عشر و السادس عشر ميلادي،رسالة ماجستير،إشراف:مختار حساني،جامعة الجزائر،2011م.

5- المجلات و الدوريات و الندوات

1-أنيس إبراهيم،"اللغات يقترض بعضها من بعض"،مجلة العربي،الكويت،العدد 130(1969)،ص-ص66-69.

2-الجمل شوقي عطا الله ،"دور المجتمع في تطور تجارة الرقيق"، ندوة مسألة الرق في إفريقيا،المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم،تونس،1989م.ص-ص36-57.

3- حركات إبراهيم،"تجارة الرق بإفريقيا من خلال الموقفين العربي و الأوروبي"،ندوة مسألة الرق في إفريقيا،المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم،تونس،1989م.ص-ص71-76.

4- خالدي مسعود ،"أثر الجاليات المغاربية على الحياة الفكرية في السودان الغربي بين القرنين5هـ-10هـ/11م-16م"،النشرة الخاصة المحكمة في الدراسات الأفريقية،عدد84(2008).

5- أحمد إبراهيم دياب،علماء السودان الغربي في القرنين السادس عشر و السابع عشر الميلادي ،ندوة العلماء الأفارقة،بغداد،1985م،ص

6- زبادية عبد القادر،"التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي"،مجلة الأصالة ،عدد26(1975)، وزارة التعليم الأصلي،ص203-215.

7-زناتي محمود سلام،"رسالة الإسلام إلى أفريقيا"،مجلة العربي،الكويت،العدد114(1968م)،ص-ص51-55.

8- الصيرفي كريم مناحي،"تطور المدرسة و الفكر التربوي عبر القرون،مجلة العربي،الكويت العدد 154(1971م)،ص-ص93-98.

9- عبد الحق عبد الحي ،"انتشار الإسلام في السودان الأوسط"،ندوة علماء الأفارقة،بغداد ،1985م.

10-قاسم جمال زكرياء،"العرب و الرق في إفريقيا"،"، ندوة مسألة الرق في إفريقيا،المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم،تونس،1989م.ص

11- موسى عزالدين عمر،"انتشار الإسلام في غرب أفريقيا حتى القرن السادس عشر الميلادي. ندوة علماء الأفارقة،بغداد ،1985م ص-ص43-57.

12-Kouahi Bollo-Bi, « La situation sociole dans la région du lac Tchad avant l'introduction de l'islam »,Libya aniqua,documents de travail et comte rendu des débats du colloque organisé par l'unisco,Paris,1984.p-p251-256.

6- الموسوعات و دوائر المعارف

1-دائرة لمعارف الإسلامية،نقله إلى العربية:محمد ثابت الفندي،أحمد الشناوي،إبراهيم زكيخورشيد،عبد الحميد يونس،راعها محمد غلام:

_مادة سودان،ص-ص334-345

_مادة تكرور ص-ص428-433

_مادة برنو،ص-ص576-592

2- شلبي أحمد،موسوعة التاريخ الإسلامي،ج6،ط5،مطابع الحوي، ،1990م.

3- ابن منظور،لسان العرب،(د.ط)،دار المعارف،(د.ت).

4- موسوعة تاريخ إفريقيا العام، ط2،اليونسكو،1997م،الجزء الثالث.الرابع

- ليفينسكي تاديوز،"دور الصحراء الكبرى و أهل الصحراء في العلاقات بين الشمال و الجنوب"،الجزء الثالث.
- لانغ دريك،"ممالك تشاد و شعوبها"،الجزء الثالث.

5-Yver G, Ency of islam,art : Art,kaneem ;vol.1.

7- المواقع الإلكترونية

1-حسب الله مهدي فضلة،اسهامات الوقف الإسلامي في أسلمة الممالك التشادية القديمة و تواصلها مع العالم الإسلامي،مجلة العلوم الانسانية،عدد45،موقع www.ulume.com

2- فوزية بنت حمد آلالعالي،المؤسسات التربوية الإسلامية" موقع www.biblioislam.net

3-انتشار الدعوة الإسلامية في السودان الأوسط" موقع www.Alukah.net:

4-: سعد بدير الحلواني، " دور الأزهر في السودان" من موقع www.dramarzouk.com

.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الـــفهارس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأعلام

-أ-

_ إدريس ألومة:ص27،34،86

_ آمنة بنت الأمير زكرك:ص36

_الأسكيا محمد:ص37،57.

_ أحمد الفاطمي:ص39.

_أومي عبد الجليل:ص39،76

_أحمد بابا التمبكتي:ص40،64،73،89

_الإدريسي:ص 42،46،80

_ ابن الآبار:ص54،61،84،86

_ أبو الفداء:ص2

-ب-

_البلبالي مخلوف بن علي بن صالح:ص23،89

_بشر بن أرطأة:ص25

_ابن بطوطة:ص35،80.

_بايجيد:ص16

_ بلو محمد:ص3،30،35،44

_ البكري:ص 43،82

_الباركوم بن بكر:ص82

_بوفل:ص52.

_بارث:ص87

_بالمر:ص87.

_باغودا بن ياو بن يازيد:ص88

-ت-

_التونسي:ص2

_ترمنجهام:ص19

_توماس أرلوند:ص55

- ح -

_الحموي ياقوت:ص46،84،86

_ابن حوقل:ص2

-ظ-

-خ-

_ابن خلدون:ص2،34،46،53،54،71

-د-

_داجو:ص13.

_دونمة بن أوم:ص32

_ديبالمي:ص38،53،55

_دبلن بن بكر:ص61،69،70.

_الدوسي:ص91.

_دولافوس:ص83،

_دريك لانغ:ص87.

-ر-

_ابن الرشيق:ص38،39،55.

-ز-

زبادية عبد القادر:ص35.

-س-

_السيوطي جلال الدين:ص40،41،66،73،90.

_سيف بن ذي يزن:ص13،32،33،43،44

_السلاوي:ص21.

_السعدي:ص40،57،58،64،73،89.

_سلما بن ديبالمي:ص61.

-ش-

_شكري أحمد:ص5،80.

-ص-

_الصفدي:ص86.

-ط-

_الطاهر بن إبراهيم:ص91.

_المقدسي:ص1.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

_الظاهر برقوق:ص76.
-ع-
_العمري:ص3،12،84.
_ابن عبد الحكم:ص25.
_علي غاجي بن دوما:ص91،68،34.39
_عمرو بن العاص:25.
_عبد الجليل سلمة:ص38،66.
_ عمر بن عثمان:39،70،87.
_عبد الله بكر بن بيري:ص39.
_عمر بن عبد العزيز:43.
_عثمان بن إدريس:ص43،76.
_عقبة بن نافع:ص 25،26،88
_عبد الرحمن زيت:ص89.
-ف-
_ابن فاطمة:ص33،43
_ الفزاني عبد الحميد:ص80.
_ابن فرتو أحمد:ص66،76،86.
_فاموري بلقاسم:ص89.
-ق-
_القزويني،ص1
_القلقشندي:ص44،76،82.
-ك-
_ الكانمي أبو إسحاق:54،61،64،84،85،
86.
-ل-
_ليفينسكي:ص80.
-م-
_المغربي ابن سعيد:ص6،12،43،44.
_المسعودي:ص12.
_المهلبي:ص12
_المقريزي:ص38،43،82.
_المغيلي عبد الكريم:ص23،37،40،68،71
،74،82،87،90.
_محمد بن أحمد:ص82
_محمد سافو:ص58.
_محمد بن ماني:ص39،47،48،60،70
_محمد زمفا:ص40،74،88،89.
_محمد كورا:ص40،90.
_محمد رانو:ص40
_محمود كعت:ص57،64.
_محمد كازولي:ص88.
_موري جاجا:ص58.
-ن-
_نوح عليه السلام:ص10
-هـ-
_هوبير ديشان:ص19.
_هيرودوتس:ص51.
-و-
_الوزان:ص35،59،88،90
_الونشريسي:ص64.
_الوسياني أبو الربيع:80.
-ي-
_اليعقوبي:ص11،13،89.
_ياجي بن سلما:ص89
_اليماني:ص91.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأماكن

-أ-

_ أوروبا:ص22

_أغذر:ص40

_ الأندلس:ص54،57،60

_أفريقيا:ص1،20،21،32،47

_الأندي:ص6

_ايلولين:ص16

_أوبانجي:ص7

_إير:ص16

_أوجلة:ص20

-ب-

_بجة :ص2

_برقة:ص25.

_ بلمة:ص،15،84

_بيرم:ص 16،36.

_برغ:ص37

_برنو:ص4،8،10،11،15،24،30،32،
34،37،38،39،40،44،45،46،47،
53،55،60،64،66،76،77،82،86،
87.

_برقو:ص6

_بغداد:ص16

-ت-

_ تشاد: ص 7،6،15،16،20،26،32،
33،45،55،84،88،91

_تركيا:ص35

_تمبكتو:ص40،53،56،59،73،89،89

_زغاوة:ص12

_ تونس:ص52

_تلمسان:ص52

_توات:ص54

_تاسيلي:ص8

_تادمكة:ص8

_تيبستي:ص45

_توجو:ص15

_تكرور:ص55

-ج -

_جوس:ص6

_جزيرة العربية:ص20

_جرمة:ص25

_جيمي:ص11،12،13،21،32،33،34،
60

_جيراب:ص6

_جني:ص40،41،66،73،90

_جاران جابا:ص36.

-ح-

_حبشة:ص2،43

_الحجاز:ص54،55،56،72

-د-

_دارفور:ص3،25،34،44،72،.

_دورا:ص16،17،36.

-ر-

رانو:ص16،36،40.

-ز-

_زويلة:ص8،25.

-ق-

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

_زكزك:ص36

_زاريا(زازا):36،37،40،43،66

_زمفرة:ص36

_زاغرى:ص80.

-س-

_سورو:ص6

_سامبا:ص13،46

_سجلماسة:ص7

_سنغاي:ص4،15،37،38،57،58،59،74

88.

-ش-

_نهر شاري:ص6.

_شط الجريد:ص7.

-ص-

_صحراء الكبرى:ص1،16،42،45،51،87.

-غ-

_غانة:ص2،84.

_غدامس:ص7،8،46.

_غوبر:ص29،35،37.

_غات:46.

_غسرغمو:38،66،68،91.

_غاو:ص58،88.

-ف-

_فاس:53،73،89.

_فزان:ص7،12، 25،26،33.

_ فتري:ص13.

_فوتاتورو:47.

_فوتاجالو:ص47.

_مصر:ص1،10،12،21،23،24،34،35

_قوقاز:ص18

_قاهرة:ص20،22،89.

_ قريش:ص44.

_قيروان:ص73،89.

-ك-

_كبي:ص ،16،36.

_كوكو:ص8.

_كوار:ص12،13،15،20،25،26،43

80،87.

_كردفان:ص5

_كاكا:ص12،

_كمرون:ص6،15.

_كاكرة:ص13.

_كانم:ص4،8،10،11،12،13،20،22

24،26،32،33،34،37،38،39،43،

44،45،46،47،52،53،60،64،66

67،76،77،82،84،87،90.

_كانو:ص16،21،23،25،28،35،36

37،40،48،50،54،55،60،74،74

87،88،90.

_كاتسينا:16،21،23،30،36،37،38،

40،41،48،54،60،66،68،74،90.

-ل-

_لوقون:ص7.

-م-

_محيط أطلسي:ص2.

_ملغيغ:ص7

_مغرب:ص21.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

37،38،39،42،43،51،52،54،55،
56،57،61،68،72،73،74،80،90.
_مكة:ص23،56.
_مقرة:ص24.
_المغرب الأقصى:ص53.
_مالي:ص48،56،59.
-ن-
_النوبة:ص2،12،13،72
_النيجر:ص3،11،14،15،36،56،77
_نفوسة:ص7،20،25،80.
_نيجيريا:ص15
_نيل:ص11.
_نهر فولتا:ص3.
_نهر السنغال:ص3.
_نهر غامبيا:ص3
-هـ-
_هوسا:ص4،22،25،29،28،36،37،38
40،41،46،47،48،54،55،59،66،68
69،87،90.
_هقار:ص8
-و-
_وداي:ص4،20،34،59،87،88،90
_ورغلة:ص7،80.
_ونفرة:ص16
-ي-
_يرب:ص37.
_اليمن:ص47.
_ياورا:ص36.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المحتويات

مقدمة .....أ

الفصل الأول:السودان الأوسط مفاهيم و اصطلاحات

أولا:السودان الأوسط الدلالة و المفهوم.....1

-معنى لفظ السودان.....1

- حدود بلاد السودان.....1

- تعريف بلاد السودان الأوسط.....4

ثانيا:جغرافية المنطقة.....5

- التضاريس.....5
- المناخ و النبات.....8

ثالثا:ممالك السودان الأوسط قبل القرن 5هـ/11م.....10

- مملكة كانم-برنو.....10
- دويلات الهوسا.....13

الفصل الثاني:عوامل ظهور و نمو الحركة العلمية

أولا:التوسع في انتشار الإسلام و الخاصية التعليمية له.....18

- التوسع في انتشار الإسلام.....18
- الخاصية التعليمية للإسلام.....29

ثانيا:قيام الممالك الإسلامية و تشجيع ملوكها للعلم.....32

- قيام الممالك الإسلامية.....32
- تشجيع الملوك للعلم.....38

ثالثا:الهجرات المختلفة و أثرها الثقافي.....42

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- هجرات القبائل.....42
- الأثر الثقافي العلمي للهجرات.....48

رابعا:الصلات مع المراكز الثقافية في الشمال و الجنوب.....51

- صلات ممالك السودان الأوسط مع مراكز الشمال.....51
- صلات ممالك السودان الأوسط مع مراكز الجنوب.....56

الفصل الثالث:مظاهر نشاط الحركة العلمية

أولا:نظام التعليم و مؤسساته

- مراحل التعليم 62
- المناهج و المواد المدرسة.....64
- المؤسسات التعليمية.....66

ثانيا:الرحلة العلمية 72

ثالثا:انتشار اللغة العربية و المذاهب الإسلامية.....76

- انتشار اللغة العربية.....76
- انتشار المذاهب الإسلامية.....80

رابعا:الإنتاج الفكري و المراكز الثقافية المحلية.....85

- الإنتاج الفكري.....85
- المراكز الثقافية المحلية.....89

الفصل الرابع:أثر الحركة العلمية في الحياة الاجتماعية

أولا: أثر الحركة العلمية في طبقات المجتمع.....94

ثانيا:أثر الحركة العلمية في المعتقدات و العادات و ا.....100

ثالثا:أثر الحركة العلمية في النظام القبلي.....106

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رابعا:أثر الحركة العلمية يي الفن العمراني.....110

الخاتمة.....113

الملاحق.....116

قائمة المصادر و المراجع.....126

فهرس الأعلام.....139

فهرس الأماكن.....141

فهرس المحتويات.....144

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية